السلسلة الذهبية
في
مناقب السادة النقشبندية
قدس الله تعالى أسرارهم العلية

تأليف
الشيخ المربي العالم العلامة العارف بالله تعالى
محمد عيد عبد الله يعقوب الحسيني

دار الفارابي
للمعارف

السلسلة الذهبية

في

مناقب السادة النقشبندية

قدس الله تعالى أسرارهم العلية

تأليف

الشيخ المربي العالم العلامة العارف بالله تعالى

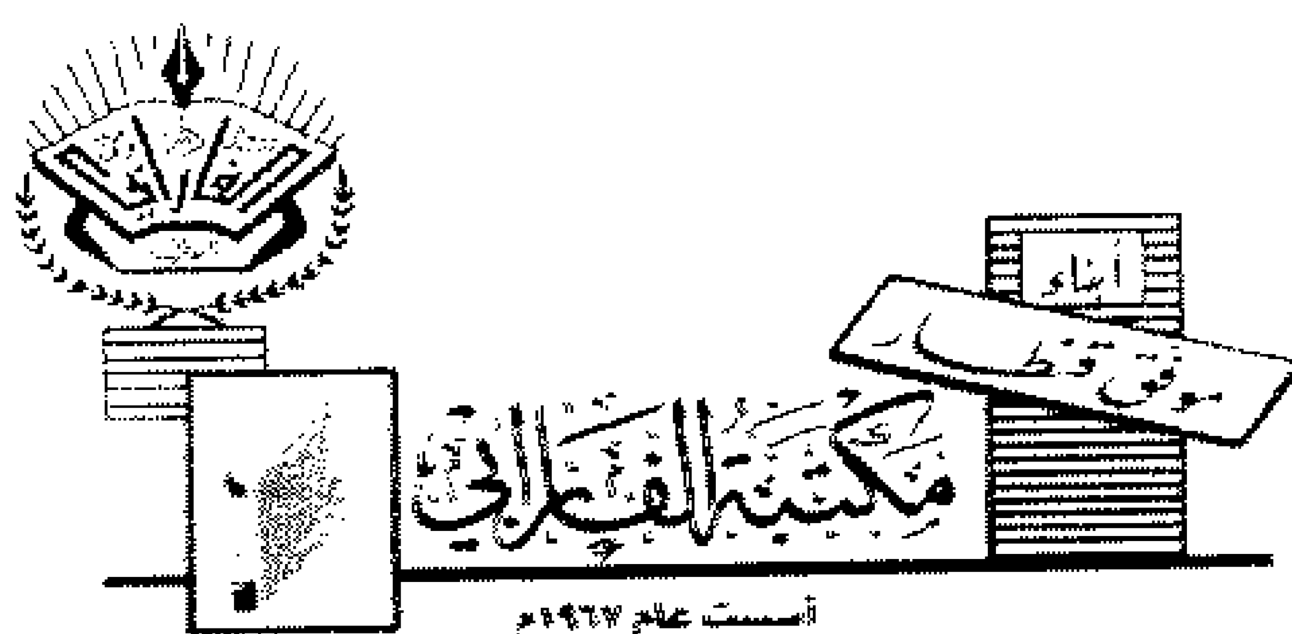
محمد عيد عبد الله يعقوب الحسيني

دار الفارابي

للمعارف

العنوان: السلسلة الذهبية في مناقب السادة النقشبندية
تأليف: الشيخ محمد عيد عبد الله يعقوب الحسيني
عدد الصفحات: ٤٣٦
القياس: ١٧×٢٤

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٤م



طباعة - نشر - ترجمة
سورية - دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي -
ص.ب: ٢٣٨٢ هاتف: ٢٢٢٦٧٨٦ فاكس: ٢٤٥٤٩٧٨
www.daralfarabi.com

الوكيل المعتمد في
الإمارات العربية المتحدة
دار الفارابي
الشارقة - دوار الساعة
هاتف ٢٦٣١١٣٠ - ٦ - ٠٠٩٧١
Farab@emirates.net.ap

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم...

الحمد لله رب العالمين..

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله، سيد الأولين والآخرين، والزاهدين والذاكرين إلى يوم الدين..

وبعد..

إذا كان لابد من الإهداء بمناسبة هذا الكتاب المتواضع الذي نقدمه بين يدي القارئ، لا يسعني إلا أن أهدي ذلك لسيدي رسول الله ﷺ سيد الواصلين..

ثم إلى خليفته الصديق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه..

ثم إلى سيدي سلمان الفارسي المعدود من آل بيت النبي ﷺ..

ثم إلى باقي رجالات هذه السلسلة النقشبندية العلية، الذين سابقوا ملائكة الرحمن بعبادتهم ومراقبتهم لربهم سبحانه وتعالى..

ثم إلى جميع الأولياء والصالحين..

علّ الله ﷻ ينفعنا ببركتهم، إنه سميع مجيب، ومَن سأله لا يخيب..

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم..

والحمد لله رب العالمين..

خادم السادة الفقراء

محمد عيد يعقوب الحسيني



لمحة موجزة عن المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله القائل في كتابه العزيز : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

والصلاة والسلام على تاج الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، ومَن اقتفى أثرهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

وبعد ،

ليُعلم بأن سنة الله تعالى كاملة ، وأنه يحفظ دينه بعباده الصالحين ، الذين عاهدوا الله تعالى على تتميم سيرة السلف الصالح ، وثبتهم الله بصدقهم ، وكلما انخفضت راية رُفعت مرة ثانية بذراع أقوى وبعزيمة أثبت .

فصاحب هذه الرسالة العلية هو ابن الجامع الأموي ، الذي سلك طريق أهل الله بصدق وإخلاص ، وعاش في البقاء بعد الفناء ، وكان أشعري المذهب والعقيدة : هو سيدي الشيخ محمد عيد عبدالله يعقوب الحسيني حفظه الله تعالى وأرضاه عنا آمين .

وأحب أن أضع بين يديك أيها القارئ خطوطاً عريضة حول حياة هذا الشيخ العارف الكبير؛ لتكون دافعاً لنا نحو السلوك والوصول .

فشيخنا هو سليل آل بيت النبوة من أبيه وأمه ، فأبوه حسيني ، وأمه حسنية .

ولد بين أسرة صالحة في بلدة صفد من أعمال شمال فلسطين ، في صبيحة العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ الموافق الرابع من آذار سنة ١٩٣٦م والناس في صلاة العيد ؛ فسمي لذلك عيداً .

وقد نشأ في الجامع الأموي على أيدي عدد كبير من مشايخ دمشق ، منهم : الشيخ إبراهيم الغلاييني مفتي قطنة ، والشيخ صالح العقاد الذي كان ينعت بالشافعي الصغير ، والشيخ عبدالحكيم المنير ، والشيخ محمد فايز الديرعطاني ، والشيخ أحمد قويدر ، والشيخ حمدي السفرجلاني . فقرأ عليهم علوم الشريعة من علوم الفقه ، والحديث ، والقرآن ، والتفسير ، والتوحيد ، وعلوم الآلات بكاملها . كما أنه أخذ الطريقة النقشبندية على يد شيخه الشيخ إبراهيم الغلاييني .

ولم يكن يقرأ العلم لأمر دنيوي إنما ليعمل به ، فكان طيلة أوقاته مكباً على العلم والعمل ، وقد اتخذ المذهب الشافعي مذهباً له .

كان منذ نعومة أظفاره متمسكاً بنصوص الشريعة المطهرة ، ومجداً في تطبيق السنة بعد الفرض ، واضعاً نصب عينيه هذه العبارة: [مَن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة] ، وكذلك تلك العبارة التي كان يرددها دائماً على مسامعنا : [الوقت سيف قاطع إنْ لم تقطعه قطعك] . وهكذا كان يتسابق مع زملائه نحو التطبيق ، نحو العمل ، نحو التفاني ، نحو الصدق والوفاء .

فكانت بدايته قاسية جداً ، وطريقه صعباً لم يكن مفروشاً بالورود ، ولكنه حيث سلك كان يجد التوفيق بفضل الله وبرحمته به ، وقد ذُلِّلَت له العقبات الكثيرة ، ونال المراتب الرفيعة .

وكان مقدماً عند جميع قرنائه وأصدقائه لرجاحة عقله ، وشجاعة رأيه . فكانوا يرجعون إليه دائماً في كل أمورهم وهو في سن مبكرة ، وكانت تحل بعون الله وبحكمة .

ومع هذا كله كانت صلته بشيوخه مستمرة ، فيرجع إليهم في كل الأمور ، ويشاورهم في كل الأحوال .

ولقد استلم شيخنا في دمشق جامع المعلق إماماً ومدرساً ، وهناك قام بمهام كبيرة جداً ، وأنشأ جيلاً من طلاب العلم الذين أصبحوا بعد ذلك أئمة وخطباء في دمشق .

كما قام بنفس الدور في دبي ، فأنشأ كذلك جيلاً مؤمناً من طلاب العلم والمعرفة .

فقد جعل وقته ونفسه وماله كله لخدمة الشريعة والإسلام ، وقد هدىٰ الله تعالىٰ علىٰ يديه عدداً كبيراً ، إلا أنه مع كل هذا العمل كان يجد نفسه مقصراً .

وكما هو حال كل ذي نعمة ، فقد تعرض شيخنا في حياته لمصاعب جمة ولأنواع كثيرة من الفتن والابتلاءات والإغراءات ، فثبت أمامها بفضل الله وكرمه وجوده ، وسار بهداية ورعاية وتوفيق من ملك الملوك سبحانه .

ولا زال علىٰ ذلك الطريق بهمة وإيمان .

هذه كانت صورة إجمالية لحياة سيدي الشيخ محمد عيد حفظه الله تعالىٰ ، ومن أراد تفصيلاً فليرجع إلىٰ ترجمته المستقلة .

والله أسأل أن يعرفنا قدر شيخنا ، وأن يثبتنا معه علىٰ طريق الآخرة ، وأن يوفقنا لاقتفاء أثره؛ لنكون خير خلف لخير سلف .

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد كل ولي ، وعلىٰ أصحابه وأهل بيته ووراثه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

خادم الشيخ

عبد المطلب الجعيدي

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي اصطفىٰ من عباده خلاصة ، وأكرم أولياءه وعباده الصالحين بطاعته .

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ، وعلىٰ آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين .

وبعد ،

إن السلسلة النقشبندية العلية هي السلسلة الذهبية المباركة ، هي سلسلة رجال أطهار بلغوا مواطن الرجال ، وسلكوا مسلك الأحرار ، وعلموا أن الدنيا مزرعة وليست بقرار ، فكانوا ذخراً من الأخيار ، رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم عنا .

هؤلاء الرجال اختارهم الله ليكونوا بركة لأزمنتهم ، بهم يُمطر الناس ويرزقون ، وبهم يُرفع عن البلاد والعباد الغلاء والعناء ، وبدونهم لا بقاء للحياة . فمن أحبهم أحب النور الإلهي الذي جعله الله في قلوبهم ، ومَن عشقهم فإنما يعشق السر العظيم الذي جعله الله بهم ، ومن تمسك بهم فقد تمسك بنور الله الكبير . فالأخذ عنهم شرف ، والجلوس أمامهم نفع ، والتمسك بأذيالهم فضل ، والمحروم من حُرم من بركتهم وابتعد عنهم .

وعندما نقرأ هذه السيرة ونذكر تراجم رجالها ، إنما نغترف من بحار النور ، نغترف من الأسرار العجيبة التي تحيط بهذه السيرة العطرة ، نغترف من مواعين رجالها المليئة بالدر الروحي ، ونتبرك بذكراهم ،

وتنتعش قلوبنا وأفئدتنا وأرواحنا ، وتجعلنا نقتدي بهؤلاء النخبة من هذه الأمة الموفقة الثابتة ، الذين وفقهم الله ﷻ لسلوك هذا الدرب الذي به الوصول إلىٰ حضرة علام الغيوب سبحانه .

فالتغني بهذه السيرة جميل ، ولكن الأجمل أن نتغنىٰ عملياً . انتسابنا لأمثال هؤلاء الرجال عظيم ، ولكن تطبيقنا لما كانوا عليه أعظم . فليس من العيب أن نقلد رجالاً وصلوا إلىٰ الله بدون نفوس ، إنما العيب أن نعرف أخطاءنا ونبقىٰ عليها .

هي حقيقة أحببت أن أضعها بين أيدي القراء قبل أن أبدأ بسرد هذه السلسلة العلية .

وأحب أن أضع حقيقة أخرىٰ ليعرفها الجميع ، وهي أن الماسونية العالمية وأهل المقت والخبث الذين بدؤوا حياتهم بدماء الأنبياء البريئة ، استطاعوا بعد عمل جاد وطويل أن يؤثروا علىٰ نفوس مريضة باعدوا بينها وبين الإسلام ، وجعلوها أشباحاً وليست حقائق ، لكنهم ما استطاعوا أن يطعنوا بإسلامنا ؛ لأن الأيدي البشرية والعقول المخلوقة مهما وصلت إلىٰ درجة عالية من الخبث فلن تنال من الإسلام ؛ فهو خاتم الأديان والرسالات ، وقد تولاه ربنا تعالىٰ بالحفظ إلىٰ يوم القيامة .

وستبقىٰ فئة قليلة محافظة علىٰ هذا الدين ، متمسكة به لا تخشىٰ في الله لومة لائم ، لا تلتفت لماسوني ولا لصليبي ، ولا إلىٰ المرجفين التابعين لهم . لا تلعب بهم الأهواء ، ولا تغرهم المادة ، ولا تؤثر بهم الدعايات ، ولا يلتفتون إلىٰ حطام الدنيا ، إنما هم قوم باعوا نفوسهم وأرواحهم ، بايعوا الله علىٰ أن يتمموا الطريق الذي بدأه سيد الكائنات ،

وأن يكونوا كما كان سلفهم الصالح . هم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه وشمّروا عن سواعد الجد ، هم رجال هذه السلسلة ، رجال الحقيقة والنور .

فهيا إلىٰ هذه السيرة ، إلىٰ سيرة أناس طلقوا الدنيا والآخرة معاً ، وطلبوا الله لحقيقة ذاته ، لم يكونوا تجاراً يريدون الجنة ، إنما أرادوا نور النور ، أرادوا ملك الملوك ، لذا كانوا أقوىٰ من المرجفين الذين يأخذون الدنيا بالدين ، هيبتهم في قلوب الجميع مهما حاول الآخرون أن يطعنوا وينالوا منهم . فإذا انتهت سيرة هؤلاء الرجال يعني بأن الحياة قد انتهت ، وأن إسرافيل أُمر أن ينفخ في قرنه .

نسأل الله تعالىٰ أن يوفقنا لأن يجعل هذه السيرة والسرد دافعاً لنا نحو الأكمل ، ونحو السلوك الحسن والانطلاق الذي يقربنا من ربنا وخالقنا ، لنكون كما كانوا ، ولنصل إلىٰ المستوىٰ الرفيع الذي وصلوه إن شاء الله تبارك وتعالىٰ ، لنعيش مع عالم الطهر والقداسة ، مع عالم لا يعرف الكره والتدليس .

أجل ، سلك من قبلنا وصدق ، ونسلك إن شاء الله ونصدق .

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

خادم السادة الفقراء

محمد عيد يعقوب الحسيني

ما هو التصوف؟

وبمناسبة رسالتي هذه أحب بداية أن أبين حقيقة يجب أن يعرفها كل مسلم ، وبها أرد على أولئك الذين يهاجمون السادة الصوفية فأقول :

إن الصوفية هي تطبيق حي لأفعال النبي ﷺ وأقواله وحياته ، فالتصوف الصحيح هو الأخذ بالكتاب والسنة ، ونحن لا علاقة لنا بالمتطرفين الذين يحاربون الصوفية لأغراض دنيوية يريدونها ، فالصوفي الذي يخرج عن تعاليم سيدنا محمد ﷺ ليس بصوفي .

والقاعدة عند السادة الصوفية تقول : (كل حقيقة خالفت الشريعة نضرب بها عرض الحائط) . فالحقيقة التي تتعارض مع الشريعة ليست حقيقة ، إنما هي سراب ومن قِبَل الشيطان .

فالميزان عندنا الشريعة ، لهذا قال علماؤنا : «مَن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، ومَن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق» . والحقيقة شمس ، ومن يستطيع أن ينكر الشمس إلا الأعمى أو المعاند؟!

فالإنسان عليه أن يكون بكفتين : كفة الشريعة ، وكفة الحقيقة . وهذا الذي وفقنا الله إليه وسلكناه منذ بدايتنا ، ومنذ سلوكنا لطريق العلم طريق الآخرة .

والحقيقة تتولد عن الزهد ، والطريق الذي سلكه النبي ﷺ هو مصدر التصوف ، وقد قالوا لنا من البداية : لا وصول بدون اتباع .

فالنبي ﷺ هو باب الله ، وكل حقيقة ومعرفة مصدرها رسول الله ، ولا يستطيع أحد الوصول إلى الله بدونه ﷺ ، وهذا الكلام ليس عفوياً بل هذا ما نلقى الله عليه .

فإذا عرفنا هذا الباب لا بد لنا أن نحترمه ونوقره ، وأن نكون معه كما يريد لا كما نريد . يجب أن نكون مُتَّبِعين ؛ لأن الإسلام مُتَّبَع وليس مُتَّبِعاً .

وأقول كذلك :

نرىٰ متسكعين كثراً علىٰ موائد الصوفية ، وهؤلاء يضرون كثيراً .

فالصوفية ليست بلبس الصوف ، بل هي الأخذ من يد عالم عارف . الصوفية تؤخذ من يد صالحة طيبة ، تنميه وتربيه التربية الإسلامية .

ليس الصوفي من لبس الصوف وقلبه قلب ثعلب مليء بالحقد والحسد وعدم الرضا ، فذاك ثعلب بثوب شيخ .

نحن نريد قبل غسل الظاهر الذي هو القالب ، أن نغسل القلب وننقيه من السوىٰ والأدران ، ولو غُسل وصُفي لرأىٰ المُلك والملكوت . نريد أن تكون كل ذرة من ذرات جسمك وكل مسامة من مساماته عملياً عليها اسم الله تعالىٰ .

نحن لا نريد الصوفي بزماننا بثوب مرقع تخرج رائحته من بُعد ، بل نريد طالب الحقيقة أن يكون علىٰ أحسن حال ، غني القلب ولو كانت الدنيا بأكملها بيده من أقصاها إلىٰ أقصاها ، فلا تشغله عن حقيقته التي عمل من أجلها . وأن يكون نموذجاً في الأخلاق ، في الصدق ، في الأمانة ، في العطاء ، في الوفاء . . . ، بحيث إذا ذُكر ذُكرت جميع الأوصاف الحميدة .



الفصل الأول

تراجم
رجال السلسلة
النقشبندية العلية

❁ هذه أسماء رجال السلسلة النقشبندية العلية :

١- سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢- سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه
٣- سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه
٤- سيدنا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قدس الله سره
٥- سيدنا الإمام جعفر الصادق قدس الله سره
٦- سيدنا الشيخ أبو يزيد البسطامي قدس الله سره
٧- سيدنا الشيخ أبو الحسن الخرقاني قدس الله سره
٨- سيدنا الشيخ أبو علي الفارمدي قدس الله سره
٩- سيدنا الشيخ يوسف الهمداني قدس الله سره
١٠- سيدنا الشيخ عبد الخالق الغجدواني قدس الله سره
١١- سيدنا الشيخ عارف الريوكري قدس الله سره
١٢- سيدنا الشيخ محمود الإنجيري الفغنوي قدس الله سره
١٣- سيدنا الشيخ العزيزان علي الرامتني قدس الله سره
١٤- سيدنا الشيخ محمد بابا السماسي قدس الله سره
١٥- سيدنا الشيخ الأمير كلال قدس الله سره
١٦- سيدنا الشيخ محمد بهاء الدين الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند قدس الله سره
١٧- سيدنا الشيخ علاء الدين العطار قدس الله سره
١٨- سيدنا الشيخ يعقوب الشرفي الحصاري الجرخي قدس الله سره
١٩- سيدنا الشيخ ناصر الدين عبيدالله الأحرار قدس الله سره
٢٠- سيدنا الشيخ محمد الزاهد قدس الله سره
٢١- سيدنا الشيخ الدرويش محمد الأمكنكي قدس الله سره

٢٢- سيدنا الشيخ محمد الخواجكي الأمكنكي قدس الله سره

٢٣- سيدنا الشيخ محمد الباقي قدس الله سره

٢٤- سيدنا الشيخ أحمد الفاروقي العمري قدس الله سره

٢٥- سيدنا الشيخ محمد المعصوم قدس الله سره

٢٦- سيدنا الشيخ محمد سيف الدين الفاروقي قدس الله سره

٢٧- سيدنا الشيخ نور محمد البدواني قدس الله سره

٢٨- سيدنا الشيخ شمس الدين حبيب الله جان جانان المظهر قدس الله سره

٢٩- سيدنا الشيخ عبد الله الدهلوي قدس الله سره

٣٠- سيدنا الشيخ خالد البغدادي الدمشقي النقشبندي ذو الجناحين قدس الله سره

٣١- سيدنا الشيخ إبراهيم النوراني قدس الله سره

٣٢- سيدنا الشيخ خالد الجزري قدس الله سره

٣٣- سيدنا الشيخ صالح السبكي قدس الله سره

٣٤- سيدنا الشيخ حسن النوراني قدس الله سره

٣٥- سيدنا الشيخ قاسم الهادي قدس الله سره

٣٦- سيدنا الشيخ عيسى أبو شمس الدين الكردي قدس الله سره

٣٧- سيدنا الشيخ إبراهيم الغلاييني قدس الله سره

٣٨- سيدنا الشيخ أبو الخير الميداني قدس الله سره

٣٩- خادم الشريعة والحقيقة محمد عيد يعقوب الحسيني

رضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم عنا آمين...



١- شيخ الشيوخ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

هو أول الرجال في هذه الطريقة وأصلها ، منه تتفجر ينابيع المعارف والحكمة والأنوار الربانية ، وهو الرحمة المهداة للعالمين ﷺ .

هو وسيلة كل من توسل ، وأصل لكل من ادعىٰ الولاية ، وباب لكل من وصل إلىٰ الله تعالىٰ ، فمن أتىٰ من غير بابه رُدَّ ، ومن قصد غير طريقه ضل ، ومن تكلم بغير هديه فشل ، حيث هو باب الخيرات والمعارف ، وأب لكل ولي وعارف ، بل عند بابه وعلىٰ أعتابه وقفت تيجان الأولياء ورؤساء العارفين ، ومن منهله شرب الأوّلون والآخِرون .

نسبه الشريف :

هو ﷺ محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب[١] بن هاشم[٢] بن عبد مناف[٣] ابن قصي[٤] بن كلاب[٥] بن مُرة[٦] بن كعب[٧] بن لؤي بن غالب بن فهر

---

(١) يكنىٰ بأبي الحارث ، واسمه شيبة الحمد ، وأمه سلمىٰ بنت عمرو .

(٢) اسمه عمرو العلا ، مات بغزة وله عشرون سنة ، وقبره هناك .

(٣) اسمه المغيرة ، وكنيته أبو عبد شمس .

(٤) اسمه زيد ، وهو أول من أصاب مُلكاً من بني كعب بن لؤي ، وكانت له الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء . وهو الذي بنىٰ دار الندوة التي كانت تقابل ميزاب الرحمة من الكعبة ، فسمي مُجمِّعاً لجمعه لقومه . وهو الذي حفر أول بئر بمكة وسماه العَجول قبل زمزم ؛ لأن الذي اكتشف زمزم هو عبدالمطلب بإشارة من الله تعالىٰ .

(٥) اسمه حكيم ، وكنيته أبو زهرة .

(٦) كنيته أبو يقظة ، وقد أنجب ثلاثة من الأولاد : كلاباً ، وتميماً جد أبي بكر الصديق وطلحة ابن عبيد الله ، ويقظة .

(٧) هو أول من جمع ليوم العروبة .

ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . . . ثم يسير النسب إلىٰ إسماعيل إلىٰ إبراهيم إلىٰ أبينا آدم عليهم الصلاة والسلام .

وهذا هو النسب الذي اعتمده العلماء وبدون شك ، وهو النسب العدناني .

مولده :

ولدﷺ عام الفيل في الدار التي في الزقاق المعروف بزقاق المولد في شعب بني هاشم ، والتي اتخذها الحكم الوهابي مزبلة ، ثم أُهملت حتىٰ قيّض الله تعالىٰ مَن اشتراها وجعلها مكتبة .

وهذا العام كما يُعلم هو العام الذي أتىٰ فيه أبرهة وأراد هدم الكعبة ، وقد أهلكه الله تبارك وتعالىٰ قبل أن يحقق أمله ، وقبل أن يبلغ غايته في هذا العام ، حيث لم تكن العرب تؤرخ الوقت .

ولدﷺ يوم الإثنين[1] في ربيع الأول في الثاني عشر علىٰ المعتمد - وهناك أقوال أخرىٰ - ، في الربيع وهو أعدل الفصول .

ولدﷺ ساجداً ، كما ثبت أنه ولد مختوناً .

وقبل مولده كان قد أخبر عنه الأحبار ، وتكلمت عنه الكتب السماوية ، وذكره جميع الأنبياء : (محمد رسول الله ، مولده بمكة ، ومهاجره بيثرب ، وملكه بالشام) .

---

(١) وفي يوم الإثنين كذلك نبوءﷺ ، ورُفع الحجر الأسود إلىٰ مكانه ، ونزلت سورة المائدة ، وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام .

لم تجد أمه عند حمله وحماً ولا تعباً كما تجده النساء ، وقد رأت كثيراً أثناء حملها مما لا يراه النساء من الأنوار والملائكة . فعند مولده ﷺ رأت نوراً ساطعاً سطع منها ، وظهرت لها قصور بصرىٰ والبيت وما بين المشرق والمغرب ، وحصلت لها أمور كثيرة .

وكان لمولده ﷺ ضجة كبيرة عظيمة في السماوات والأرض . أما السماء فقد تزيّنت ، واستعد الملائكة الكرام لاستقبال هذا المولود الكريم ، الذي هو أفضل مخلوق وُجد علىٰ ظهر اليابسة منذ بدء الخليقة ، فكما ورد ببعض الأحاديث أنه حضر مولده عدد كبير من الملائكة . وأما الأرض فقد ضجت وضاقت بالشياطين ذرعاً ، ومُنعوا من اختراق السمع ، ورَنَّ[1] إبليس .

ولقد فرح جده عبدالمطلب عندما أُخبر بمولده ، وطاف به الكعبة ، وسمّاه محمداً ليُحمد ، وذبح له يوم سابعه العقيقة .

وكان ﷺ في مهده يناغي القمر ، وهنا يقول العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ : « قلت : يا رسول الله ، رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بإصبعك ، فحيث أشرتَ إليه مال . قال : إني كنت أحدثه ويحدثني ، ويلهيني عن البكاء ، وأسمع وَجْبَتَه يسجد تحت الكرسي »[2] .

كما ورد أن الملائكة الكرام كانت تحرك مهده ﷺ ، وأنَّ أول كلام

---

(١) رن أي صاح . وقد ورد أن إبليس رَنَّ أربع مرات : رنة حين لعن ، ورنة حين أُهبط إلىٰ الأرض ، ورنة حين وُلد رسول الله ﷺ ، ورنة حين أُنزلت فاتحة الكتاب .

(٢) رواه الأصبهاني في دلائل النبوة ، وقوله : وَجْبَته أي سقطته .

تكلم به ﷺ : (الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً) .

وقد هيّأ الله تعالىٰ له ﷺ من أسماء مربيه رموزاً نتّخذها :

- فمن أمه [آمنة بنت وهب] : الأمن .

- ومن مرضعته [حليمة] : الحِلم والسعد .

- ومن مربيته [الشَّفّاء] : الشِفاء من الأمراض والبركة .

مرضعاته :

كان جملة من أرضعنه ﷺ عشر نسوة :

١- أمه آمنة بنت وهب : وقد أرضعته سبعة أيام .

٢- ثويبة : هي مولاة لأبي لهب ، وقد أعتقها حين بشرته بمولد النبي ﷺ .

قال عروة : «فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله في النوم بشر حيبة ، فقال له : ماذا لقيتَ؟ فقال أبو لهب : لم ألق بعدكم رخاء ، غير أني سقيت في هذه مني بعتاقتي ثويبة - وأشار إلىٰ النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع -»(١) .

وقد أرضعته ثويبة أياماً بلبن ولدها مسروح حتىٰ أتت حليمة السعدية . وكانت قبله قد أرضعت الحمزة وأبا سلمة بن عبدالأسد ، ولم يُعلم لها إسلام .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، والبيهقي في سننه ، وعبدالرزاق في مصنفه . كما ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن السهيلي أن العباس يقول : لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال : ما لقيتُ بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عني كل يوم إثنين . قال : وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم الإثنين ، وكانت ثويبة بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها .

٣- حليمة السعدية : عاش عندها ، وشُق صدره الشريف وهو في ديارها[١] ، وقد رأت الخيرات والآيات والكرامات الكثيرة .

روي عن محمد بن المنكدر مرسلاً قال : « استأذنت امرأة على النبي ﷺ قد كانت ترضعه ، فلما دخلت عليه قال : أمي أمي ، وعمد إلى ردائه فبسطه لها ، فقعدت عليه »[٢] .

وعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يقسم لحماً بالجِعْرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور ، إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى رسول الله ﷺ، فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت : مَن هذه؟ قالوا : هذه أمه ﷺ التي أرضعته »[٣] .

وفي مختصر سنن أبي داود : حليمة أمه ﷺ أسلمت وجاءت إليه ، وروت عنه عليه الصلاة والسلام .

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى في الحدائق : قدمت حليمة بنت الحارث على النبي ﷺ بعد ما تزوج خديجة ، فشكت إليه جدب البلاد ، فكلّم خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً . ثم قدمت عليه بعد النبوة فأسلمت وبايعت ، وأسلم زوجها الحارث .

وقال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله تعالى : « لما وردت حليمة السعدية على رسول الله ﷺ بسط لها رداءه وقضى حاجتها ، فلما توفي

---

(١) وقد شق صدره الشريف ﷺ أربع مرات : وهو عند حليمة السعدية في الثالثة من عمره ، وهو ابن عشر سنين في بطحاء مكة ، وهو ابن أربعين عند البعثة ، وفي ليلة الإسراء والمعراج .

(٢) رواه ابن سعد في طبقاته .

(٣) رواه البخاري في الأدب وأبو داود والطبراني وابن حبان في صحيحه .

قدمت على أبي بكر ، فصنع لها مثل ذلك»[1] .

وعن عمرو بن السائب رحمه الله تعالى : أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه . ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر ، فجلست إليه . ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام رسول الله ﷺ وأجلسه بين يديه[2] .

وروى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال : «جاءت حليمة ابنة عبد الله أم النبي ﷺ من الرضاعة إلى رسول الله ﷺ يوم حنين ، فقام إليها وبسط لها رداءه ، فجلست عليه»[3] .

٤- امرأة من بني سعد : فقد روى ابن سعد في طبقاته عن ابن سعد بن أبي مليكة أن حمزة كان مسترضعاً له عند قوم من بني سعد بن بكر ، وكانت أم حمزة قد أرضعت رسول الله ﷺ وهو عند أمه حليمة .

٥- خولة بنت المنذر (أم بُردة الأنصارية النجارية) : قيل : أرضعته ، والمعتمد الذي يرتاح إليه الصدر أنها لم ترضعه ، بل أرضعت ولده إبراهيم .

٦- بركة (أم أيمن) : التي شربت بول النبي ﷺ بعد ذلك فقال لها : «إذاً لاتلج النار بطنك»[4] . والمشهور أنها من الحواضن لا من المرضعات .

---

(١) رواه ابن سعد مرسلاً .

(٢) رواه أبو داود بسند صحيح في كتاب الأدب .

(٣) حديث مرسل جيد الإسناد ذكره ابن حجر العسقلاني في الإصابة ، وابن عبدالبر في الاستيعاب .

(٤) حديث صحيح ذكره ابن حجر العسقلاني في تلخيص الحبير . وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، والدارقطني ، والطبراني ، وأبو نعيم من حديث أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن أم أيمن بلفظ : (أما إنك لا تتجعين بطنكِ بعده أبداً) ، وهو ضعيف من هذا الطريق . كما رواه أبو أحمد العسكري بلفظ : (لن تشتكي بطنكِ) .

٧ ، ٨ ، ٩ - نسوة من بني سليم : إذ مُرَّ به عليهن ، فأخرجت كل واحدة منهن ثديها وأرضعنه . ولم أر من ذكر أسماءهن ، فكنَّ من جملة أمهاته ﷺ .

١٠- أم فروة .

إخوانه من الرضاع :

١- عمه الحمزة .

٢- أبو سلمة بن عبد الأسد : وهو من السباقين الأُول إلىٰ الإسلام .

٣- عبد الله بن جحش ، والمعتمد أنه لم يَرضع مع النبي ﷺ وليس أخاً له .

٤- عبد الله بن الحارث : وهو ابن حليمة السعدية ، وهو الذي رضع مع النبي ﷺ . وقد وقع للبيهقي من طريق العلائي أن اسمه ضمرة ، والله تعالىٰ أعلم .

٥- حفص بن الحارث ، ذكره الحافظ في الإصابة ، ولم يقل : ابن الحارث وإنما قال : حفص بن حليمة السعدية التي أرضعت النبي ﷺ أخو النبي ﷺ من الرضاعة .

٦- أميمة بنت الحارث ، ذكرها أبو سعد النيسابوري .

٧- الشيماء : قيل : اسمها خِذافة ، وقيل : خذامة ، وقيل : حُذافة . وهي أخته وحاضنته كذلك .

٨- مسروح : وهو ابن ثويبة مولاة أبي لهب .

أوصافه الشريفة :

كان ﷺ أحسن الناس خَلْقاً وخُلُقاً ، قد اصطفاه الله تعالىٰ وبرّأه

من جميع العيوب الجسمية والروحية ، لهذا قال البراء بن عازب : « لم أر شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ » .

وقال حسان بن ثابت :

وأجمل منك لم تر قط عيني ... وأحسن منك لم تلد النساء
خُلِقْتَ مبرّأً من كل عيب ... كأنك قد خُلِقْتَ كما تشاء

ومما قيل كذلك في حسنه ﷺ :

لِمَ لا يضيء بك الوجود وليله ... فيه صباح من جمالك مُسْفِرُ
فبشمس حسنك كلُّ يوم مشرق ... وببدر وجهك كلُّ ليل مقمرُ
كم فيه للأبصار حُسْن مدهش ... كم فيه للأرواح راحٌ مسكرُ
سبحان مَن أنشاه من سُبُحاته ... بشراً بأسرار الغيوب يُبَشِّرُ
قاسوه جهلاً بالغزال تغزلاً ... هيهات يُشْبِهُه الغزال الأحورُ
هذا وحَقِّكَ ما له من مُشْبِهٍ ... وأرىٰ المُشَبِّهَ بالغزال يُكَفَّرُ
يأتي عظيمَ الذنب في تشبيهه ... لولا لِرب جماله يَستغفرُ
فَخِرَ المِلاح بحُسْنهم وجمالهم ... وبحسنه كل المحاسن تفخرُ
فجماله مجلىً لكل جميلة ... وله منار كل وجه نَيِّرُ
جنات عدن في جنا وجناته ... ودليله أنَّ المراشف كوثرُ
هيهات ألهو عن هواه بغيره ... والغير في حشر الأجانب يُحشرُ
كتبَ الغرام عليَّ في أسفاره ... كتباً تُؤَوَّل بالهوىٰ وتُفَسَّرُ
فدَعِ الدَّعِيَّ وما ادَّعاه من الهوىٰ ... فدَعِيُّه بالهجْر فيه يُهْجَرُ
وعليك بالعَلَم العليم فإنه ... لخطيبه في كل خَطْبٍ مِنبَرُ

فسيدنا يوسف الذي قطّع النسوة أيديهن لما رأوه - وهذا يدل علىٰ أنهن كن في قمة الذهول من جماله - كان يتصف بشطر حسن رسول الله ﷺ ، إنما كان يغطي جمال رسول الله ﷺ هيبته .

ومما قيل في أوصافه عليه الصلاة والسلام :

قال أبو هريرة رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ أبيضَ مُشرّباً بالحمرة ، ولم يكن بياضه صافياً[1] .

وكان ﷺ ضخم الرأس ، عظيم الهامة ، رَجِل الشعر وكان إلىٰ أنصاف أذنيه ، وقيل : كان يَضرب إلىٰ منكبيه . وهو شديد سواد شعر الرأس واللحية ، حيث حين وفاته لم يبلغ شيبه العشرين شعرة ، وكان أكثر الشيب ظهر في عنفقته الشريفة .

وكان وجهه ﷺ مدوّراً كالقمر مع استطالة تناسبه .

وكان ﷺ واسع الجبين ، أزج الحواجب[2] ، سوابغ بغير قرن[3] ، بينهما عِرق يدره الغضب[4] .

وكان ﷺ أدعَج[5] وأكحل العينين ، وعظيمهما[6] ، وكان أهدب الأشفار[7] .

---

(١) البياض الصافي يعرف بالبهق ، وهو غير مرغوب .

(٢) الأزج هو المقوس حاجبه مع طول في طرفه وامتداد ، وقيل : هو دقة الحاجبين وسبوغهما إلىٰ محاذاة آخر العين مع تقوس فيهما .

(٣) هو التام الطويل بمحاذاة آخر العين .

(٤) يدره أي يحركه ويظهره ، فكان النبي ﷺ إذا غضب امتلأ ذلك العرق دماً كما يمتلىء الضرع لبناً .

(٥) الدعج هو سواد حوله بياض ، إنما كان النبي ﷺ في بياض عيونه عروق حمر .

(٦) أي واسع العينين .

(٧) أي شعر أهدابه ﷺ كان طويلاً .

كان ﷺ يرىٰ في الليل كما يرىٰ في النهار ، ويرىٰ من خلفه كما يرىٰ من أمامه .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أقيموا صفوفكم وتراصوا ، فإني أراكم من وراء ظهري »[1] . قال بعضهم : إنَّ له عيناً كالثقب من الخلف ، وهذا ليس من شأننا في بحثنا هذا .

وكان سمعه ﷺ يختلف عن سمع البشر من الدقة والقوة غير المحدودة ، فكان يسمع ما لا يسمعه الحاضرون مع سلامة وتمام حواسهم ، فعندما كان يأتيه الوحي وله صوت كصلصلة الجرس ، كان ﷺ يسمعه ويعيه ، ولا يسمعه أحد من جلسائه .

وكان ﷺ دقيق الأنف ، أقنىٰ العِرْنَيْن[2] ، سهل الخدين[3] .

وكان ﷺ ضليع الفم[4] ، برّاق الثنايا[5] ، مُفَلَّجَ الأسنان[6] .

وكان ﷺ كث اللحية وعظيمها ، قد ورد أن عدد شعرها أربع وعشرون ومائة ألف كعدد الأنبياء .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود ، ورواه النسائي والبيهقي وابن حبان . وروىٰ نحوه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، ولفظه : (أحسنوا صلاتكم ، فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي) . كما روي بأسانيد أخرىٰ مختلفة .

(٢) العرنين هو الأنف نفسه ، أي طول أنفه ودقة أرنبته مع ارتفاع في وسطه ، والأرنبة هي المارنة من الأنف .

(٣) أي لم يكن في خده نتوء وارتفاع .

(٤) أي يتناسب مع حجم وجهه .

(٥) أي إذا فتح فمه فكأن النور يخرج منه .

(٦) أي أسنانه لم تكن متراكبة علىٰ بعضها إنما مفرقة .

وكان ﷺ أحسن الناس عنقاً ، فكان طويلاً كإبريق الفضة .

أما صفة ظهره ﷺ فنبدأ بخاتمه الذي هو بين كتفيه . واختلف هل هو بالشق الأيمن ، أم بالأيسر ، أم محاذ للقلب؟ وما رأيته من أدلة ونصوص يثبت أنه كان بينهما يميل قليلاً لليسرىٰ .

والخاتم لم يكن عند ولادته ، إنما بعد أن شُقّ صدره ﷺ عند الرسالة وانتهىٰ جبريل من ذلك ختم له بخاتم النبوة ، فكان عند الأربعين . وهناك قول أنه كان معه منذ صغره .

وقد اختلف في حجم الخاتم وصفته ، وهناك أقوال تصل إلىٰ عشرين قولاً . أحدها أنه مثل زر الحَجَلة ، الثاني : كالجُمْع ، الثالث : كبيضة الحمامة ، الرابع : ثلاث شعرات مجتمعات ، الخامس : كالسلعة الناتئة ، السادس : بضعة ناشزة ، السابع : كالبندقة ، الثامن : أنه أكبر كالتفاحة ، التاسع : كأثر المِحْجَم ، العاشر : كشامة سوداء تضرب إلىٰ الصفرة ، الحادي عشر : كركبة العنز ، الثاني عشر : كنور يتلألأ ، الثالث عشر : كبيضة النعامة ، الرابع عشر : غدة حمراء . . . إلىٰ آخر هذه الأقوال .

وأكثر الروايات تشير إلىٰ أنه كبيضة الحمامة ، مكتوب في باطنه : (الله وحده لا شريك له) ، وكذلك : (توجّه حيث شئت فإنك منصور) . وأما ظاهره فكان طبيعياً مُوَرّداً .

وكان ﷺ عريض الصدر ، مُشَبَّح الصدر[1] ، سواء بين البطن والصدر ، له شعر نابت من لُبَّتِه إلىٰ سرته كالقضيب ، ليس في صدره وبطنه شعر غيره .

---

(١) أي بادي الصدر غير ناتئ خلقة .

وفي صفة يديه ﷺ قال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : كان رسول الله ﷺ شَثن الكفين والقدمين[1] ، غليظ الأصابع ، سائل الأطراف[2] ، سبط القصب[3] .

وكان ﷺ ضخم الكراديس[4] والأعضاء ضخامة تتناسب مع جسمه الشريف .

وكان ﷺ معتدل القامة ، لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير ، بل كان مربوعاً وإلىٰ الطول أقرب ، كان إذا مشىٰ مع الطويل يُرىٰ أطول منه .

وكان ﷺ لا يُرىٰ له ظل في شمس ولا قمر كما قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما ، وقد أراد اليهود أن يطؤوا علىٰ ظله فلم يجدوا له ظلاً ، وهذه من معجزاته عليه الصلاة والسلام .

ولم يقم ﷺ مع شمس إلا وغلب ضوؤه ضوء الشمس ، ولم يقم مع سراج إلا وغلب ضوؤه ضوء السراج . والدليل ما ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « استعرت من حفصة بنت رواحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله ﷺ فسقطت عني الإبرة ، فطلبتها فلم أقدر عليها ، فدخل رسول الله ﷺ فتبيّنتُ الإبرة لشعاع نور وجهه »[5] .

وكان ﷺ كثير العرق ، وفي ذلك قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « ما شممت

---

(١) هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر ، ويُحمد ذلك في الرجال .

(٢) أي أطرافه ممتدة طوال ، ليست بمتعقدة ولا منقبضة .

(٣) أي ممتداً ذا استقامة كاملة ، ليس فيها تعقد ولا نتوء .

(٤) هي رؤوس العظام .

(٥) ذكره الأصبهاني في دلائل النبوة .

ريحاً قط أو عرقاً قط أطيب من ريح أو عرق النبي ﷺ »[1] .

وكان صوته ﷺ أجمل ما سمع الإنسان .

روىٰ قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : « ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً »[2] .

وكان رسول الله ﷺ إذا مشىٰ أسرع حتىٰ يهرول الرجال خلفه ، فلا يدركه أحد إلا وهو مهرول في مشيته .

عن عمرو بن الحارث أن أبا يونس مولىٰ أبي هريرة حدّثه عن أبي هريرة أنه سمعه يقول : « ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأنما الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ كأن الأرض تطوىٰ له ، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث »[3] .

وكان ﷺ إذا مشىٰ فكأنما ينحط من صبب ، لا يرفع الرجل حتىٰ يثبت الأخرىٰ ، فكانت مشيته تقلعاً . وكان لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، فإذا أراد أن ينظر وقف ونظر حيث شاء .

وكان ﷺ يتعمم دائماً ، فيلبس قلنسوة ويتعمم فوقها ، وقد لبس العمة البيضاء والخضراء . وكان لعمته عذبة قيل : إنها كانت تضرب بين منكبيه ، وقيل : هي أربعة أصابع .

علنا نستفيد بذكر أوصافه الشريفة ﷺ .

---

(١) رواه البخاري واللفظ له وأحمد وابن حبان ، وروىٰ مسلم والترمذي بنحوه .

(٢) رواه الترمذي ، وابن عدي في الكامل ، وابن حجر في فتح الباري .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه ، وأحمد في مسنده إلا أنه قال : في جبهته بدل وجهه .

جانب من حياته ﷺ :

لقد تعرضت بما استطعت عن وصف سيدنا محمد ﷺ من ملامحه الظاهرة ، ولا بد من أخذ بعض اللمحات عن سيرته ، مع العلم أن الرجل لو جلس أياماً طويلة ليكتب مناقبه عليه الصلاة والسلام فإنه لا يستقصيها ولا يُنهيها ؛ لأنها سيرة كاملة شاملة ، حياة وعقيدة ودين ، وكيف يستطيع المرء أن يستوعب الدين بمجلد أو بمائة؟! إنما نحاول أن نمر على بعض حياته ﷺ .

لقد توفيت أمه ﷺ وهو ابن أربع ، وقيل : ست ، وقيل : سبع ، وقيل : وهو ابن اثنتي عشرة سنة - وهذا قول ضعيف - .

ثم كفله جده عبد المطلب ، ورقّ عليه رقة لم يرقها على أولاده . تقول بركة أم أيمن : « كنت أحضن رسول الله ﷺ فغفلت عنه يوماً ، فلم أدر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسي يقول : يا بركة ، قلت : لبيك ، قال : تدرين أين وجدت ابني؟ قلت : لا أدري ، قال : وجدته مع غلمان قريباً من السدرة . لا تغفلي عنه يا بركة ، فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة ، وأنا لا آمنهم عليه »(١) .

ثم ربي ﷺ في بيت عمه أبي طالب ، ثم ذهب إلى الشام مع عمه أبي طالب وعاد من بصرى بإشارة إلى عمه من الراهب بحيرا .

ثم تزوج خديجة بنت خويلد ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء في غار حراء ﷺ ، ثم نزل عليه الوحي .

---

(١) روى بعضه ابن سعد في طبقاته .

وكان ﷺ دائماً في حياته منزهاً عن الخنا ، بعيداً عن كل عيب ، وكان كبيراً حتىٰ في طفولته .

زهده :

كان النبي ﷺ بقمة الزهد ، ومصدراً لكل زهد . ولا أقول : إنه كان بذلك عن قلة ، بل عُرضت عليه جبال مكة ذهباً فأباها ، عرض عليه المُلك فأبىٰ وهو يقول : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين »[1] .

كان يأتيه ﷺ مال كثير ، فلا ينام حتىٰ يوزعه في حب الله تعالىٰ .

كان إذا جاءه الفقير أعطاه ما استطاع ، ما قال لا في الخير أبداً .

غادر الدنيا وهو لم يملك درهماً ولا ديناراً ، ولو وُضعت الدنيا بأكملها بل والآخرة بيده لأنفق ذلك في طاعة الله تبارك وتعالىٰ .

وكان ﷺ يجلس علىٰ الحصير الخشن الذي كان يُصنع من خوص النخل .

وكان يجوع يوماً ويشبع يوماً ، ربط علىٰ بطنه الحجر أكثر من مرة ، وأكل الخل وقال : نِعْمَ الأُدُم الخل .

كان ﷺ إذا أتىٰ البيت يسأل : أعندكم طعام؟ فإن قالوا : نعم ، أكل وشرب اللبن ، وإن قالوا : لا ، يقول : نويت الصيام .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة والبيهقي في شعبه عن أبي سعيد الخدري بألفاظ مختلفة ، وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح الإسناد . كما روي من طرق أخرىٰ فيها ضعف .

تواضعه :

كان ﷺ في قمة التواضع مع أهل بيته ، مع الرجال ، مع النساء ، ومع الصغار .

كان إذا أوقفته امرأة وقف ساعة وأكثر حتىٰ تُقضىٰ حاجتها . وإذا رأىٰ الصغير جلس معه ، ومازحه وتكلم معه بمستواه . وإذا رأىٰ ذا شيبة احترمه وأكرمه واستمع إليه .

أراد النبي ﷺ أن يكون نبياً عبداً لا ملكاً ؛ لأنه أراد الدخول علىٰ الله تعالىٰ من باب التواضع .

رحمته :

كان ﷺ رحيماً بأصحابه لا يكلفهم فوق ما يطيقون ، صام وأفطر في السفر ، كما أفطر أمامهم في غزوة الفتح ، وكان معلماً في حياته كلها .

وكان ﷺ رقيقاً مع المرأة ، فكانت وصيته عند موته : « استوصوا بالنساء خيراً » [1] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيراً] . ورواه ابن ماجة والترمذي وقال : حسن صحيح عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال : « حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنىٰ عليه ، وذكر ووعظ ثم قال : استوصوا بالنساء خيراً ، فإنما هن عوان عندكم » .

حلمه[1] وعفوه[2] :

ما انتقم ﷺ لنفسه يوماً ، فعندما دخل مكة يوم الفتح على قريش وقد أُجلسوا بالمسجد الحرام ، وصحبه ينتظرون أمره فيهم مــن قتل أو غـيره ، قال : يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم؟ - وكما يُعلم أنهم طردوه وعذبوه ، وقالوا عنه : ساحر ومجنون- . فقالوا : خيراً ، أخ كريم وابــن أخ كريم . فقال ﷺ : أقول كما قال أخــي يوسـف : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف : ٩٢] ، اذهبوا فأنتم الطلقاء[3] .

وروى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أخبر أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه ، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمرة وعلق بها سيفه ، ونمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، وإذا عنده أعرابي ، فقال : إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً ، فقال : مَن يمنعك مني؟ فقال ﷺ : الله ثلاثاً ، ولم يعاقبه وجلس .

وروى الحاكم في مستدركه وابن حبان في صحيحه عن جابر أيضاً قال : قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل ، فرأوا من المسلمين غرة ، فجاء رجل منهم يقال له : غورث بن الحارث حتى قام على رأس

---

(١) الحلم هو حالة توقير وثبات عند الأسباب التي تحرك ، فلا ينتقم لنفسه ممن آذاه .

(٢) العفو هو ترك المؤاخذة ، فلا يؤاخذ خصمه فيما أساء إليه .

(٣) رواه البيهقي في سننه ، وابن حبان في الثقات ، والسيوطي في الجامع الصغير .

رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك مني؟ قال : الله . فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال : من يمنعك مني؟ قال : كن خير آخذ ، قال : أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك . قال : فخلى رسول الله ﷺ سبيله ، فجاء إلى قومه فقال : جئتكم من عند خير الناس .

لقد فعلها النبي ﷺ ليبين للأمة كيف يكون القائد ، ولم يفعلها فخراً حيث هو المعلم .

شجاعته :

قال سيدنا علي كرم الله وجهه : « كنا إذا حمي البأس ولقي القومُ القومَ اتّقينا برسول الله ﷺ ، فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه »[1] .

وروى ابن سعد في طبقاته أنه في يوم حنين حين فر الناس وبقي النبي ﷺ وحده ، أخذ ينادي : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبدالمطلب . ثم قال للعباس بن عبد المطلب : ناولني حصيات ، فناوله حصيات من الأرض ، ثم قال ﷺ : شاهت الوجوه ، ورمى بها وجوه المشركين وقال : انهزموا ورب الكعبة . وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وانهزموا لا يلوي أحد منهم على أحد .

وأما قوته البدنية فهي كقوة أربعين من رجال الجنة ، وقصة ركانة

---

(١) حديث صحيح الإسناد رواه الحاكم في المستدرك .

المعروف بأنه كان يصرع العرب والعجم تُبَيِّنُ ذلك . فقد روىٰ أبو داود في المراسيل عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله ﷺ بالبطحاء ، فأتىٰ عليه يزيد بن ركانة أو ركانة بن يزيد ومعه أعنز له ، فقال له : يا محمد ، هل لك أن تصارعني؟ قال : ما تسبقني؟ قال : شاة من غنمي . فصارعه فصرعه ، فأخذ شاة ، فقال ركانة : هل لك في العَوْد؟ ففعل ذلك مراراً فقال : يا محمد ، والله ما وضع جنبي أحد إلىٰ الأرض ، وما أنت بالذي تصرعني . فأسلم ورد عليه النبي ﷺ غنمه[1] .

وقال ابن حجر في الإصابة : قدم ركانة من سفر فأُخبر خبر النبي ﷺ ، فلقيه في بعض جبال مكة فقال : يا ابن أخي ، بلغني عنك شيء ، فإن صرعتني علمتُ أنك صادق . فصارعه فصرعه رسول الله ﷺ ، فأسلم ركانة .

علمه وعبادته :

هو من علم الله تعالىٰ ، وهو ﷺ الذي وقف علماء لا أقول : الأمة فقط بل علماء العالم علىٰ شاطئ بحره ، ولا زالوا وسيبقون ينهلون منه وهو لم ينقص .

أما عبادته فقد كانت جميع أموره ﷺ عبادة .

---

(١) هو حديث مرسل جيد وإسناده صحيح إلىٰ سعيد بن جبير إلا أن سعيداً لم يدرك ركانة ، ورواه البيهقي بإسناد آخر موصولاً إلا أنه ضعيف . وقصة الصراع مشهورة لركانة ، لكن جاء من وجه آخر أنه يزيد بن ركانة وفيه ضعف ، والصواب ركانة . وقال ابن حبان : في إسناد خبره في المصارعة نظر يشير إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي من رواية أبي الحسن العسقلاني أن ركانة صارع النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ .

لذا فإن الإمام البوصيري ما جاوز حده وقد كان عارفاً عندما قال :

دع ما ادعته النصارىٰ في نبيهم　　　واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وفاته :

روىٰ ابن سعد في طبقاته عن محمد بن جعفر عن أبيه قال : لما بقي مِنْ أَجَله ﷺ ثلاث ليال نزل عليه جبريل الأمين عليه السلام فقال : يا أحمد ، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك ، وتفضيلاً لك ، وخاصة لك ، يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول لك : كيف تجدك؟ قال : أجدني يا جبريل مغموماً ، وأجدني يا جبريل مكروباً .

فلما كان في اليوم الثاني ، هبط إليه جبريل فقال له مثل ذلك ، وأجابه رسول الله ﷺ بمثل ما أجابه به بالأمس .

فلما كان اليوم الثالث ، نزل إليه جبريل وهبط معه ملك الموت ، ونزل معه مَلَك يقال له : إسماعيل يسكن الهواء ، لم يصعد إلىٰ السماء قط ولم يهبط إلىٰ الأرض منذ يوم كانت الأرض علىٰ سبعين ألف مَلَك ، ليس منهم ملك إلا علىٰ سبعين ألف مَلَك . فسبقهم جبريل فقال : يا أحمد ، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك ، وتفضيلاً لك ، وخاصة لك ، يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول لك : كيف تجدك؟ قال : أجدني يا جبريل مغموماً ، وأجدني يا جبريل مكروباً . ثم استأذن مَلَك الموت فقال جبريل : يا أحمد ، هذا مَلَك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن علىٰ آدمي كان قبلك ، ولا يستأذن علىٰ آدمي بعدك . قال : ائذن له . فدخل مَلَك الموت فوقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، يا أحمد ، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني به ، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها ،

وإن أمرتني أن أتركها تركتها . قال : أوَ تفعل يا مَلَك الموت؟ قال : بذلك أُمرتُ أن أطيعك في كل ما أمرتني . فقال جبريل : يا أحمد ، إن الله قد اشتاق إليك ، قال ﷺ : فامض يا مَلَك الموت لما أُمرتَ به . قال جبريل : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر موطئي الأرض ، إنما كنتَ حاجتي من الدنيا .

فتوفي رسول الله ﷺ ، وجاءت التعزية يسمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص : [السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . إن في الله عزاءً من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل ما فات ، فبالله ثقوا ، وإياه فارجوا ، إنما المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته] .

وكانت وفاته ﷺ كما جاء في الأحاديث الصحيحة في حجر عائشة وبين سَحْرها ونحرها ، فقد روي عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : « توفي النبي ﷺ في بيتي ، وفي يومي ، وبين سحري ونحري » (١) .

وقيل : إنه توفي في حجر علي ، والصحيح الأول . وذلك في يوم الإثنين حين اشتد الضحى لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وقيل : لليلتين خلتا منه .

ولما مات ﷺ سُجِّيَ بثوب حِبَرة كما روي عن عائشة أم المؤمنين قالت : « لما توفي رسول الله ﷺ سُجِّيَ ببرد حبرة » (٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « لما قُبض رسول الله ﷺ كان أبو بكر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، ورواه الحاكم وأحمد وابن حبان ، كما أخرجه مسلم من وجه آخر .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، ومسلم ، والنسائي ، وأبو داود في سننه . كما رواه ابن سعد في طبقاته عن أبي هريرة .

في ناحية بالمدينة . قال : فدخل على رسول الله ﷺ ، فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ ، فجعل يقبله ويقول : بأبي وأمي ، طبتَ حياً وميتاً »[1] .

وعن أبي سلمة أن عائشة أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح[2] حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمّم[3] رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حِبَرة ، فكشف عن وجهه ثم أكبّ عليه ، فقبّله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مِتّها[4] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « لما توفي رسول الله ﷺ جاء أبو بكر فدخل عليه فرفعت الحجاب ، فكشف الثوب عن وجهه فاسترجع فقال : مات والله رسول الله . ثم تحوّل قِبَل رأسه فقال : وانبياه . ثم حدر فمه فقبّل وجهه ، ثم رفع رأسه فقال : واخليلاه . ثم حدر فمه فقبّل جبهته ، ثم رفع رأسه فقال : واصفياه . ثم حدر فمه فقبّل جبهته ، ثم سجّاه بالثوب ثم خرج »[5] .

وبذلك نكون قد تناولنا نقطة من بحار سيدنا محمد ﷺ ، ومَن أراد

---

(١) رواه البخاري في التاريخ عن ابن عمر ، وفي الصحيح عن عائشة بزيادة : [والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً] . ورواه البزار ، وابن سعد في طبقاته ولفظه : [بأبي أنت وأمي ، ما أطيب حياتك وأطيب ميتتك !] .

(٢) بضم السين والنون وقيل : بسكون النون ، وهو موضع بعوالي المدينة في منازل بني الحارث ابن الخزرج .

(٣) بمعنى قصد .

(٤) رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن حبان .

(٥) رواه ابن سعد في طبقاته ، وروى أحمد في مسنده وأبو يعلى بنحوه .

التبسط في ذلك فليرجع إلى كتابنا (سيرة الأنبياء والمرسلين) .

اللهم صل وبارك عليك يا سيدنا يا رسول الله ، يا صاحب المعجـــزات والآيـات ، يـا مَـن وقـف جميـع الأنبيـاء والمرسـلين خلفـك مصلـين، ولله راكعين ساجدين .



٢ - سيدنا أبو بكر الصديق

هو أول من أسلم من الرجال ، وأول من آمن واتبع النبي ﷺ قولاً وفعلاً ، بنفسه وماله وولده ، رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه عنا .

نسبه ومولده :

هو عبد الله بن عثمان - المكنىٰ بأبي قحافة - بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي .

أمه هي سلمىٰ بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، كانت تكنىٰ بأم الخير ، وهي ابنة عم أبي قحافة . وقيل : اسمها ليلىٰ ، والأول أصح حيث ليلىٰ هي ابنة أخيه .

وُلد رضي الله عنه بعد عام الفيل بثلاث سنوات .

وكان اسمه قبل الإسلام عبد رب الكعبة ، ثم سمّاه النبي ﷺ بعبدالله .

إسلامه :

قال ابن إسحاق : كان رسول الله ﷺ فيما بلغني يقول : « ما دعوت أحداً إلىٰ الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه »[1] .

أما قصة إسلامه ، فقد كان رضي الله عنه قبل بعثة النبي ﷺ تاجراً ، وثقة عند

---

(١) ذكره الطبري في الرياض النضرة ، وابن هشام في السيرة النبوية . وقوله : عكم ، أي ما تأخر وما تردد فيه .

قريش ، ومرجعاً لهم في كل أمورهم ، وكان محبباً إليهم .

فسافر يوماً إلىٰ اليمن ، واجتمع هناك مع شيخ من الأزد قد قرأ من الكتب وعَلِم من عِلْم الناس كثيراً . فقال له الشيخ : أحسبك حرمياً؟ قال أبو بكر : نعم ، أنا من أهل الحرم . فقال الشيخ : أحسبك قريشياً؟ قال : نعم ، أنا من قريش . فقال : أحسبك تيمياً؟ قال : نعم ، فأنا ابن عثمان من ولد كعب بن سعد بن تيم بن مرة . قال الشيخ : بقيت لي فيك واحدة ، قال : ما هي؟ قال : تكشف لي عن بطنك ، قال أبو بكر : لا أفعل أو تخبرني لِمَ ذاك؟ فقال الشيخ : أجد في العلم الصحيح الصادق أن نبياً يُبعث في الحرم ، يعاونه علىٰ أمره فتىٰ وكهل ، وهذه أيامه . فأما الفتىٰ فخوّاض غَمَرات ، ودفاع معضلات . وأما الكهل فأبيض نحيل علىٰ بطنه شامة ، وعلىٰ فخذه اليسرىٰ علامة ، وما عليك إلا أن تريني ما سألتك ، فقد تكاملت لي فيك الصفة إلا ما خفي علي . فكشف له سيدنا أبو بكر عن بطنه ، فرأىٰ الشيخ شامة سوداء فوق سرته ، فقال : أنت ورب الكعبة ، أنت ذاك الكهل الذي يساعد النبي أول بعثته -وكان أبو بكر حينها فوق الثلاثين من العمر- . ثم قال : وإني متقدم إليك بأمر فاحذره ، قال أبو بكر : ما هو؟ قال : إياك والميل عن الهدىٰ ، وتمسك بالطريقة المثلىٰ والوسطىٰ ، وخَفِ الله فيما خوّلك وأعطاك .

يقول أبو بكر : فقَدِمْتُ مكة وقد بُعث النبي ﷺ ، ورؤوس قريش ينتظرون عودتي . فجاءني عقبة بن أبي معيط ، وشيبة ، وربيعة ، وأبو جهل ، وأبو البحتري ، وصناديد قريش . فقلت لهم : هل نابتكم نائبة أو ظهر فيكم أمر؟ قالوا : يا أبا بكر أعظم الخطب ، يتيم أبي طالب يزعم

أنه نبي ، ولولا أنت ما انتظرنا به ، فإذا جئتَ فأنت الغاية والكفاية .

فيقول أبو بكر : فصرفتهم على أحسن حال ، وسألت عن النبي ﷺ لأنظر الأمر ، فقيل : إنه في منزل خديجة . فقرعت عليه الباب فخرج إلي ، فقلت : يا محمد ، فُقِدْتَ من منازل أهلك ، وتركتَ دين آبائك وأجدادك؟ فقال النبي ﷺ : يا أبا بكر ، إني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم ، فآمن بالله . هنا نزلت هيبة النبوة والأنوار والرحمات على قلب أبي بكر ، فقال : ما دليلك على ذلك؟ قال : دليلي الشيخ الذي لقيتَ باليمن ، فقال : وكم مِن شيخ لقيتُ باليمن؟ قال : الشيخ الذي أفادك الأبيات ، فقال : ومَن خبّرك به؟ قال : خبّرني المَلَك المُعَظَّم الذي أتى الأنبياء قبلي . فيقول أبو بكر : قلت عندها وبدون تردد : مُدَّ يدك لأبايعك ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . ثم انصرفت وما بين لابتيها أشد سروراً من رسول الله ﷺ بإسلامي .

ثم كان اندفاعه رضي الله عنه بدون حدود مع رسول الله ﷺ في جميع المجالات ، وقف يقارع كفار قريش وصناديدها .

ولقد أسلم على يده عدد منهم : عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيدالله ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم .

هجرته مع رسول الله ﷺ :

لقد هاجر أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ ، وصحبه وآنسه فيه ، ووقاه بنفسه . بحيث قال العلماء : لو قال قائل الصحابة سوى أبي بكر ليست لهم صحبة لم يكفر ، ولو قال

لم يكـن صـاحب رسـول الله ﷺ كفـر . وذلـك لِمـا ورد في القـرآن الكريـم في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وكانت الهجرة بعد بيعة العقبة الثانية بشهرين وأيام ، حيث بويع ﷺ أواسط أيـام التشـريق ، وخـرج لهـلال ربيـع الأول . وفي تلـك المـدة كـان مصعب قد سبق النبي ﷺ إلىٰ المدينة ، ونشر الإسلام هناك .

فعندما علم سيدنا أبو بكر بنية سيدنا محمـد ﷺ بـالهجرة ، قـال لـه : أسألك الصحبة يا رسول الله ، فأجابه : أنت أخي وصاحبي .

وعندما جاء سيدنا جبريل للنبي ﷺ وأخبره بالهجرة ، وبما اتفـق عليـه القوم وأنهم ينتظرونه في الخارج ، خرج ﷺ ووضع علىٰ رؤوسهم الـتراب ، ثم انطلق إلىٰ بيت أبي بكر وكان قد أعد الرواحل ، وأخذ المال لله ورسوله ولم يترك لأولاده شيئاً .

يروىٰ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قـالت : « لمـا توجـه رسـول الله ﷺ من مكة إلىٰ المدينة ومعه أبو بكر ، حمل أبو بكر معه جميع ماله خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم . فأتاني جدي أبو قحافـة - وقـد ذهـب بصـره - فقال : إن هذا والله قد فجعكم بماله مع نفسه ، فقلـت : كـلا يـا أبـتِ ، قـد ترك لنا خيراً كثيراً . فعمدتُ إلىٰ أحجار فجعلتهن في كوة البيـت - وكـان أبو بكر يجعل أمواله فيها - ، وغطيت علـىٰ الأحجـار بثـوب ، ثـم جئـت فأخذت بيده فوضعتها علىٰ الثوب ، فقال : أما إذا ترك هذا فنعم . قـالت : ووالله ما ترك قليلاً ولا كثيراً »[1] .

وقصته بالغار معلومة ، كيف سد الثقـوب بثوبـه الـذي قطعـه ، وبقـي

---

(١) حديث صحيح رواه الحاكم في المستدرك وأحمد والطبراني وأبو نعيم في الحلية .

ثقب واحد فسده بقدمه .

يروىٰ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ذُكر عنده أبو بكر قال : « وددتُ لو أنَّ عملي كله من عمله يوماً واحداً من أيامه وليلة من لياليه . وأما الليلة فليلة سار مع رسول الله ﷺ إلىٰ الغار ، فلما انتهيا إليه قال : والله لا تدخله حتىٰ أدخل قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابني دونك . فدخله فكسحه ووجد في جوانبه ثقباً ، فشق إزاره وسد بها تلك الثقب ، وبقي منها اثنان فألقمهما رجله ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل . فدخل رسول الله ﷺ فوضع رأسه في حجره فنام ، فلُدغ أبو بكر في رجله من الجحر ، فلم يتحرك مخافة أن ينبه رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه علىٰ وجه رسول الله ﷺ فقال : ما لك يا أبا بكر؟ قال : لُدغت فداك أبي وأمي ، فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما كان يجده . . . » [1] .

ويروىٰ عن أنس رضي الله عنه قال : « لما صار رسول الله ﷺ إلىٰ الغار أراد أن يدخله ، فقال له أبو بكر الصديق : ارفق فداك أبي وأمي يا رسول الله ، أدخل قبلك لا تكون فيه هامة ، فإن كان من ذلك شيء كان بي . فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه ، كلما وجد جحراً شق من ثوبه وسد به الجحر حتىٰ لم يدع من ذلك شيئاً ، وبقي جحر واحد ولم يبق من الثوب شيء يسده به ، فألقمه عقبه ، فقال : ادخل فداك أمي وأبي يا رسول الله . قال : فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ : أين ثوبك يا أبا بكر؟

---

(١) خرّجه النسائي ، وذكره الطبري في الرياض النضرة .

فأخبره ، فرفع رسول الله ﷺ يده ودعا له »[1] .

ويروى عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر قال : « نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار ، فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ »[2] .

و كان ابنه عبدالله يجلس مع الكفار ، ثم يأتي النبيَّ ﷺ بأخبار قريش سَحَراً .

وكان مولاه عامر بن فهيرة يرعى غنمه في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما الغنم فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبدالله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة أتبع أثره بالغنم حتى يعفّي عليه .

وأما أسماء فكانت تسير ليلاً من الكعبة في المسفلة إلى غار ثور وهي لا تتجاوز الست عشرة سنة ، لتأخذ للنبي ﷺ الطعام كل ليلة . وقد سميت بذات النطاقين لأنها قطعت حزامها إلى نصفين ، وربطت به جراب طعام رسول الله ﷺ[3] .

---

(١) حديث غريب رواه أبو نعيم في الحلية .

(٢) رواه مسلم ، والبخاري بسند آخر ، والترمذي ، و أحمد ، وابن حبان ، والبزار ، وغيرهم بإسناد حسن .

(٣) وقد كان لأسماء بنت أبي بكر مواقف أخرى عظيمة في الإسلام . فيروى أنه عندما قتل الحجاج ولدها عبدالله أرسل إليها وقد ذهب بصرها ، فأبت أن تأتيه . فأعاد عليها الرسول : لَتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك ، فأبت وقالت : والله لا آتيك حتى تبعث إليَّ من يسحبني بقروني . فقال : أروني سبتي ، فأخذ نعليه ثم انطلق حتى دخل عليها فقال : كيف رأيتني صنعت بعدو الله؟ قالت : رأيتك أفسدتَ عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك . بلغني أنك تقول له : يا ابن ذات النطاقين ، أنا والله ذات النطاقين ، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر من الدواب ، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه . أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً ، فأما الكذاب فرأيناه ، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه . فقام عنها ولم يراجعها [رواه مسلم في صحيحه] .

وعندما خرج النبي ﷺ من الغار كيف كان سيدنا أبو بكر يسير ساعة من خلفه ، وساعة عن يمينه ، وساعة عن شماله ، فيقول له النبي ﷺ : لماذا تفعل ذلك؟ فيقول : يا رسول الله ، فعلتُ ذلك لا خوفاً على نفسي بل خوفاً عليك ، فإذا تذكرتُ أن الطلب سوف يأتيك من خلفك وقفت خلفك لكي أكون درعك ، وإذا تذكرت أنه سيأتي من أمامك وقفت أمامك ، وإذا تذكرت أنه سيكون من يمينك سرت عن يمينك لأفديك بنفسي . أما أنا إذا مِتُّ فإنه لا خسران علي ، أما أنت فعليك أعباء النبوة وأعباء الرسالة .

يروى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت في حديثها عن الهجرة : « ثم خرجا من الغار فأخذا على الساحل ، فجعل أبو بكر يسير أمامه ، فإذا خشي أن يؤتى من خلفه سار خلفه ، فلم يزل كذلك مسيره » (١) .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعّفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

وقد وردت روايات أخرى من وجوه مختلفة حول هذا الموضوع :

فروى البيهقي في دلائل النبوة عن محمد بن سيرين أن أبا بكر ليلة انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار كان يمشي بين يديه ساعة ، ومن خلفه ساعة . فسأله فقال : أذكر الطلب فأمشي خلفك ، وأذكر الرصد فأمشي أمامك . فقال : لو كان شيء أحببتَ أن تقتل دوني؟ قال : إي والذي بعثك بالحق .

وروى ابن حنبل في فضائل الصحابة عن ابن أبي مليكة قال : لما هاجر النبي ﷺ خرج ومعه أبو بكر فأخذا طريق ثور ، فجعل أبو بكر يمشي خلفه ويمشي أمامه ، فقال له النبي ﷺ : ما لك؟ فقال : يا رسول الله ، أخاف أن تؤتى من خلفك فأتأخر ، وأخاف أن تؤتى من أمامك فأتقدم .

وخرّج الملا في سيرته عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : فلما خرج النبي ﷺ هارباً من أهل مكة ، خرج ليلة فتبعه أبو بكر ، فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال له رسول الله ﷺ : ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك؟ قال : يا رسول الله ، أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . قال : فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه ، فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على كاهله ، وجعل يشتد به حتى أتى به فم الغار . . . [هذا الحديث ذكره الطبري في الرياض النضرة] .

بعض مناقبه وفضائله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منه شاة ، فطلبه الراعي ، فالتفت إليه الذئب فقال : مَن لها يوم السبع ، يوم لا راعي لها غيري؟ وبينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها ، فالتفتت إليه فكلمته فقالت : إني لم أُخلق لهذا ، ولكني خُلقت للحرث . قال الناس : سبحان الله ، فقال النبي ﷺ : فإني أُومن بذلك وأبو بكر وعمر »[1] .

فكان ﷺ يتكلم باسم أبي بكر وعمر ولو لم يكونا حاضرين .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « خطب رسول الله ﷺ الناس وقال : إن الله تبارك وتعالىٰ خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله . فبكىٰ أبو بكر وقال : بل نفديك بآبائنا وأمهاتنا . فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله ، فكان رسول الله هو المُخَيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ : إنَّ مِن أَمَنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر »[2] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أريتك في المنام ثلاث ليال جاءني بكِ المَلَك في سرقة من حرير ، فيقول : هذه امرأتك . فأكشف

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

عن وجهكِ فإذا أنت هي ، فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضه »[1] .

لهذا عندما قالت السيدة عائشة للنبي ﷺ أمام أبيها : قل ولا تقل إلا حقاً ، لطمها أبو بكر على وجهها وقال : أعدوة نفسها؟ أيقول رسول الله غير الحق؟! فقال له النبي ﷺ : ما أتينا بك لهذا يا أبا بكر[2] .

وعن أنس ﷺ قال : « صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أُحداً فرجف بهم ، فضربه النبي ﷺ وقال : اثبت أُحد ، فإنما عليك نبي وصِدِّيق وشهيدان »[3] .

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم ، والإمام أحمد في مسنده ، والبيهقي في سننه . وروى الطبراني في الكبير عن عائشة قالت : [أعطيتُ ستاً ما أعطيتها امرأة بعد مريم : لقد نزل جبريل بصورتي في راحته حين أُمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني] .

(٢) ولقد رويت هذه الحادثة بأسانيد وألفاظ مختلفة : فروى ابن حبان في صحيحه عن عائشة أن النبي ﷺ استعذر أبا بكر عن عائشة ، ولم يظن النبي ﷺ أن ينالها بالذي نالها ، فرفع أبو بكر يده فلطمها وصك في صدرها ، فوجد من ذلك النبي ﷺ وقال : يا أبا بكر ، ما أنا بمستعذرك منها بعدها أبداً .

وروى الخطيب عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : كان بيني وبين رسول الله ﷺ كلام ، فقال : بمَن ترضين أن يكون بيني وبينك؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح؟ قلت : لا ، ذاك رجل لين يقضي لكَ عليّ . قال : أترضين بعمر بن الخطاب؟ قلت : لا ، إني لأفرق من عمر . فقال رسول الله ﷺ : والشيطان يفرق منه ، فقال : أترضين بأبي بكر؟ قلت : نعم . فبعث إليه فجاء ، فقال رسول الله ﷺ : اقض بيني وبين هذه ، قال : أنا يا رسول الله؟ قال : نعم . فتكلم رسول الله ﷺ ، فقلت له : اقصد يا رسول الله ، فرفع أبو بكر يده فلطم وجهي لطمة بدر منها أنفي ومنخراي دماً ، وقال : لا أم لكِ ، فمن يقصد إذا لم يقصد رسول الله ﷺ؟ فقال ﷺ : ما أردنا هذا ، وقام فغسّل الدم عن وجهي وثوبي بيده .

وروى ابن عدي في الكامل عن عائشة قالت : وقع بيني وبين النبي ﷺ كلام ، فقال : ترضين بعمر؟ فقلت : لا . فقال : ترضين بأبيك؟ فقلت : نعم . فجاء أبي فقال النبي ﷺ : هذه تقول كذا وكذا ، فقلت : إنك نبي ولا تقول إلا الحق ، فرفع أبو بكر يده فلطم وجهي ، ثم قال : لا أم لك ، أفأنتِ وأبوكِ تقولان الحق؟

(٣) رواه البخاري والترمذي وأحمد .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتىٰ أبدىٰ عن ركبته، فقال النبي ﷺ: أمّا صاحبكم فقد غامر. فسلّم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبىٰ عليّ، فأقبلت إليك. فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر - ثلاثاً -. ثم إن عمر ندم فأتىٰ منزل أبي بكر، فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتىٰ إلىٰ النبي ﷺ، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر حتىٰ أشفق أبو بكر، فجثا علىٰ ركبتيه فقال: يا رسول الله، أنا والله كنت أظلم -مرتين-. فقال النبي ﷺ: إن الله تعالىٰ بعثني إليكم فقلتم: (كذبتَ) وقال أبو بكر: (صدقتَ)، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ - مرتين -. فما أوذي بعدها»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: مَن أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «تناول النبي ﷺ من الأرض سبع حصيات فسبحن في يده، ثم ناولهن أبا بكر فسبحن كما سبحن في يد النبي ﷺ، ثم ناولهن

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم في صحيحه والنسائي، ورواه البزار والطبراني في الأوسط عن عائشة، وفي الكبير عن ابن عباس.

النبيُّ ﷺ عمرَ فسبحن في يده كما سبحن في يد أبي بكر ، ثم تناولهن عثمان فسبحن في يده كما سبحن في يد أبي بكر وعمر رحمة الله عليهم»[1] .

فكانت معجزة للنبي ﷺ ، وكرامة لأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم .

وعن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال : «عشرة في الجنة : أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبوعبيدة بن الجراح في الجنة»[2] .

فهؤلاء وردت أسماؤهم بالتعيين ، وقد بدأهم رسول الله ﷺ بأبي بكر .

وعن الشعبي - وهو من التابعين - قال في سبب نزول قوله تعالىٰ : ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة : ٢٧١] : أُنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . أما عمر فجاء بنصف ماله حتىٰ دفعه إلىٰ النبي ﷺ علىٰ رؤوس الناس ، فقال له النبي ﷺ : ما خلفتَ وراءك لأهلك يا عمر؟ قال : خلفتُ لهم نصف مالي . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يُخفيه من نفسه حتىٰ دفعه إلىٰ النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : ما خلفتَ وراءك لأهلك يا أبا بكر؟ قال : عدة الله وعدة رسوله . فبكىٰ عمر رضي الله عنه وقال : بأبي أنت وأمي يا أبا بكر ، والله ما استبقنا إلىٰ باب

---

(١) خرّجه خيثمة بن سليمان ، وذكره الطبري في الرياض النضرة . كما روىٰ بنحوه البخاري في تاريخه ، والطبراني في الأوسط ، والبزار في مسنده .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان .

خير قط إلا كنتَ سابقاً[١] .

فلقد أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً ، فأنفقها كلها في سبيل الله ورسوله .

أخرج الخطيب أن عمر بن الخطاب كان يتعاهد عجوزاً عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل ، فيستسقي لها ويقوم بأمرها . وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت ، فجاءها غير مرة مبكراً كي لا يُسبق إليها ، فرصده فإذا هو بأبي بكر الصديقﷺ الذي يأتيها وهو يومئذ الخليفة ، فقال عمر : أنت هو لعمري؟!

وعن أبي هريرةﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر ، فبكى أبو بكر وقال : وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟ »[٢] .

وعن عليﷺ قال : كنت عند رسول الله ﷺ إذ طلع أبو بكر وعمر ، فقال رسول الله ﷺ : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين ، يا علي لا تخبرهما »[٣] .

وعن ابن عباسﷺ قال : « كان النبي ﷺ وأصحابه يسبحون في غدير ،

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره . وهذا الحديث رواه كذلك الحاكم في المستدرك من وجه آخر عن عمرﷺ ، وأخرجه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

(٣) رواه الترمذي في سننه وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وروي كذلك عن أنس وابن عباس من غير هذا الوجه ، كما رواه البزار عن ابن عمر ، والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبدالله ، وضعّفه النسائي .

فقال النبي ﷺ ليسبح كل رجل منكم إلىٰ صاحبه . فسبح كل رجل منهم إلىٰ صاحبه وبقي النبي ﷺ وأبو بكر ، فسبح النبي ﷺ إلىٰ أبي بكر حتىٰ عانقه وقال : أنا إلىٰ صاحبي ، أنا إلىٰ صاحبي »(١) .

وعن عبدالله بن الحارث قال : حدثني جندب أنه سمع النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « قد كان لي فيكم أخوة وأصدقاء ، وإني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل ، وإن الله عز وجل قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً »(٢) .

وهذه المقالة كافية لتعطي أبا بكر مكانته في الإسلام ، فهو خير رجل في الإسلام بعد النبي ﷺ قاطبة .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لي وزيرين من أهل السماء ، ووزيرين من أهل الأرض . فأما وزيراي من أهل السماء : فجبرائيل وميكائيل ، وأما وزيراي من أهل الأرض : فأبو بكر وعمر » . ثم رفع رسول الله ﷺ رأسه إلىٰ السماء وقال : « إن أهل عليين ليراهم مَن هو أسفل منهم كما ترون النجم أو الكواكب في السماء ، وإن منهم أبا بكر وعمر وأنعما »(٣) .

وعن ابن أبي مليكة قال : « قال النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه : ادعوا لي أبا بكر ، فقالت عائشة : إن أبا بكر يغلبه البكاء ، ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب . قال : ادعوا لي أبا بكر ،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير .
(٢) رواه أبو عوانة في مسنده .
(٣) رواه ابن الجعد في مسنده .

قالت : إن أبا بكر يَرِقٌّ ، ولكن إن شئت دعونا لك ابـن الخطـاب . فقـال : إنكن صواحب يوسف ، ادعوا لي أبا بكر وابنه فليكتب إن يطمع في أمـر أبي بكر طامع أو يَتَمَنَّ مُتَمَنٍّ . ثم قال : يأبىٰ الله ذلـك والمؤمنـون ، يـأبىٰ الله ذلك والمؤمنون . قالت عائشـة : فـأبىٰ الله ذلـك والمؤمنـون ، فـأبىٰ الله ذلك والمؤمنون» [1] .

وعـن حميـد بـن أنـس رضي الله عنه قـال : «جـاء جـبريل إلىٰ النـبي ﷺ بوحـي من عند الله عز وجل ، فقال : يا محمد ، إن الله يقرأ عليك السلام ويقول لك : قل للعتيق ابن أبي قحافة إنه عنه راض» [2] .

وأقول : إني أعتقد بأن هـذه الكلمـة كـانت أطيـب علىٰ قلـب أبـي بكـر من دخول الجنة .

ووقفته عند الإسراء والمعراج لها مكانة عندنا .

قال ابن إسحاق : ثم انصرف رسول الله ﷺ إلىٰ مكة ، فلما أصبح غـدا علىٰ قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الإمر البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكـة إلىٰ الشـام مدبـرة وشـهراً مقبلـة ، أفيذهـب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلىٰ مكة؟! قال : فارتد كثير ممن كان أسـلم ، وذهب الناس إلىٰ أبي بكر فقالوا له : هل لـك يـا أبـا بكـر في صـاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلىٰ فيـه ، ورجـع إلىٰ مكـة ! فقال لهـم أبـو بكـر : إنكـم تكذبـون عليـه ، فقـالوا : بلـىٰ ، هـا هـو ذاك

---

(١) رواه ابن سعد في طبقاته .

(٢) ذكره ابن حجر في كتابه الصواعق المحرقة .

في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلىٰ الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتىٰ انتهىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله ، أَحَدَّثْتَ هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال : نعم ، قال : يا نبي الله ، فصِفْه لي فإني قد جئته . فقال رسول الله ﷺ : فرُفِع لي حتىٰ نظرت إليه . فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : (صدقتَ ، أشهد أنك رسول الله) . كلما وصف له منه شيئاً قال : (صدقت ، أشهد أنك رسول الله) ، حتىٰ إذا انتهىٰ قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر الصديق ، فيومئذ سمّاه الصديق[1] .

لهذا عندما سئل سيدنا علي كرم الله وجهه عن سيدنا أبي بكر قال : ذاك رجل نُعت بالصديق .

وعن النزال بن سبرة الهلالي – وهو من جماعة سيدنا علي ومن كبار قواده – قال : وافقنا من علي رضي الله عنه طيب نفس ومزاج فقلنا : يا أمير المؤمنين ، حدثنا عن أصحابك . قال : كل أصحاب رسول الله أصحابي ، فقلنا : حدثنا عن أصحاب رسول الله ، قال : سلوني ، فقلنا : حدثنا عن أبي بكر ، قال : ذاك امرؤ سماه الله صديقاً علىٰ لسان جبريل ومحمد صلىٰ الله عليهما[2] .

---

(١) هذا حديث الحسن عن مسرىٰ رسول الله ﷺ ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ، والقرطبي وابن كثير في تفسيريهما .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك .

وعن علي رضي الله عنه قال : « إن خير الناس كان بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر »[1] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال : « كنا نقول في زمن رسول الله ﷺ : إن رسول الله خير الناس ، ثم أبو بكر ، ثم عمر »[2] .

والصحابة كلهم كانوا يعتقدون ذلك ، فسيدنا أبو بكر هو أفضل الناس جميعاً بعد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام .

وبهذه المقالة قُتل زيد بن علي بن زين العابدين ، حيث التف حوله الخوارج وكانوا سبعين ألفاً ليقفوا أمام الأمويين ، فسألوه : مَن أفضل الناس؟ قال : رسول الله ، قالوا : ماذا تقول عن أبي بكر وعمر؟ قال : مات رسول الله ﷺ وهو عنهما راض . فتخلوا عنه ولم يبق حوله منهم سوىٰ سبعين ، فجاء الأمويون وقتلوه وصلبوه خمسة أعوام عارياً ، حتىٰ جاءت العنكبوت وسترت عورته .

وقال ابن أبي ليلىٰ : وفد أناس من أهل الكوفة وأناس من أهل البصرة إلىٰ عمر بن الخطاب في خلافته ، فلما نزلوا المدينة تحدث القوم بينهم إلىٰ أن ذكروا أبا بكر وعمر ، ففضل بعض القوم أبا بكر علىٰ عمر ، وفضل بعض القوم عمر علىٰ أبي بكر ، وكان الجارود بن المعلىٰ ممن فضّل أبا بكر علىٰ عمر . فجاء عمر ومعه درته ، فأقبل علىٰ الذين فضلوه علىٰ أبي بكر ، فجعل يضربهم بالدرة حتىٰ ما يتّقي أحدهم

---

(١) رواه أحمد في مسنده .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلىٰ ، ورجالهما رجال الصحيح .

إلا برجله . فقال له الجارود : أفق أفق يا أمير المؤمنين ، فإن الله تعالى لم يكن يرانا نفضلك على أبي بكر ، أبو بكر أفضل منك في كذا وكذا . فسُرِّيَ عن عمر ثم انصرف ، فلما كان من العشي صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا إن خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، فمن قال سوى ذلك بعد مقامي هذا فهو مفتر عليه ما على المفتري ، وضربناه ثمانين جلدة علناً[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل : من كان يفتي الناس في زمن رسول الله ﷺ؟ قال : أبو بكر وعمر ، ما أعلم غيرهما[2] .

وهو رضي الله عنه من حفظة القرآن ، وفي مقدمة كتبة الوحي الذين هم ثلاثة وأربعون .

وهو أول من جمع القرآن ، وأول من حج بالناس بعد فتح مكة في السنة التاسعة ، حيث أمره رسول الله ﷺ بذلك .

جانب من حياته وأخلاقه :

كان رضي الله عنه دائماً ملازماً للنبي ﷺ ، ما وُجد النبي ﷺ في مكان إلا كان أبو بكر عن يمينه أو عن شماله .

ولقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان ممن وقف وثبت معه ﷺ يوم أُحد وحنين ، فكان يتلقى الضربات عنه ﷺ .

---

(١) ذكره ابن حنبل في فضائل الصحابة .

(٢) رواه ابن سعد في طبقاته .

وقد دفع له رسول الله ﷺ الراية العظمى وكانت سوداء يوم تبوك ، وأطعمه يوم خيبر مائة وَسَق .

وقد أعتق رضي الله عنه سبعة أرقاء كلهم كان يعذب في الله ، وهم : بلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة وهو الراعي الذي كان يأتي بالغنم على باب الغار وقت الهجرة ، وزنيرة وهي فتاة أسلمت ، والنهدية وابنتها وكانتا تعذبان في الله كثيراً ، وجارية بني مُؤمَّل من قريش ، وأم عبيس .

وكان رضي الله عنه إذا مُدح يقول : « اللهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم . اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون» .

وكان رضي الله عنه ورعاً يتحرى الحلال والحرام في كل أموره .

من ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه أنه جاءه عبده بلبن وكان ظامئاً فشرب منه ، ثم علم أن عبده قد كسبه من كهانة كان قد تكهنها قبل الإسلام ، فوضع أصابعه في حلقه فتقايأه من ساعته ، ثم قال : والله لو لم يخرج إلا بروحي لأخرجت روحي معه ، ثم قال : اللهم لا تؤاخذني بما امتصته العروق .

كما كان رضي الله عنه في قمة الزهد .

روى البيهقي في شعبه وأبو نعيم في الحلية عن زيد بن أرقم قال : كنت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستسقى ، فأُتي له بإناء فيه ماء وعسل ، فأدناه مِن فيه ثم نحاه ، وبكى حتى أبكى أصحابه مِن حوله ، فسكتوا وما سكت ، ثم مسح وجهه بردائه وبكى حتى أيسوا من كلامه ، ثم مسح عينيه فقالوا له :

يا خليفة رسول الله ، ما الذي أبكاك؟ قال : كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عنه شيئاً ولم أبصر أحداً معه ، فقلت : يا رسول الله ، ما هذا الذي تدفع عن نفسك ولا أرىٰ معك أحداً؟ قال : هذه الدنيا تمثلت لي وحنت ظهرها عليّ ، فقلت لها : إليكِ عني ، فتنحت ثم رجعت فقالت : أما إنك إن أفلت مني فلن يفلت مَن بعدك . فذكرتُ ذلك اليوم ، فخشيتُ أن تلحقني وأن أكون ممن أصابت .

والقول هنا يقف ، قليلٌ من الماء والعسل جعلا أبا بكر يبكي! فأين وصل المسلمون في زماننا؟!

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

البيعة لأبي بكر بالخلافة :

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : « أتت النبي ﷺ امرأة فكلمته في شيء ، فأمرها أن ترجع إليه . قالت : يا رسول الله ، أرأيت إن جئتُ ولم أجدكَ؟ - كأنها تريد الموت - ، قال : إن لم تجديني فائت أبا بكر »[1] .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا بالَّذَيْن مِن بعدي : أبي بكر وعمر »[2] .

وعن أبي الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت فيما يرىٰ النائم كأني أنزع أرضاً فوردت عليّ غنم سود وغنم عفر ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه أحمد وحسّنه ، والحاكم وصحّحه ، وابن ماجة .

أو ذنوبين وفيهما ضعف ، والله يغفر له . ثم جاء عمر فنزع فاستحالت غرباً ، فملأ الحوض وأروى الواردة ، فلم أر عبقرياً أحسن نزعاً من عمر . فأوّلت ذلك أن السود العرب ، وأن العُفر العجم» [1] .

هذه الروايات كلها تدل على أن أبا بكر سيكون خليفة رسول الله ﷺ ، كما تدل الرواية الأخيرة على أن مدة خلافته ستكون سنتين .

وفي كيفية خلافته رضي الله عنه يروى أنه بعد وفاة النبي ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وكان سيد الخزرج سعد بن عبادة هو الذي يعبئ القوم ، وقد حُمل للأنصار مريضاً فقال : كَفَرَتْ به قريش وأنتم آمنتم به ، هم قاتلوه وأنتم نصرتموه وأيدتم الدين ، فأنتم الأمراء . فقالوا : أنت الأمير .

فسمع عمر بذلك فأرسل وراء أبي بكر ، والكل يومها كان مشغولاً حيث النبي ﷺ لم يُدفن بعد ، فقال له أبو بكر : إني مشغول ، فأرسل عمر يقول له : إن الأمر أشد من ذلك يا أبا بكر . فخرج أبو بكر وقال : ما الأمر؟ قال عمر : إن الأنصار قد اجتمعوا لِيُعَيِّنوا خليفة ، وإن فعلوا قبل وجودنا سبّبوا أمراً عظيماً .

فانطلق أبو بكر ومعه عمر ، وفي الطريق لقيا أبا عبيدة بن الجراح فأخبراه بالقصة ، فمشى معهم حتى دخلوا سقيفة بني ساعدة .

هنا يقول عمر : كنت قد نظمت كلاماً لأقوله ، فبدأ الأنصار وقالوا عن مزاياهم وكيف ناصروا النبي ﷺ ، فأردت أن أتكلم فقال أبو بكر : على رِسلك يا عمر ، وقام وتكلم . فوالله ما من كلمة نظمتها في ذهني

---

(١) رواه أحمد .

إلا وقالها أبو بكر وزيادة ، وكان ألطف مني . فقال : أنتم أنصار رسول الله ﷺ ، وما من مكرمة تُذكر إلا وأنتم أهلها ، ولكن العرب لا تقبل بكم أمراء ، إنما أمراء الإسلام وخلفاء النبي ﷺ من قريش . فقام بعضهم وحاول أن يثير الفتنة ، لكن عناية الله سبقت فقال أبو بكر : إن هممتم أن تبايعوا فإني أرشح لكم هذين الرجلين ، وأخذ بيد عمر وبيد أبي عبيدة ، وقال : مات رسول الله ﷺ وهو عنهما راض .

يقول عمر : والله لو قُدِّمْتُ لأُذبح أهون عندي من هذه الكلمة ، أن أكون أميراً على قوم فيهم أبو بكر . فقال يومها : أيبايَع أحد بوجودك يا أبا بكر؟! أنت خليفة رسول الله ، امدد يدك لأبايعك . وفي هذه الأثناء يسبقه بشير بن سعد الأنصاري ، وقد وقف موقفاً يرضي الله ورسوله ، فهو السبق الأول وأول من بايع . وكان يومها الحُباب بن المنذر يحث على القتال والنعرات الطائفية فأسكته .

ثم تتابع الناس وقام الأنصار وبايعوا ، وكادوا يطؤون سعد بن عبادة ، فقال عمر : طؤوه قاتله الله . وسعد بن عبادة هو الوحيد الذي لم يبايع ، ومات ولم يبايع .

فكانت البيعة الأولى لسيدنا أبي بكر يوم الإثنين قبل دفن النبي ﷺ ، ثم كان الثلاثاء فبُويع البيعة العامة على المنبر في مسجد رسول الله ﷺ ، ثم جاء العباس وبنو هاشم وبايعوا .

بعث أسامة وما حصل من أحداث زمن خلافة أبي بكر :

كانت خلافة الصديق رضي الله عنه من بدايتها معارك مستمرة ، بدءاً بالردة ، ثم منع الزكاة حيث قال الأعراب : كنا ندفع الزكاة لمن كانت صلاته سكناً لنا ، ثم جيش أسامة بن زيد ولي وقفة عنده .

كان النبي ﷺ قبل وفاته قد ضرب بعثاً علىٰ أهل المدينة ومَن حولهم وفيه عمر بن الخطاب ، وأمّر عليهم أسامة بن زيد وهو ابن سبع عشرة سنة . فلم يجاوز آخرُهم الخندق حتىٰ قُبض رسول الله ﷺ ، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر بن الخطاب : ارجع إلىٰ خليفة رسول الله فاستأذنه ليأذن لي أن أرجع بالناس ، حيث معي وجوه الناس وحَدُّهم ، ولا آمن علىٰ خليفة رسول الله وثقل رسول الله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار : فإن أبىٰ إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة .

فخرج عمر بأمر أسامة ، فأتىٰ أبا بكر فأخبره بما قاله أسامة ، فقال أبو بكر : لو خطفتني الكلاب أو الذئاب لم أرد قضاء قضىٰ به رسول الله ﷺ . قال عمر : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟ فخرج عمر إلىٰ الناس فقالوا له : ما صنعتَ؟ فقال : امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيتُ في سببكم اليوم من خليفة رسول الله .

ثم خرج أبو بكر حتىٰ أتاهم ، فأشخصهم وشيّعهم وهو ماش وأسامة راكب ، وعبدالرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر . فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبنَّ أو لأنزلنّ . فقال : والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما عليّ أن أغبر قدميَّ في سبيل الله ساعة ، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له ، وسبعمائة درجة تُرفع له ، وتُمحىٰ عنه سبعمائة خطيئة . حتىٰ إذا انتهىٰ أبو بكر قال لأسامة :

إنْ رأيتَ أن تعينني بعمر ، فأَذِنَ له .

ثم أوصاهم أبو بكر فقال : يا أيها الناس ، أُوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لاتخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم للعبادة بالصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تَقدمون على أقوام يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وسوف تلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيوف خفقاً ، اندفعوا باسم الله . ثم أوصى أسامةَ أن يفعل ما أمره به رسول الله ﷺ .

فسار جيش أسامة وأوقع بقبائل قضاعة التي ارتدت ، وغَنِمَ وعاد . وكانت مدة غيبته أربعين يوماً ، وقيل : سبعين يوماً .

ولقد كان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا : لو لم تكن لهم قوة ما أرسلوا هذا الجيش ، فكَفّوا عن كثير مما كانوا عزموا على فعله ، وذلك ببركة اتباع أمر رسول الله ﷺ .

كما قاتل أبو بكر مسيلمة الكذاب في بلاد نجد ، وقاتل المرتدين في بلاد اليمن حتى وصل جيشه إلى عُمان ، وحصلت معركة كبيرة في دبا ، وهناك مقبرة الأمير مشهورة .

وبعد الفراغ من حروب الردة ، أرسل سيدنا أبو بكر المثنى بن حارثة الشيباني إلى العراق ليقاتل الفرس ، ثم أتبعه بخالد بن الوليد .

وأرسل أبا عبيدة إلىٰ بلاد الشام ، ثم أرسل كتاباً إلىٰ خالد في العراق يطلب منه أن يلقىٰ الروم في بلاد الشام .

وهكذا حصلت فتوحات عظيمة في عهد الصديق أبي بكر رضي الله عنه .

مرضه ووفاته :

روىٰ ابن سعد من طريق الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان أول بدء مرض أبي بكر أنه اغتسل يوم الإثنين لسبع خلون من جمادىٰ الآخرة وكان يوماً بارداً ، فحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلىٰ صلاة ، وكان يأمر عمر بن الخطاب يصلي بالناس ، ويدخل الناس عليه يعودونه وهو يثقل كل يوم ، وهو نازل يومئذ في داره التي قطع له النبي ﷺ وجاه دار عثمان بن عفان اليوم ، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه »[1] .

وعن مالك عن أبي السفر قال : « دخل علىٰ أبي بكر ناس من إخوانه يعودونه في مرضه ، فقالوا : يا خليفة رسول الله ، ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ قال : قد نظر إليَّ ، قالوا : فماذا قال لك؟ قال : قال لي : إني فعّال لما أريد »[2] .

وقد توفي رضي الله عنه ليلة الثلاثاء لثماني ليال بقين من جمادىٰ الآخرة سنة ثلاث عشرة من مهاجر النبي ﷺ ، فكانت خلافته رضي الله عنه سنتين وثلاثة أشهر

(١) هذا الحديث كذلك رواه الطبري في تاريخه والواقدي وابن حجر في كتابه فتح الباري ، وخرّجه الفضائلي .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه .

وسبع أو عشر ليال على بعض الروايات .

وقد استكمل رحمه الله تعالى سن رسول الله ﷺ ، فتوفي وهو ابن ثلاث وستين عاماً .

رضي الله عنك يا أبا بكر ، يا خليفة رسول الله وصاحبه في الغار .



٣ - سيدنا سلمان الفارسي

هو مولىٰ رسول الله ﷺ ، والذي قال ﷺ بحقه : سلمان منا أهل البيت .

نسبه :

هو ابن بوذخشان بن مورسلان بن بهبوذان بن فيروز بن سهرك من ولد الملك آب ، فهو من عائلة الملوك ومن خير العائلات الفارسية ، ومع ذلك عندما سئل عن نسبه قال : الإسلام نسبي ، أنا سلمان ابن الإسلام .

هو من بلاد فارس من رامهرمز من نواحي أصفهان ، وقيل : إنه مِن نفس أصفهان .

كان أبوه حاكم قرية ودهقاناً[1] ، فهم كانوا قوماً مجوساً .

كان اسمه قبل الإسلام مابه ، ثم سمّاه النبي ﷺ سلمان .

كان يكنىٰ بأبي عبدالله ، ويعرف بسلمان الخير .

قصة إسلامه :

كان سيدنا سلمان تبعاً لأبيه مجوسياً خادماً لبيت النار في بلاده .

وفي سبب إسلامه روىٰ ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني سلمان فقال : كنت رجلاً من أهل فارس من أصفهان- وكانت تسمىٰ يومها جَيْ - ، ابن رجل من دهاقينها . وكنت أَحَبَّ الخلق إلىٰ أبي ، فأجلسني في البيت كالجواري . فاجتهدت في المجوسية ، فكنت في النار التي توقد

---

(١) الدهقان هو صاحب بيت النار .

فلا تخبو . وكان أبي صاحب ضيعة ، وكان له بناء يعالجه في داره ، فقال لي يوماً : يا بني ، قد شغلني ما ترىٰ ، فانطلق إلىٰ الضيعة ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمي بك .

فيقول سلمان : فخرجت لذلك ، فمررت بكنيسة النصارىٰ وهم يصلون ، فملت إليهم وأعجبني أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من ديننا . فأقمتُ عندهم حتىٰ غابت الشمس ، لا أنا أتيت الضيعة ولا أنا رجعت إلىٰ والدي ، فاستبطأني فبعث رسلاً في طلبي . وقد قلت للنصارىٰ حين أعجبني أمرهم : أين أصل هذا الدين؟ قالوا : بالشام .

فرجعت إلىٰ والدي فقال : يا بني قد بعثت إليك رسلاً ، أين كنت؟ فأجبته : مررتُ بقوم يصلون في كنيسة ، فأعجبني ما رأيت من أمرهم ، وعلمتُ أن دينهم خير من ديننا . فقال : يا بني ، دينك ودين آبائك وأجدادك هو خير من دينهم . فقلت : كلا والله ، فخافني أبي وقيّدني بالحديد بيديّ ورجليّ حتىٰ لا أذهب إليهم .

فبَعَثْتُ إلىٰ النصارىٰ وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم ، وسألتهم إعلامي مَن يريد الشام ، فأرسلوا خلفي يخبروني بالقافلة التي تريد الذهاب إلىٰ الشام . فألقيت الحديد من رجليّ ، وخرجتُ معهم حتىٰ أتيت الشام ، فسألتهم عن عالِمهم فقالوا : الأسقف .

فأتيته فأعلمته بأمري وقلت : أكون معك وأخدمك وأصلي معك ، فوافق . فمكثت مع رجل سَوْء في دينه ، كان يأمرهم بالصدقة فإذا أعطوه شيئاً أمسكه لنفسه ، حتىٰ جمع سبع قلال مملوءة ذهباً وورِقاً ، فأخبرتهم بمخبره ودللتهم علىٰ ماله ، فصلبوه وأحلوا مكانه رجلاً فاضلاً في دينه ، زاهداً وراغباً

في الآخرة . فألقىٰ الله حبه في قلبي حتىٰ حضرتـه الوفـاة ، فقلـت لـه : أوصـني ، فذكر رجلاً بالموصل ، وكنا علىٰ أمر واحد في العبادة حتىٰ هلك .

فأتيت الموصل فلقيـت الرجـل ، فأخبرتـه بمخـبري وأن فلانـاً أمرنـي بإتيانك ، فقال : أَقِمْ . فوجدته علىٰ سبيله حتىٰ حضرته الوفاة ، فقلت لـه : أوصني ، فقال : ما أعرف أحـداً علـىٰ مـا نحـن عليـه - يعـني ديـن سـيدنا عيسىٰ الصحيح - إلا رجلاً بعمّورية ، ثم مات .

فأتيتـه بعمّوريـة فأخبرتـه بمخـبري ، فأجـازني بالمقـام . فـاتخذت غنيمات وبقرات أرعاهـم وأعيش من ذلك حتىٰ حضرت الوفـاة الأسـقف ، فقلت له : إلىٰ مَن تُوصي بي؟ قال : لا أعلم أحداً اليوم علـىٰ مثـل مـا كنـا عليه ، ولكن قد أظلك نبي يُبعث علىٰ ملة إبراهيم الحنيفية ، حيث وجدنا ذلـك في كتبنـا أنـه قـد آن وقتـه ، مـهاجره بـأرض ذات نخـل ، لـه آيـات وعلامات لا تُخفـىٰ ، بـين منكبيـه خـاتم النبـوة ، يـأكل الهديـة ولا يـأكل الصدقة ، فإن استطعتَ فتخلص إليه . ومات هذا الأسقف بعد ذلك .

يقول سلمان وكان يومها يريد الحقيقـة : فمـر بـي ركـب مـن العـرب مـن قبيلـة كلـب ، فقلـت : أصحبكـم وأعطيكـم بقراتـي وغنمـي هـذه ، وتحملونـي إلىٰ بلادكـم . فسـرت معـهم حتـىٰ وصلنـا إلىٰ وادي القـرىٰ ، فباعوني إلىٰ رجل يهودي فأقمت عنده ، وقدم عليـه رجـل مـن بـني قريظـة فاشتراني منه وقدم بي المدينة ، فرأيت النخل فعلمت أنه البلد الذي وُصف لي . فأقمتُ عنده أعمل في نخله ، وبعـث الله نبيـهﷺ ، وغفلـتُ عـن ذلـك حتىٰ قدم المدينة ، فنزل في بني عمرو بن عوف .

فإني لعلىٰ رأس نخلة إذ أقبل ابن عـم لصـاحبي فقـال : أي صـاحبي ،

قاتل الله بني قَيْلة -يريد الأوس والخزرج- ، مررت بهم آنفاً وهم مجتمعون على رجل قَدِمَ عليهم من مكة يزعم أنه النبي . يقول سلمان : فوالذي لا إله غيره ما أن سمعتها حتى أخذني القَر ، ورجفت بي النخلة حتى كدت أن أسقط ، ونزلت سريعاً وقلت : ما هذا الخبر؟ فلكمني صاحبي لكمة وقال : ما أنت وذاك ، أقبل على شأنك .

فأقبلت على عملي حتى أمسيتُ ، فجمعت شيئاً من الرطب وأتيتُ النبي ﷺ وهو بقباء عند أصحابه ، فقلتُ : اجتمع عندي هذا الطعام وأردت أن أتصدق به ، فبلغني أنك رجل صالح ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة ، فرأيتكم أحق به -وكان قد أتى مختبراً- . قال: فوضعته بين يديه ، فكف يديه عنه وقال لأصحابه : كلوا ، فأكلوا . فقلت : هذه واحدة ، ورجعت وتحولت إلى المدينة .

وفي اليوم الثاني جمعت شيئاً من الرطب ، فأتيته به فقلت : أحببت كرامتك ، فأهديت لك هدية وليست بصدقة . فمَدَّ يده ، فأكل وأكل الصحابة ، فقلت : هذه الثانية ، ورجعت .

فأتيته بعدها وقد تبع جنازة في بقيع الغرقد وحوله أصحابه ، فسلمت وتحولت أنظر إلى الخاتم في ظهره ، فعلم ما أردت ، فألقى رداءه فرأيت الخاتم ، فقبلته وبكيت . فأجلسني بين يديه ، فحدثته بشأني كله كما حدثتك يا ابن عباس . فأعجبه ذلك وأحب أن يسمعه أصحابه فقال : يا سلمان ، قص قصتك على أصحابي .

وأعلن سلمان يومها كلمة الحق ، وكان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة الشريفة .

ثم يقول سلمان : ففاتني معه بدرٌ وأُحدٌ بالرق ، فقال لي : كاتب يا سلمان عن نفسك . فلم أزل بصاحبي حتىٰ كاتبته علىٰ أن أغرس له ثلاثمائة ودية[1] ، وعلىٰ أربعين أوقية من الذهب . فرجعت وأخبرت النبي ﷺ بذلك ، فقال لأصحابه : أعينوا أخاكم بالنخل . فأعانوني بالخمس والعشر حتىٰ اجتمع لي ما يكفيني لعتقي ، ثم أمرني النبي ﷺ أن أحفر حفراً لهن في بستان اليهودي ، وقال لي : لا تضع منها شيئاً حتىٰ أضعه بيدي .

ففعلت وأعانني أصحابي حتىٰ فرغت ، فكنتُ آتيه بالنخلة فيضعها بيده الشريفة ويسوي عليها التراب ، والذي بعثه بالحق فما ماتت منها سوىٰ واحدة غرسها عمر بن الخطاب ، فنزعها النبي ﷺ وهي يابسة ووضعها ثانية فحملت[2] .

وأما الذهب ، فبينما هو ﷺ قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من الذهب ، كان قد أصابها من بعض المعادن من الجبل ، فقال ﷺ : ادْعُ سلمان المسكين الفارسي المكاتب . فدُعيت إليه فقال : أَدِّ هذه ، فقلت : يا رسول الله ، وأين تقع هذه مما عليَّ؟ فأخذتها ودفعتها لليهودي ، فما زال اليهودي يزن حتىٰ أخذ أربعين أوقية من الذهب . وفي رواية أخرىٰ : لو وزنت بأُحد لكانت أثقل منه .

ثم أعتق اليهودي سلمان ، ثم أعتقه النبي ﷺ وقال له : أنت حر لوجه

---

(١) أي نخلة .

(٢) قيل : إنه ما زالت بعض هذه النخلات موجودة في زماننا ببركة النبي ﷺ ، وتعرف بمنطقة الحزام الأخضر .

الله تعالىٰ[1] .

وبعد إسلامه آخىٰ النبيﷺ بينه وبين أبي الدرداء وهو من الأنصار ، وكان يساويه بنصف ما عنده من المال .

مناقبه وفضائله :

هو الذي أشار علىٰ النبيﷺ بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب ، فقال : يا رسول الله ، نحن في بلاد فارس كنا إذا داهمنا العدو حفرنا خندقاً حول بلدنا ؛ لنمنع العدو منا . فقَبِل النبيﷺ المشورة وأمر بحفر الخندق ، فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان عند حفر الخندق وكان رجلاً قوياً جلداً ، فقال المهاجرون : سلمان منا ، وقال الأنصار : سلمان منا ، فقال رسول اللهﷺ كلمة مدوية وستبقىٰ إلىٰ يوم القيامة : سلمان منا أهل البيت[2] ، فزاده ذلك شرفاً .

وعن أنس بن مالكرضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « إن الجنة لتشتاق إلىٰ ثلاثة : علي ، وعمار ، وسلمان »[3] .

وقد سئل علي بن أبي طالبرضي الله عنه عن سلمان فقال : « ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت ، مَن لكم بمثل لقمان الحكيم؟ عَلِم العِلم الأول ، وأدرك العلم الآخر ، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر ، وكان بحراً

---

(١) هذه القصة رواها ابن حبان في الثقات ، والطبراني في الكبير ، والخطيب في تاريخه ، وابن سعد في طبقاته ، وغيرهم .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن عمرو بن عوف ، وقد ضعّفه الجمهور ، وحسّنه الترمذي .

(٣) رواه الترمذي في سننه وقال : حسن غريب .

لا ينزف»[1] .

وكان رضي الله عنه ملازماً للنبي ﷺ حتىٰ قالت عنه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : «كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به بالليل ، حتىٰ كاد يغلبنا علىٰ رسول الله ﷺ»[2] .

وهذه مزية خاصة لسلمان ، والجلوس ليس جلوساً عفوياً بل جلوس تفقه وتعلم ، وهذه المقالة تكفيه لتبين كيف أخذ سلمان من النبي ﷺ .

جانب من حياته وعبادته :

لقد شهد رضي الله عنه الخندق والمشاهد كلها بعد الخندق حتىٰ بعد وفاة النبي ﷺ ، حيث حضر غالب الفتوحات في إيران ، وهو الذي كان يترجم ويبلغ الإسلام .

وكان رضي الله عنه من أهل الصفة من فقراء المسلمين ومن زهادهم .

يروىٰ أنه بعد وفاة النبي ﷺ نزل أبو الدرداء في بلاد الشام ، ونزل سلمان في بلاد العراق . فكتب أبو الدرداء إلىٰ أخيه سلمان : سلام عليك أما بعد ، فإن الله رزقني بعدك مالاً كثيراً وولداً ، ونزلتُ الأرض المقدسة - يشير إليه إن كان يريد مالاً - . فكتب إليه سلمان : سلام عليك أما بعد ، فإنك كتبتَ إليَّ أن الله رزقك مالاً كثيراً وولداً ، فاعلم يا أخي أن الخير ليس بكثرة المال والولد ، ولكن الخير أن يكثر حلمك وأن ينفعك علمك . وكتبتَ إلي أنك نزلت الأرض المقدسة ، فاعلم أن الأرض

---

(١) رواه ابن سعد في طبقاته وإسناده صحيح .

(٢) رواه ابن عبدالبر في الاستيعاب .

لا تعمل لأحد ، اعمل كأنك ترىٰ الله واعدد نفسك في الموتىٰ[1] .

فكان ناصحاً لأخيه ، وهكذا يجب أن يكون الأخ .

كان عطاؤه من الفتوحات الإسلامية خمسة آلاف دينار ، فكان إذا جاءه العطاء وزعه في سبيل الله ، وأكل من كسب يده رغم أن العطاء حلال .

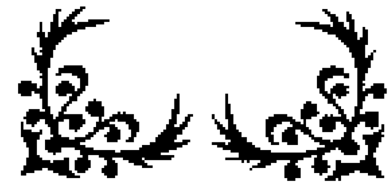
وكان رحمه الله تعالىٰ الذاكر والمراقب . فأول الذكر الذي أخذه التفكر ثم مراقبة عظمة الله تعالىٰ ، ثم بعد المراقبة يبدأ بلفظ : [الله] حتىٰ يذكر قلبه شيئاً فشيئاً ، ثم يصبح بكل شعرة من شعرات جسمه ، ثم بعد ذلك يذوب ذوباناً كاملاً بحب الله وبذكره تعالىٰ ، وهذه هي بداية الطريقة النقشبندية كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالىٰ .

وفاته :

كانت وفاته رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين ، وقيل : ست وثلاثين من الهجرة ، في آخر خلافة سيدنا عثمان بن عفان .

عاش عمره المعتمد الذي لا خلاف فيه مائتين وخمسين ، وقيل : ثلاثمائة وخمسين عاماً . وقيل كما روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء : إنه كان من المعمرين ، أدرك سيدنا عيسىٰ بن مريم وقرأ الكتابين ، أي عاش ستمائة وخمسين عاماً .

وقد أنجب ثلاث بنات : بنتاً بأصفهان ، وبنتين بمصر .



---

(١) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء عن حميد بن هلال ، وذكره أبو الحجاج المزي في تهذيب الكمال .

٤ - سيدنا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

نسبه ومولده :

هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، يكنىٰ بأبي محمد وقيل : بأبي عبد الرحمن .

أمه أم ولد ويقال لها : سودة ، وهي بنت الملك يزدجرد ملك الفرس . يروىٰ أنه عندما انتصر المسلمون علىٰ الفرس وفتحوا بلاد فارس ، أرسلوا الغنائم والسبايا وكان منها ثلاث بنات الملك يزدجرد الذي هرب وترك أهله ، وكنَّ من أجمل البنات ومن أجمل ما عرفت النساء . فأمر سيدنا عمر بن الخطاب الدلال أن ينادي عليهن ، وأراد بيعهن كما تباع الإماء والعبيد ، فبكين ووضعن علىٰ وجوههن ، فأراد سيدنا عمر أن يعلو بهن الدرة، فطلب منهن أن يكشفن عن وجوههن ، فعارضه سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عندما رأىٰ تأثرهن بذلك ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن بنات الملوك لا يعاملن كغيرهن ، وإن رسول الله ﷺ قال : « ارحموا من الناس ثلاثة : عزيز قوم ذل ، وغني قوم افتقر ، وعالماً بين جهال » (١) . ولكن ضع القيمة المقدرة لهن ،

---

(١) روي مرفوعاً عن النبي ﷺ من أوجه كلها ضعيفة ، فقد رواه العسكري وابن حبان بسند فيه منكر عن أنس ، ورواه الخطيب بسند فيه مجهول عن أنس أيضاً ولفظه : (وفقيهاً يتلاعب فيه الصبيان الجهال) ، وأخرجه ابن حبان في تاريخه بسند فيه كذاب عن ابن عباس وأبي هريرة بلفظ : (وعالماً يتلاعب به الصبيان) . هذا والمشهور علىٰ الألسنة إسقاط لفظ : (من الناس ثلاثة) .

فمن أراد من المسلمين اشتراهن . فوقعت كلمة سيدنا علي في قلب سيدنا عمر وكان يتخذه مستشاراً ومرجعاً ، فوضع لهن القيمة المقدرة ، وقام سيدنا علي واشتراهن كلهن ، فأعطىٰ واحدة لولده الحسين ، والثانية لعبدالله بن عمر ، والثالثة لمحمد بن أبي بكر الصديق[1] .

وقد أنجبن ثلاثة هم خيار أهل زمانهم من التابعين :

فالأولىٰ وهي زوجة الحسين : أنجبت خير الناس زين العابدين ، ومنه نسل الحسين كله إلىٰ يوم القيامة .

والثانية وهي زوجة عبدالله بن عمر : أنجبت سالماً ، وهو من خير التابعين والعُبَّاد الزهاد .

والثالثة وهي زوجة محمد بن أبي بكر الصديق : أنجبت القاسم ، وهو شيخ من شيوخنا ، وقد ولد في المدينة سنة سبع أو ثمان وثلاثين من الهجرة الشريفة .

نشأته العلمية :

بعد أن قتل والده سيدنا محمد بن أبي بكر الصديق ، ربي سيدنا القاسم يتيماً في بيت رسول الله ﷺ ، في حجر عمته السيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ.

فأخذ العلم عنها وترعرع عندها .

روىٰ خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة قال : « كان أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة : القاسم وعروة وعمرة »[2] .

---

(١) ذكر بعضه ابن حجر في التهذيب .

(٢) رواه ابن حجر العسقلاني والذهبي .

كما أخذ العلم عن أبيه محمد قبل وفاته ، وأخذ عن عبدالله بن مسعود ، وعن أبي هريرة ، وعن عدد كبير من الصحابة ، وشيوخه كانوا أكثر من سبعين .

مناقبه وفضائله :

هو أحد الفقهاء السبعة[1] في العالم الإسلامي ، بل كان أعلم أهل زمانه في السنة .

عن أبي الزناد[2] قال : « ما رأيت أحداً أعلم بالسنة من القاسم بن محمد ، وما كان الرجل يعد رجلاً حتىٰ يَعرف السنة »[3] .

وعن مالك رضي الله عنه قال : « كان القاسم من فقهاء هذه الأمة »[4] .

وقال ابن سعد في حقه : « إنه ثقة ، رفيع ، عالم ، فقيه ، إمام ورع ، كثير الحديث» .

---

(١) الفقهاء السبعة هم أهل الحل والعقد والربط في المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فكان الناس يرجعون إليهم . وقد خُصوا بهذه التسمية لأن الفتوىٰ بعد الصحابة صارت إليهم وشُهروا بها ، علماً أنه كان بعصرهم جماعة من التابعين أمثال سالم بن عبدالله بن عمر وغيره ، ولكن الفتوىٰ لم تكن إلا لهؤلاء السبعة ، وهم : سعيد بن المسيب ، عروة بن الزبير ، خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري ، أبو بكر بن عبدالرحمن ، القاسم بن محمد ، سليمان بن يسار ، وعبيدالله بن عبدالله . وقد جمعهم بعض العلماء في بيتين فقال :

ألا كل من لا يقتدي بأئمة   فقسمته ضيزىٰ عن الحق خارجة
فخذهم عبيدالله عروة قاسم   سعيد سليمان أبو بكر خارجة

(٢) هو من علماء الجرح والتعديل في الحديث .

(٣) رواه البخاري في تاريخه ، وأبو نعيم في الحلية ، والذهبي .

(٤) رواه ابن حجر العسقلاني .

وقال ابن عون : « كان القاسم وابن سيرين ورجاء بن حيوة يحدثون بالحديث على حروفه »[1] .

لذلك فقد روى عنه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وقال يحيى بن سعيد[2] : « ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم بن محمد »[3] .

وقد كان في عصره أئمة كبار أمثال محمد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ، وطاووس ، وزين العابدين ، وسيد التابعين في البصرة الحسن البصري .

وقال ابن حبان في ثقات التابعين : « كان القاسم بن محمد من سادات التابعين ، من أفضل أهل زمانه علماً وأدباً وفقهاً . وكان صموتاً ، فلما ولي عمر ابن عبد العزيز قال أهل المدينة : اليوم تنطق العذراء ، وأرادوا القاسم » .

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال عندما كان أميراً بالمدينة : « لو كان لي من الأمر شيء لوليت القاسم بن محمد الخلافة »[4] . وكان يرجع إليه كثيراً .

من كلامه ومآثره :

❁ روى أبو نعيم في الحلية عن محمد بن إسحاق قال : جاء أعرابي إلى القاسم ابن محمد فقال : أنت أعلم أم سالم ابن خالتك؟ فأعرض عنه ، ثم جاءه عن يمينه ثم من أمامه فأعرض عنه ، ثم جاءه مرة رابعة وسأله ، فقال بعد

---

(١) رواه ابن حجر والذهبي .

(٢) هو أحد الأئمة الكبار عند البخاري ومسلم ، وهو من علماء الجرح والتعديل في الحديث .

(٣) رواه ابن حجر في التهذيب ، وأبو نعيم في الحلية .

(٤) ذكره أبو الفرج في صفوة الصفوة ج٢ ص٨٨ .

أن انتهىٰ من صلاته : ذاك منزل سالم ، ولم يزده عليها حتىٰ قام الأعرابي .

يقول محمد بن إسحاق : هنا كره القاسم أن يقول : هو أعلم مني فيكذب ، أو يقول : أنا أعلم منه فيزكي نفسه .

* وعن سفيان -وهو من تلاميذ القاسم- قال : اجتمعوا إلىٰ القاسم بن محمد في صدقة من الغنائم ليقتسموها ، فقام ووزعها . ثم قام يصلي فجعلوا يتكلمون أنه مال ووزع لأحد دون أحد ، فقال ابنه : إنكم اجتمعتم إلىٰ رجل والله ما نال منها درهماً ولا دانقاً . قال : فأوجز القاسم في صلاته ، ثم قال لولده : يا بني ، قل فيما علمتَ .

قال سفيان : صدق ابنه ، ولكنه أراد تأديبه في النطق وحفظه .

* وعن أيوب وهو من علماء الجرح قال : سمعت القاسم يُسأل بمنىٰ فيقول : لا أدري ، لا أعلم . فلما أكثروا عليه قال :

"والله لا نعلم كل ما تسألونا عنه ، ولو علمنا ما كتمناكم ، ولا يحل لنا أن نكتمكم" .

* وروىٰ ابن سعد في طبقاته والذهبي عن يحيىٰ بن سعيد قال : سمعت القاسم بن محمد يقول :

"ما نعلم كل ما نُسأل عنه ، ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم" .

* ومن كلامه أيضاً ما قاله لعمر بن عبد العزيز حين حزن علىٰ موت عبدالملك بن مروان :

"إن سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل والرضا ، ومواجهة النعم بالتذلل والتواضع والشكر لله" .

عندها قام عمر ولبس الثياب وابتسم .

ما أجملها من كلمة ! فاحفظها أيها القارئ وقلها ظاهراً وباطناً .

وفاته :

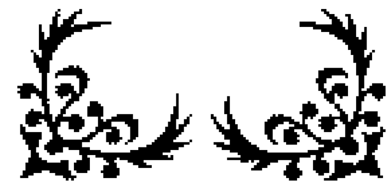
توفي رضي الله عنه في قديد بين مكة والمدينة حيث كان حاجاً أو معتمراً ، عن عمر يقارب السبعين عاماً في طاعة الله تبارك وتعالى ومرضاته ، وذلك سنة ست أو خمس بعد المائة . وقد نُقل بعدها إلى المدينة ودفن هناك ، وكان قد عمي في آخر عمره .

يروى أنه لما احتضر قال : كفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها ، قميصي وإزاري وردائي . فقال له ابنه : يا أبتي ، ألا نزيد ثوبين؟ قال : هكذا كُفِّنَ أبو بكر رضي الله عنه في ثلاثة أثواب ، والحي أحوج إلى الجديد من الميت[1] .

ومما قاله لولده كذلك عند موته :

"شُنَّ التراب عليّ شَنَاً ، وسَوِّ عليَّ قبري ، والحق بأهلك ، وإياك أن تقول : كان أبي وكان ، والزم عملك فالذي ينفعك عمل صالح تتقرب به" .

ثم انتقل السر الشريف بعده إلى حفيده ابن ابنته سيدنا جعفر بن محمد بن زين العابدين قدس الله سرهما .



(١) ذكره ابن سعد في طبقاته والذهبي .

٥ – سيدنا الإمام جعفر الصادق

نسبه ومولده :

هو جعفر بن محمد الباقر[1] بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب إلىٰ آخر النسب الشريف .

كنيته أبو عبدالله ، وقد نعت بالصادق ولقب به لأنه كان صادقاً بأقواله وأفعاله .

أما نسبه من جهة أمه ، فهي فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فالقاسم جده لأمه .

وقد ولد في المدينة سنة ثمانين من الهجرة النبوية الشريفة .

نشأته العلمية :

منذ صغره أخذ شيخنا العلم عن أبيه وعن جده القاسم ، كما أخذه عن عروة بن الزبير ، وعطاء بن رباح سيد التابعين في مكة ، ونافع ، والزهري ، وعكرمة ، وغيرهم .

ولقد أقبل رضي الله عنه علىٰ العبادة والخضوع منذ بداية حياته ، وآثر العزلة والخشوع ، وأعرض عن الرياسة والجموع .

يقول عمرو بن المقدام : « كنت إذا نظرت إلىٰ جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين »[2] .

---

(١) سمي بذلك لأنه بقر العلم بقراً .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ، وابن حجر في التهذيب ، والذهبي .

فهؤلاء هيبتهم فوق هيبة الملوك والسلاطين ، تجد في وجوههم النـور والتجليـات وكـأن الجنـة في وجوهـهم ، فـإذا نظـرت إليـهم ترتـاح روحياً ونفسياً .

وكانﷺ حكيماً ، موفقاً ، ملهماً في كل أموره ، وعلمه كان غزيراً ، وقد أخرج عنه الإمام مسلم في صحيحه .

أما تلاميذه فهم كثر ، ومنهم : سفيان الثوري ، سفيان بن عيينة ، مالك بن أنس ، شعبة بن الحجاج ، وسليمان بن هلال .

بعض كراماته :

هي أكثر من أن تعد ، وأذكر منها ما روي عن الليث بن سعد سيد التابعين في مصر ، يقول : أتيت الحج سنة ثلاث عشرة ومائة من الهجرة ، فصليت العصر في المسجد الحرام ثم رقيت جبل أبي قبيس ، فرأيت رجلاً مُهاباً يجلس علىٰ قمة الجبل ، رافعاً يديه يقول : يا رب . . . حتىٰ انقطع صوته ، ثم قال : يا إلهي . . . حتىٰ انقطع صوته ، ثم قال : يا خالقي . . . حتىٰ انقطع صوته ، ثم قال : يا رحيم . . . حتىٰ انقطع نَفَسُه ، ثم قال : اللهم إني أشتهي من هذا العنب فأطعمنيه ، وإن حللي قد انبرت أريد غيرها .

فيقول الليث : فو الله ما استتم كلامه حتىٰ نظرت إلىٰ سلة مملوءة عنباً وليس علىٰ الأرض يومئذ عنب ، وحلتين نزلتا من السماء . فمد يده ليأكل فقلت له : مكانك مناصفة ، قال : لماذا؟ قلت : لأنك كنت تدعو وأنا أُؤَمِّنُ لك ، فقال لي : تقدم وكل ولا تدخر . فأكلت عنباً ما أكلت منه في حياتي لا عجم فيه ، وأما لذته فلا أستطيع أن أصفها . ثم أراد أن يعطيني ثوباً

فقلت له : لا حاجة لي بذلك ، فأخذ واحدة واتزر بها والثانية ارتداها ، ثم سار فتبعته .

وبعد أن نزل من على الجبل رآه رجل وقال له : يا ابن بنت رسول الله ، أريد كسوة . فأخذ ثوبيه وكساهما للرجل ، فأتيت الرجل وسألته : من هذا؟ قال : ألا تعرفه؟ إنه جعفر الصادق . فتبعته وأردته ، فاختفى من أمامي .

من كلامه ومآثره :

* روى عن النبي ﷺ الحديث الشريف : « إن الله عز وجل يحب أبناء السبعين ، ويستحي من أبناء الثمانين »[1] .
* وقال لسفيان الثوري رحمهما الله تعالى :

"لا يتم المعروف إلا بثلاث : بتعجيله ، وتصغيره ، وستره عن الآخرين" .

وتفسير ذلك : أن العجلة من الشيطان إلا في أمور منها : الأمر بالمعروف ، وفعل الخير ، والصلاة ، وتعجيل الإفطار . . . وغير ذلك ؛ لهذا قال : لا يتم المعروف إلا بتعجيله .

وبتصغيره في عينك ؛ لأن الله هو الذي وفقك لفعل الخير مهما كان المعروف كبيراً .

وأن تستره عن الآخرين ؛ لأنك إن قصدت الناس فأجرك تأخذه من الناس ، أما إن قصدت الله فاستره عن الناس .

---

(١) حديث غريب رواه أبو نعيم في الحلية من حديث جعفر وأبان ، لم يُكتب إلا بهذا الإسناد ، وأبان بن تغلب هو من تابعي الكوفة .

❁ وقال رضي الله عنه :

"**إياكم والخصومة في الدين ، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق**" .

فكثرة الجدال لها مضار كثيرة ، فهي تشغلك عن ذكرك وعن صفائك ، وتعكر عليك بحرك .

قال النبي ﷺ : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً »(١) .

❁ ومن كلامه قدس سره :

"**أوحى الله تعالى للدنيا أن اخدمي مَن خدمني ، وأتعبي مَن خدمك**" .

وهذا مأخوذ من نص الحديث القدسي : « يا دنيا ، اخدمي مَن خدمني ، وأتعبي من خدمك »(٢) .

❁ وقال رحمه الله تعالى :

"**الفقهاء أمناء الرسل ، فإذا رأيتم الفقهاء ركنوا إلى السلاطين فانهوهم عن ذلك**" .

وأقول : فإن أصروا فاجتنبوهم وقاطعوهم في الله ؛ لأنهم لا يتورعون في حلال ولا حرام ، وهذا ما ورثناه عن سلفنا الصالح .

❁ وقال قدس سره :

"**استنزلوا الرزق بالصدقة ، وحصنوا أموالكم بالزكاة ، وما عال من اقتصد ، والتدبير نصف العيش ، والتودد نصف العقل ، وقلة العيال**

---

(١) رواه أبو داود واللفظ له ، وابن ماجة ، والترمذي وقال : حديث حسن ، والبيهقي ، وكذلك الطبراني في الأوسط .

(٢) رواه الديلمي صاحب الفردوس عن ابن مسعود ، وأبو نعيم في الحلية .

هي إحدىٰ اليسارين ، والصنيعة لا تكون إلا عند ذي حسب ودين" .

قوله : (التودد نصف العقل) ، يعني أن الإنسان عليه أن يكون مرناً متسامحاً مع الآخرين بما يتناسب مع عقيدته ، وهذه ليست مداهنة . قال رسول الله ﷺ : «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلىٰ الناس»[1] .

وقوله : (قلة العيال هي إحدىٰ اليسارين) ، حيث كثرة الأولاد مشغلة عن الآخرة .

وقوله : (والصنيعة لا تكون إلا عند ذي حسب ودين) ؛ لأن الذي لا حسب له ولا دين لا تؤمن غائلته ، والذي لا أصل له مهما تطعمه وتعطيه وتأتي له بالهدايا فإنه لا يفيد . أما ابن الحسب وصاحب الدين فإذا قدمت له كأساً من الماء كان خادمك طول عمرك .

۞ وقال رحمه الله تعالىٰ :

"إذا سمعتم من مسلم كلمة فاحملوها علىٰ أحسن ما تجدون ، فإن لم تجدوا لها محملاً حسناً فلوموا أنفسكم" .

۞ وقال رضي الله عنه :

"لا تأكلوا من يد جاعت ثم شبعت" .

ولا يعني بالفقير هنا الذي لا يملك المال ، بل الفقير هو الفقير بقلبه

---

(١) أخرجه البزار عن أبي هريرة بسند ضعيف ، والطبراني في الأوسط . كما رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن علي بن أبي طالب بلفظ التحبب بدل التودد ، ورواه البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك بزيادة : [وأهل التودد في الدنيا لهم درجة في الجنة ، ومن كانت له في الجنة درجة فهو في الجنة] ، ورواه ابن عدي في الكامل عن ابن عباس إلا أنه قال : [مداراة الناس في غير ترك الحق] ، كما روىٰ بعضهم عن أنس بزيادة : [واصطناع الخير إلىٰ كل بر وفاجر] .

وروحه وعقله وتدبيره ، فكثير من الفقراء هم أغنياء .

فيقول : كن مع ابن النعمة ، مع الراضي بكل أموره .

❁ ومما وصى به ولده موسى الكاظم :

"يا بني ، مَن رضي بما قُسمَ له استغنى ، ومن مد عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً ، ومن لم يرض بما قسم اللهُ اتهم اللهَ في قضائه ، ومَن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره ، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه ، ومن كشف حجاب غيره انكشفت عورته" .

فدائماً لتكن الصغيرة في عينك كبيرة ، ولا تحاولن كشف وفضح المستور .

ثم يتابع فيقول :

"ومن سلّ سيف البغي قُتل به ، ومن احتفر بئراً لأخيه سقط فيه ، ومن داخل السفهاء حُقِّر ، ومن خالط العلماء وُقِّر ، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم ، ولا تزري بالرجال فيُزرى بك ، وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتذل بذلك ، وقل الحق ولو عليك تستشار من بين أقرانك . وكن لكتاب الله تالياً ، وللسلام فاشياً ، وبالمعروف آمراً ، وعن المنكر ناهياً ، ولمن قطعك واصلاً ، ولمن سكت عنك مبتدئاً بالسلام ، ولمن سألك معطياً" .

❁ ويروى عن مالك بن أنس وهو تلميذ جعفر قال : جاء سفيان الثوري إلى جعفر فرفض مقابلته ، فتوسل إليه فدخل ، فقال له جعفر : إنك مطلوب لدى السلطان وعيون الخليفة عليك ، فقال له سفيان : لا أقوم حتى تحدثني وتعلمني حكمة . فقال له جعفر :

"إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها ، فإن الله عزّ وجلّ قال في كتابه : ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾

[إبراهيم : ٧] . **وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار . وإذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة"** .

۞ ويروى أن سيدنا جعفر ﷺ دخل يوماً على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور[١] وكان مزعوجاً من ذبابة أمامه ، فقال المنصور : لماذا خلق الله الذباب؟ قال : ليذل به الجبابرة .

۞ ويروى عن الربيع صاحب شرطة أبي جعفر المنصور أنه قال : حج أبو جعفر المنصور سنة سبع وأربعين ومائة ، فقدم المدينة وقال لي : ابعث إلي بجعفر بن محمد تَعِباً ، قتلني الله إن لم أقتله . فيقول الربيع – وكان موالياً ومحباً لآل البيت – : فتشاغلت عنه ، ثم بعد يوم قال المنصور : يا ربيع ، ائتني بجعفر تعباً . فتشاغلت الثانية ، ثم قال لي : ائتني بجعفر ، وتكلم بكلمات بذيئة . ولا زلت أتغافل عنه لينساه مراراً حتى ألح علي إحضاره ، فاضطررت لذلك .

---

(١) عُرف أبو جعفر المنصور بالسفاح ؛ لأنه كان لا يتورع في سفك الدماء . كان يمثل العباسيين وهم الذين اغتصبوا الحكم من آل البيت ، حيث عندما انتصر العباسيون على الأمويين باسم آل بيت النبي وكانوا يعملون سراً ، استأثروا بالحكم لأنفسهم . لكن عندما أخذوا الحكم الظاهر ، أعطى الله تعالى أهل البيت حكم الباطن ، فالقيادة لهم وبأيديهم إلى يوم القيامة .
قال الشيخ محيي الدين بحقهم :

لنا دولة في آخر العصر تظهر ... ستظهر مثل الشمس لا تتستر
فمن كان منا أو يقول بقولنا ... فبشره بدنيا وأخرى يبشر

ولقد عنى الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى بذلك المهدي الذي يظهر في آخر الزمان، وهو من آل بيت النبي ﷺ .

فجئت جعفر الصادق وأخبرته بما كان ، وأن المنصور يطلبه ، فقال جعفر : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، استعنا بالله . وسرت معه حتىٰ أوصلته الباب وأدخلته علىٰ المنصور ، فعندما رآه المنصور أوعده وقال له : أي عدو الله ، اتخذك أهل العراق إماماً يجبون إليك زكاة أموالهم ، وتلحد في سلطاني وتبغيه الغوائل ! قتلني الله إن لم أقتلك . وجعفر يستمع إليه وهو بسن يجاوز الستين من عمره ، فأجابه : يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أُعطي فشَكَرَ ، وإن أيوب ابتُلي فصَبَرَ ، وإن يوسف ظُلِمَ فغَفَر ، وأنت من ذلك الأصل - يقصد من سلالة الأنبياء - . فعندها قال له أبو جعفر : إليَّ وعندي أبا عبد الله البريء الساحة ، السليم الناحية ، القليل الغائلة ، جزاك الله من ذي رحم أفضل ما جزىٰ به ذوي الأرحام عن أرحامهم . ثم تناول يده وأجلسه معه علىٰ فراشه ، ونادىٰ : يا ربيع ، أحضر العطور والبخور . فعطّره وبخّره ، وأحضر المسك وأنواع الدهون وطَيَّبَ لحيته وخللها ، ثم آنسه ساعة ، ثم أعطاه أعطيته من ثياب ومال وقال : تستطيع أن تنصرف علىٰ بركة الله ، فخرج جعفر علىٰ أتم حال وأهنأ بال معززاً مكرماً .

يقول الربيع : فاستغربت كيف أمرني بإحضاره متعباً ، ثم كيف خرج من عنده وبهذه المعاملة؟ فلحقته وسألته : يا ابن بنت رسول الله ، رأيت الأمر تغيّر عندما دخلتَ علىٰ المنصور ، فماذا قلتَ عند دخولك عليه حتىٰ عاملك بمثل ذلك؟ فأجابه جعفر : قلت : (اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكفني بركنك الذي لا يرام ، واغفر لي بقدرتك عليّ ، لا أَهْلَكُ وأنت رجائي . اللهم إنك أكبر وأجلُّ ممن أخاف وأحذر ، اللهم بك أدفع في نحره ، وأستعيذ بك من شره) .

فهؤلاء أرباب القلوب لهم تأثير غريب علىٰ الآخرين ؛ لأنهم صدقوا

مع الله تعالىٰ ، فهم يعيشون مــع الملـك لا يبـالون بغـيره ، يتوجـهون إلىٰ الله وهـم يعلمون أن قلوب العباد بين إصبعين مـن أصـابع الرحمـن يقلبـها كيـف يشاء .

وأحب منك أخي القارئ أن تحفظ هذا الدعاء لأنك تحتـاج إليـه أمـام كل ظالم ، ولا يشترط أن يكون الظـالم سـلطاناً بـل أي ظـالم متجـبر ، ادع الدعاء وانفخ في وجهه يكن نافعاً إن شاء الله تعالىٰ .

هذه مقتطفات من أثره قدس الله سره العزيز ، أختمها بأبيات شعر قالها :

يا رُب جوهر علم لـو أبـوح بـه لقيل لي أنت ممن يعبـد الوثنـا

ولاستباح رجال صالحون دمـي يـرون أقبـح مـا يأتونـه حسـنـا

وفاته :

توفي قدس سره في المدينـة سـنة ثمـان وأربعـين ومائـة مـن الهجـرة ، وعمره سبعة وستون عاماً . وقد دفن في القـبر الـذي دفـن فيـه أبـوه محمـد البـاقر ، وجـده زيـن العـابدين ، والحسـن بـن علـي بـن زيـن العـابدين ، والحسن بن الزهـراء رضـي الله تعـالىٰ عنـهم أجمعـين ، وهـو بجـانب قـبر سيدنا إبراهيم بن رسول الله ﷺ . فأي قبر هذا الذي جمـع المكـارم كلـها ، وحوىٰ هؤلاء الخيرة البررة من هذه الأمة؟

وكان علىٰ القبر الشريف قبـة كبـيرة ومعروفـة تـزار في صـدر البقيـع الغرقد ، غير أن هؤلاء الوهابيين أزالوها .

ثـم بوفـاة سـيدنا جعفـر الصـادق انتقـل السـر الشـريف إلىٰ سـيدنا أبي يزيد البسطامي رضي الله عنهما وأرضاهما عنا .



٦ - سيدنا الشيخ أبو يزيد البسطامي

هو أشهر من عُرف بالولاية ، وقدمه راسخ قدس الله سره .

نسبه ومولده :

هو أبو يزيد طيفور بن عيسىٰ بن سروشان البسطامي ، نسبة إلىٰ بلد في فارس تعرف ببسطام .

كان أبوه عيسىٰ مجوسياً ، وقد أسلم وحسن إسلامه . وكان له ثلاثة أولاد : آدم وهو أكبرهم ، وأبو يزيد وهو أوسطهم ، وعلي وهو أصغرهم سناً ، وكانوا كلهم عباداً زهاداً .

وقد ولد سيدنا أبو يزيد سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة الشريفة ببسطام ، أي في القرن الثاني من تاريخ الهجرة ، والنبي ﷺ هو القائل : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادةُ أحدهم يمينَه ، ويمينُه شهادتَه »[١] .

نشأته العلمية :

نشأ سيدنا أبو يزيد قدس سره منذ صباه النشأة الإسلامية الصحيحة ، وكان أبوه يعتني به كثيراً ، فأخذ العلم عن الإمام علي الرضا بن موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق قدس الله تعالىٰ أسرارهم .

---

(١) رواه مسلم ، والبخاري واللفظ له ، وأحمد ، والترمذي ، وابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية .

وقد ربته روحانية الإمام جعفر الصادق ، فهو أويسي[1] التربية ، قد وصل إليه هذا السر الجليل عن طريق الروح .

كما يروى أن له سنداً لسلمان الفارسي ، وبينهما أربعة مشايخ . وسنداً لعمر بن الخطاب ، حيث أخذ عن محمد بن فارس عن حاتم الأصم عن شقيق عن إبراهيم بن أدهم عن مالك بن دينار عن أبي مسلم الخولاني عن عمر بن الخطاب . وسنداً آخر لسيدنا علي بن أبي طالب ، وبينهما ستة وسائط .

جانب من حياته :

كان قدس سره نادرة زمانه حالاً ، وقالاً ، وأنفاساً ، وورعاً ، وتقاً ، ووجداً ، وزهداً ، بما تعنيه كل كلمة .

يروى أنه أسرج السراج ليلة فقال لأصحابه : إني أجد نفسي مستوحشة من السراج ، فقالوا له : إنا استعرنا قارورة من البقال لنأتي بالدهن فيها مرة ، فأتينا فيها مرتين . فقال : أخبروا البقال بذلك وأرضوه ، ففعلوا فزالت عنه هذه الوحشة .

وقال يوماً لأصحابه : فقدت قلبي ، فانظروا في البيت هل من مخالفة . فنظروا فلم يجدوا شيئاً ، فقال : انظروا . فوجدوا قطف عنب ، فقال : رجع بيتنا بيت بقال؟ فتصدقوا به . ففعلوا فرجع قلبه حالاً .

---

(١) القاعدة عند أهل الظاهر والباطن : أن كل من ربته روحانية أحد السادات يقال له : أويسي ، نسبة إلى سيدنا أويس القرني التابعي الجليل الذي نعت بسيد التابعين . فقد أخذ عن رسول الله ﷺ بدون لقاء ، ولقد بشر به النبي ﷺ وأوصى عمرَ بن الخطاب إذا التقى به أن يطلب منه الدعاء .

وهذا هو الورع الذي كان صفة الصالحين ولا زال .

وهنا أقول : العلم بدون ورع لا يساوي شيئاً ، وهذا إبليس النموذج ، كان عالماً ولكن بدون ورع ؛ لهذا أوصله علمه أن كان أشقىٰ المخلوقين .

وقال قدس سره : أوقفني الله تبارك وتعالىٰ بين يديه وقال : يا أبا يزيد ، بأي شيء جئتني؟ قلت : بالزهد في الدنيا ، قال : إنما مقدار الدنيا عندي جناح بعوضة ، ففيم زهدت؟ قلت : إلهي أستغفرك من ذلك ، جئتك بالتوكل عليك . قال : ألم أكن ثقة فيما ضمنتُ لك يا أبا يزيد؟ قلت : أستغفرك وأتوب إليك ، جئتك بالافتقار إليك . فقال الله عز وجل : قبلناك يا أبا يزيد .

وقال في مقام آخر : قلت : يا رب ، كيف الطريق إليك؟ فقال لي : أُترك نفسك وتعال .

وقد دعا نفسه مرة إلىٰ الله تعالىٰ في الليل فكانت خمولة ، فمنعها من شرب الماء عاماً كاملاً .

ويروىٰ أنه مر يوماً من أمام كتاب يعلم القرآن ، وقد انصرف الطلاب ووجدوا أبا يزيد ماشياً ، فالتفوا حوله وصاحوا قائلين : يهودي يهودي . ثم أحضروا حماراً وأركبوه عليه ، وداروا به البلد وهم يمشون من أمامه وخلفه ، وتلاميذه يقفون بعيداً خائفين متعجبين ، أولاد صغار يلعبون بالشيخ ! وبعد أن أنزلوه جاء التلاميذ وسألوه : ما القصة؟ فقال لهم : وجدوني غافلاً فذكروني ، ووجدوني متعباً فحملوني ، ووجدوني متكبراً فهذبوني .

بعض كراماته :

يروى أنه وطئ يوماً على نملة فماتت ، فقال لها : قومي بإذن الله ، ونفخ عليها فقامت ، فقال لها : لا نحاسبك ولا تحاسبين ، ولا نسألك ولا تسألين .

فكما أحيى سيدنا عيسى الموتى بإذن الله تعالى ، كذلك هناك مِن أمتنا مَن أحيى الموتى بإذن الله تعالى . والقاعدة تقول : [كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي] .

ومن كراماته كذلك ما يرويه أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه يقول : كنت يوماً في بعض سياحاتي متلذذاً بخلوتي وراحتي ، مستغرقاً بفكري ، مستأنساً بذكري ، إذ نوديت في سري : يا أبا يزيد ، امض إلى دير سمعان ، واحضر مع الرهبان ، في يوم عيدهم والقربان ، فلنا في ذلك نبأ وشأن . قال : فاستعذتُ بالله من هذا الخاطر وقلت : لست أخاطر . فلما كان الليل أتاني الهاتف في المنام ، وأعاد عليّ ذلك الكلام ، فانتبهت وأنا أرجف وأرعد ، وعندي من هذا الكلام ما يقيم المقعد . فنوديت من سري : لا بأس عليك ، أنت عندنا من الأولياء الخيار ، ومكتوب في ديوان الأبرار ، ولكن البس زي الرهبان ، واشدد من أجلنا الزنار ، وما عليك في ذلك جناح ولا إنكار .

قال أبو يزيد : فقمت من باكر وبادرت إلى امتثال الأوامر ، ولبست زي الرهبان ، وحضرت معهم في دير سمعان . فلما حضر كبيرهم واجتمعوا ، وأنصتوا إليه ليسمعوا ، ارتج عليه المقام ، فلم يطق الكلام ، وكان فمه في لجام ، فقال له القسيسون والرهبان : ما يمنعك من الكلام؟

فنحن بقولك نهتدي ، وبعلمك نقتدي . فقال : ما يمنعني أن أتكلم وأبتدي إلا أن بينكم رجلاً محمدياً ، وقد جاء لدينكم ممتحناً وعليكم معتدياً . فقالوا : أرنا إياه لنقتله الآن ، فقال : لا تقتلوه إلا بدليل وبرهان ، فإني أريد أن أمتحنه وأسأله عن مسائل في علم الأديان ، فإن أجاب عنها وأبان تركناه ، وإن عجز عن تفسيرها قتلناه ، وعند الامتحان يعز المرء أو يهان . فقالوا له : افعل ما تريد ، فنحن ما حضرنا إلا لنستفيد . فقام كبيرهم علىٰ قدميه ونادىٰ : يا محمدي ، بحق محمد عليك إلا ما نهضت قائماً علىٰ قدميك ، لتنظر العيون إليك . فقام أبو يزيد ولسانه لا يفتر عن التقديس والتمجيد ، فقال له البطرق : يا محمدي ، أريد أن أسألك عن مسائل ، فإن أجبتَ عنها وفسرتها اتبعناك ، وإن عجزت عن تفسيرها قتلناك . فقال له أبو يزيد : سل عما تريد من المنقول والمعقول ، والله شاهد علىٰ ما تقول . فقال البطرق :

١- أخبرني عن واحد لا ثاني له؟

٢- وعن اثنين لا ثالث لهما؟

٣- وعن ثلاثة لا رابع لهم؟

٤- وعن أربعة لا خامس لهم؟

٥- وعن خمسة لا سادس لهم؟

٦- وعن ستة لا سابع لهم؟

٧- وعن سبعة لا ثامن لهم؟

٨- وعن ثمانية لا تاسع لهم؟

٩- وعن تسعة لا عاشر لهم؟

١٠- وعن عشرة كاملة؟

١١- وعن أحد عشر؟

١٢- وعن اثني عشر؟

١٣- وعن ثلاثة عشر؟

١٤- وعن قوم كذبوا وأُدخلوا الجنة؟

١٥- وعن قوم صدقوا وأُدخلوا النار؟

١٦- وأين مستقر اسمك من جسمك؟

١٧- وعن الذاريات ذرواً؟

١٨- وعن الحاملات وقراً؟

١٩- وعن الجاريات يسراً؟

٢٠- وعن المقسمات أمراً؟

٢١- وعن شيء تنفس بغير روح؟

٢٢- وعن أربعة عشر تكلموا مع رب العالمين؟

٢٣- وعن قبر مشى بصاحبه؟

٢٤- وعن ماء لا نزل من السماء ولا نبع من الأرض؟

٢٥- وعن أربعة لا من ظهر أب ولا من بطن أم؟

٢٦- وعن أول دم أهريق على وجه الأرض؟

٢٧- وعن شيء خلقه الله ثم اشتراه؟

٢٨- وعن شيء خلقه الله ثم أنكره؟

٢٩- وعن شيء خلقه الله واستعظمه؟

٣٠- وعن شيء خلقه الله وسأل عنه؟

٣١- وعن أفضل النساء؟

٣٢- وعن أفضل البحار؟

٣٣- وعن أفضل الجبال؟

٣٤- وعن أفضل الدواب؟

٣٥- وعن أفضل الشهور؟

٣٦- وعن أفضل الليالي؟

٣٧- وعن الطامّة؟

٣٨- وعن شجرة لها اثنا عشر غصناً ، في كل غصن ثلاثون ورقة ، وفي كل ورقة خمس زهرات : اثنتان في الشمس ، وثلاث في الظل؟

٣٩- وعن شيء حج إلى بيت الله الحرام وطاف وليس له روح ، ولا وجبت عليه الفريضة؟

٤٠- وكم من نبي خلقه الله؟

٤١- وكم من مرسل وغير مرسل؟

٤٢- وعن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها والأصل واحد؟

٤٣- وعن النقير؟

٤٤- وعن القطمير؟

٤٥- وعن الفتيل؟

٤٦- وعن السِّبْد واللِّبْد؟

٤٧- وعن الطم والرم؟

٤٨- وأخبرنا ما يقول الكلب في نبيحه؟

٤٩- وما يقول الحمار في نهيقه؟

٥٠- وما يقول الثور في نعيره؟
٥١- وما يقول الفرس في صهيله؟
٥٢- وما يقول البعير في رغائه؟
٥٣- وما يقول السبع في زئيره؟
٥٤- وما يقول الطاووس في صياحه؟
٥٥- وما يقول البلبل في تغريده؟
٥٦- وما يقول الضفدع في نقيعه؟
٥٧- وما يقول الناقوس في نقيره؟
٥٨- وأخبرنا عن قوم أوحى الله إليهم لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة؟
٥٩- وأخبرنا أين يكون الليل إذا جاء النهار؟
٦٠- وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟

فقال أبو يزيد : هل بقي أسئلة غير هذه؟ قالوا : لا ، قال : فإنْ فسرتها لكم وأجبت عنها أتؤمنون بالله ورسوله؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم أنت الشاهد على ما يقولون . ثم قال رحمه الله تعالى :

١- أما سؤالكم عن واحد لا ثاني له فهو الله الواحد القهار .
٢- وأما سؤالكم عن اثنين لا ثالث لهما فهما الليل والنهار ؛ لقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء : ١٢] .
٣- وأما سؤالكم عن ثلاثة لا رابع لهم فهم : العرش ، والكرسي ، والقلم .
٤- وأما سؤالكم عن أربعة لا خامس لهم فهي الكتب المنزلة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان .

٥- وأما سؤالكم عن خمسة لا سادس لهم فهي الصلوات الخمس المفروضات على كل مسلم ومسلمة .

٦- وأما سؤالكم عن ستة لا سابع لهم فهم الستة أيام التي ذكرها الله في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق : ٣٨] .

٧- وأما سؤالكم عن سبعة لا ثامن لهم فهم السماوات السبع ؛ لقوله تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك : ٣] .

٨- وأما سؤالكم عن ثمانية لا تاسع لهم فهم حملة العرش ؛ لقوله تعالى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١٧] .

٩- وأما سؤالكم عن تسعة لا عاشر لهم فهم التسعة رهط المفسدون ؛ لقوله تعالى : ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل : ٤٨] .

١٠- وأما سؤالكم عن عشرة كاملة ، فهي العشرة أيام التي يصومها المتمتع عند فقد الهدي ؛ لقوله تعالى : ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

١١- وأما سؤالكم عن أحد عشر فهم أخوة يوسف ؛ لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف : ٤] .

١٢- وأما سؤالكم عن اثني عشر فهي عدة الشهور ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٣٦] .

١٣- وأما سؤالكم عن ثلاثة عشر فهي رؤيا يوسف ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف : ٤] .

١٤- وأما سؤالكم عن قوم كذبوا وأُدخلوا الجنة فهم أخوة يوسف ؛

لقولـه تعـالىٰ : ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ [يوسف : ١٧] ، فكذبوا وأُدخلوا الجنة .

١٥- وأما سؤالكم عن قوم صدقوا وأُدخلوا النار فهم اليهود والنصارىٰ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة : ١١٣] ، فصدقوا وأُدخلوا النار .

١٦- وأما سؤالكم : أين مستقر اسمك من جسمك؟ فمستقره أدناه .

١٧- وأما سؤالكم عن الذاريات ذرواً فهي الرياح الأربعة .

١٨- وأما سؤالكم عن الحاملات وقراً فهي السحب ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

١٩- وأما سؤالكم عن الجاريات يسراً فهي السفن الجاريات في البحر .

٢٠- وأما سؤالكم عن المقسمات أمراً فهم الملائكة الذين يقسمون علىٰ الناس أرزاقهم من نصف شعبان إلىٰ نصف شعبان .

٢١- وأما سؤالكم عن شيء تنفس بغير روح فهو الصبح ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير : ١٨] .

٢٢- وأما سؤالكم عن أربعة عشر تكلموا مع رب العالمين فهم السبع سماوات والسبع أراضين ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت : ١١] .

٢٣- وأما سؤالكم عن قبر مشىٰ بصاحبه فهو حوت سيدنا يونس عليه السلام .

٢٤- وأما سؤالكم عن ماء لا نزل من السماء ولا نبع من الأرض فهو الماء الذي بعثته بلقيس في قارورة من عرق الخيل إلىٰ سليمان بن داود عليهما السلام .

٢٥- وأما سؤالكم عن أربعة لا من ظهر أب ولا من بطن أم فهم : كبش إسماعيل ، وناقة صالح ، وآدم ، وحواء .

٢٦- وأما سؤالكم عن أول دم أهريق على وجه الأرض فهو دم هابيل لَمّا قتله قابيل .

٢٧- وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله ثم اشتراه فهو نفس المؤمن ؛ لقوله تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] .

٢٨- وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله ثم أنكره فهو صوت الحمار ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان : ١٩] .

٢٩- وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله واستعظمه فهو كيد النساء ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٢٨] .

٣٠- وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله وسأل عنه فهي عصا موسى ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] .

٣١- وأما سؤالكم عن أفضل النساء فهن : حواء أم البشر ، وخديجة ، وعائشة ، وآسية ، ومريم ابنة عمران رضي الله تعالى عنهن أجمعين .

٣٢- وأما سؤالكم عن أفضل البحار فهو بحر الروم .

٣٣- وأما سؤالكم عن أفضل الجبال فهو جبل الطور .

٣٤- وأما سؤالكم عن أفضل الدواب فهو الخيل .

٣٥- وأما سؤالكم عن أفضل الشهور فهو شهر رمضان ؛ لقوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

٣٦- وأما سؤالكم عن أفضل الليالي فهي ليلة القدر ؛ لقوله تعالىٰ :
﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] .

٣٧- وأما سؤالكم عن الطامة فهي يوم القيامة .

٣٨- وأما سؤالكم عن شجرة لها اثنا عشر غصناً ، في كل غصن ثلاثون ورقة ، في كل ورقة خمس زهرات : اثنتان في الشمس ، وثلاثة في الظل . أما الشجرة فهي السنة ، وأما الأغصان فالشهور ، وأما الأوراق فالأيام ، وأما الخمس زهرات فالصلوات الخمس في اليوم والليلة ، ثلاثة في الظل : المغرب والعشاء والصبح ، واثنتان في الشمس : الظهر والعصر .

٣٩- وأما سؤالكم عن شيء حج إلىٰ بيت الله الحرام وطاف وليس له روح ، وما وجبت عليه فريضة ، فسفينة نوح عليه السلام .

٤١/٤٠ - وأما سؤالكم : كم خلق الله من نبي؟ وكم منهم من مرسل وغير مرسل؟ فأما الأنبياء فهم مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي ، وأما المرسلون منهم فثلاثمائة وثلاثة عشر .

٤٢- وأما سؤالكم عن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها والأصل واحد فهي : العينان ، والأنف ، والفم ، والأذنان . فماء العينين مالح ، وماء الفم حلو ، وماء الأنف حامض ، وماء الأذنين مر .

٤٣- وأما سؤالكم عن النقير فهي النقرة التي علىٰ ظهر نواة التمر (الشق) .

٤٤- وأما سؤالكم عن القطمير فهي القشرة البيضاء داخل التمرة .

٤٥- وأما سؤالكم عن الفتيل فهو الذي يكون في بطن النوىٰ .

٤٦- وأما سؤالكم عن السَّبْد واللِّبْد فهو شعر الضأن والمعز .

٤٧- وأما سؤالكم عن الطم والرم فهم الأمم الماضية قبل أبينا آدم عليه السلام .

٤٨- وأما سؤالكم عما يقول الكلب في نبيحه ، فإنه يقول : [ويل لأهل النار من غضب الجبار] .

٤٩- وأما سؤالكم عما يقول الحمار في نهيقه ، فإنه يرىٰ الشيطان فيقول : [لعن الله العشار - وهو المكّاس -] .

٥٠- وأما سؤالكم عما يقول الثور في نعيره ، فإنه يقول : [سبحان الله وبحمده] .

٥١- وأما سؤالكم عما يقول الفرس في صهيله ، فإنه يقول : [سبحان حافظي إذا التقت الأبطال بالأبطال ، واشتغلت الرجال بالرجال] .

٥٢- وأما سؤالكم عما يقول البعير في رغائه ، فإنه يقول : [حسبي الله وكفىٰ بالله وكيلاً] .

٥٣- وأما سؤالكم عما يقول السبع في زئيره ، فإنه يقول : [اللهم لا تسلطني علىٰ أوليائك] .

٥٤- وأما سؤالكم عما يقول الطاووس في صياحه ، فإنه يقول : [الرحمن علىٰ العرش استوىٰ] .

٥٥- وأما سؤالكم عما يقول البلبل في تغريده ، فإنه يقول : [سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون] .

٥٦- وأما سؤالكم عما يقول الضفدع في نقيعه ، فإنه يقول : [سبحان المعبود في البراري والقفار ، سبحان الملك الجبار] .

٥٧- وأما سؤالكم عما يقول الناقوس في نقيره ، فإنه يقول : [سبحان الله حقاً حقاً ، انظر يا ابن آدم في هذه الدنيا غرباً وشرقاً، ما ترىٰ فيها أحداً يبقىٰ] .

٥٨- وأما سؤالكم عن قوم أوحىٰ الله إليهم لا من الإنس ولا من الجن ولا من الملائكة فهم النحل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل : ٦٨] .

٥٩/٦٠- وأما سؤالكم عن الليل أين يكون إذا جاء النهار؟ وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟ فإنهما يكونان في غامض علم الله تعالىٰ ، ما أظهر عليه من نبي مرسل ولا مَلَك مقرب .

ثم قال أبو يزيد : هل بقي لكم سؤال؟ قالوا : لا ، قال : فأخبرني أنت عن مفتاح السماوات ومفتاح الجنة ، ما هو؟ فسكت كبيرهم ، فقالوا له : أنت سألته عن مسائل كثيرة فأجاب عنها جميعها ، وقد سألك عن مسألة واحدة فعجزت عن جوابها؟ فقال : ما عجزت ولكني أخاف إن أجبته عن سؤاله ألا توافقوني ، فقالوا : بل نوافقك ، أنت كبيرنا ومهما قلت لنا سمعناه ووافقناك عليه . فقال : مفتاح السماوات والجنة قول : [لا إله إلا الله محمد رسول الله] ، فلما سمعوا ذلك منه أسلموا عن آخرهم ، وأخربوا الدير وبنوه مسجداً ، وقطعوا زنانيرهم . فهنالك نودي أبو يزيد في سره : يا أبا يزيد ، أنت شددت من أجلنا زناراً واحداً ، فقطعنا من أجلك خمسمائة زنار .

ملاحظة:

وهناك أسئلة أخرىٰ اختصرناها لمكانة الكتاب من الاختصار .

وإذا أردتُ أن أسرد كراماته قدس سره فهي أكثر من أن تذكر ، إنما أردتُ أن أذكر شيخاً من شيوخ هذه السلسلة الطيبة ؛ لنعرفهم ثم لنزداد إيماناً بهم، وحباً لهم واقتداء بهم .

من كلامه ومآثره :

❁ قال قدس سره :

"ليس من العجب حبي إليك وأنا عبد فقير ، إنما العجب مِن حبك لي وأنت ملك قدير" .

❁ وقال قدس سره :

"غلطت في ابتداء مسيرتي إلىٰ الله تعالىٰ بأربعة أشياء : توهمت أني أذكره ، وأعرفه ، وأحبه ، وأطلبه . فلما انتهيت إلىٰ درجة العارف بالله ، رأيت ذكره سبق ذكري ، ومعرفته سبقت معرفتي ، ومحبته أقدم من محبتي ، وعلمت طلبه لي أولاً حتىٰ طلبته" .

❁ وقال رحمه الله تعالىٰ :

"اللهم إنك خلقت هذا الخلق بغير علمهم ، وقلدتهم أمانة من غير إرادتهم ، فإن لم تعنهم فمن يعينهم سواك؟" .

❁ وقال قدس سره :

"إن لله خواصاً من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار" .

❁ وقال في مقام آخر :

"إن لله عباداً لو حُجبوا عنه طرفة عين ثم أُعطوا الجنان كلها ما كان لهم إليها حاجة ، ولما قبلوا ذلك عن نظرة واحدة إلىٰ الحضرة الإلهية" .

فغالب الناس مرادهم أن يدخلوا الجنة لِما فيها من أنهار من لبن وعسل وحور . . . إلىٰ غير ذلك ، وهذا كلام تجار ، أما كلام الفاني الباقي

فهو أعلىٰ : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) .

قال بعضهم :

وما مقصودهم جنات عدن ولا الحور الحسان ولا الخيام
سوىٰ نظر الجليل فذا مناهم وهذا مقصد القوم الكرام

❁ وقال قدس سره :

"لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالاً لله أن أذكره علىٰ هذه الحالة" .

❁ وقال قدس سره :

"ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر" .

وبهذا وصلوا إلىٰ الله تعالىٰ .

❁ وقال رحمه الله تعالىٰ :

"إن في الطاعات من الآفات ما لا تحتاجون إلىٰ أن تطلبوا المعاصي" .

ونقول : (اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم ، ونستغفرك لما لا نعلم ، وأنت علام الغيوب) .

❁ وقال قدس سره :

"عملت في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئاً أشد عليّ من العلم ومتابعته" .

❁ وقال :

"لا يعرف نفسَه مَن صَحِبَتْه شهوته" .

فإذا أردتَ العلم فَأَمِتْ شهوتك ، واعلم أنه مَن عرف نفسه عرف ربه .

۞ وقال قدس سره :

"دعوت نفسي إلى الله فأبت عليّ واستصعبت ، فتركتها ومضيت إلى الله وحدي ، فلحقتني طائعة" .

۞ وقال :

"العارف همه ما يأمله ، والزاهد همه ما يأكله ، وطوبى لمن كان همه هماً واحداً ، ولم يشغله قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه ، ومن عرف ربه فإنه يزهد في كل شيء يشغله عنه" .

۞ وقال رحمه الله :

"عرفتُ اللهَ بالله ، وعرفتُ ما دون الله بنور الله" .

۞ وقال قدس سره :

"من سمع الكلام ليتكلم مع الناس رزقه الله فهماً يُكلم به الناس ، ومن سمع الكلام ليعامل الله رزقه الله فهماً يناجي به ربه" .

۞ وقال قدس سره :

"العارف فوق ما يقول ، والعالِم دون ما يقول . والعارف ما فرح بشيء قط ، ولا خاف من شيء قط . والعارف يلاحظ ربه ، والعالِم يلاحظ نفسه . والعابد يعبد بالحال ، والعارف يعبد في الحال . وثواب العارف مِن ربه هو ، وكمال العارف احترافه فيه له ، فيكون دائماً مع حضرة الله وبدون انقطاع" .

۞ وقال :

"إن الله تعالى أمر العباد ونهاهم فأطاعوه ، فخلع عليهم خلعة من خلعه فاشتغلوا بالخُلَع عنه ، وإني لا أريد من الله إلا الله" .

❁ وقال رحمه الله تعالىٰ :

"إن الصادق من الزاهدين إذا رأيته هبته ، وإذا فارقته هان عليك أمره . والعارف إذا رأيته هبته ، وإذا غاب عنك أو فارقته هبته" .

❁ وقال :

"الجوع سحاب ، فإذا جاع العبد مُطر القلب بالحكمة" .

ولهذا أحب دوام صوم الخميس والإثنين .

❁ وقال قدس الله سره العزيز :

"لو نظرتم إلىٰ رجل أُعطي من الكرامات حتىٰ يرفع في الهواء ، فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحد" .

وهذا ما نقوله دائماً ، فالابتداء والانتهاء والوصول لا يكون إلا بالاتباع ، وسيدنا محمد ﷺ هو قائد كل قائد ، ولا وصول إلىٰ الله إلا عن طريقه ﷺ .

❁ وقال قدس سره ينقل عن غيره :

أدركنا رجالاً لو قالوا لهذا الجبل : تنحَّ عن مكانك ، لتنحىٰ . وأشار بإصبعه إلىٰ الجبل ، فتنحىٰ الجبل ، فقال : ارجع ارجع ، فرجع .

❁ وتقول زوجة أبي يزيد : سمعت أبا يزيد يقول :

"عالجت كل شيء فما رأيت شيئاً أصعب من معالجة نفسي ، وليس شيء أهون عليَّ منها" .

❁ ويقول يعقوب بن إسحاق : سمعت أبا يزيد يناجي ربه ويقول :

"هذا فرحي وأنا أخافك ، فكيف فرحي إذا أمنتك؟" .

وأقول : لا يذهب الخوف إلا باليقين .

٭ وقد قيل لأبي يزيد : إنك من الأبدال السبعة الذين هم أوتاد الأرض ، فقال : **"أنا كل السبعة"** .

وهنا إشارة إلىٰ أنه هو صاحب الوقت في زمانه ، وقد أخذها بالوكالة لا بالأصالة ؛ لأن المعروف أن الأصالة بهذا الشأن منحصرة في الآل الكرام .

٭ وقيل له : متىٰ يبلغ الرجل حد الرجال في هذا الأمر؟ فقال :

"إذا عرف عيوب نفسه" .

٭ وقال له رجل : بلغني أنك تمر في الهواء يا أبا يزيد ، فقال :

"وأي أعجوبة في هذه؟ طير يأكل الميتة يمر في الهواء ، والمؤمن أشرف من الطير" .

٭ وقد سئل أبو يزيد : كيف نال العارفون المعرفة؟ فقال :

"بتضييعهم ما لهم ، والوقوف علىٰ ما له" .

٭ وسئل : ما علامة العارف؟ فقال :

"ألا يفتر من ذكره ، ولا يمل من حقه ، وألا يستأنس بغيره" .

٭ وقد سئل أبو يزيد عن اسم الله الأعظم ، فأجاب :

"ليس له حد محدود ، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته . فإذا كنت كذلك فارفع إلىٰ أي اسم من أسمائه شئت ، فإنك تصير به إلىٰ المشرق والمغرب ثم تجيء وتَصِفُ" .

٭ وسئل رحمه الله تعالىٰ عن قوله : [إنا لله وإنا إليه راجعون] ، فقال :

"[إنا لله] : إقرار لله بالملك كله ، ونحن من ممتلكاته . [وإنا إليه راجعون] : إقرار علىٰ اليقين بالملك لله" .

٭ وقال بعض مدعي الصوفية لأبي يزيد : لقد شربت شربة فلم أظمأ

بعدها أبداً ، فأجابه أبو يزيد قائلاً :

"الرجل هو الذي يشرب البحار – يقصد بحار الحب – ولسانه خارج علىٰ صدره من العطش" .

ومن هنا نعرف أن الحب شرب بلا ري ، لهذا سألني بعض المريدين عن أبيات قلتها في حالة معينة :

أنا خضت بحر الحب وحدي ظامئاً فخرجت من بحر الهوىٰ لم أرتو

فأجبته : إن الشرب عند الرجال من بحار الحب لا يروي إذا كانوا كمَّلاً ، ولا يسكرون بالكؤوس إذا كانوا عارفين ؛ لأن السكر والكأس يؤثر بالمبتدئين بالشرب ، بل يشربون البحار وألسنتهم علىٰ صدورهم متدلية من شدة العطش ، من الحب والعشق .

ثم سألني : كيف خرجتَ من بحر الحب؟ فقلت له : خرجت من بحر الحب إلىٰ بحر العشق ، ومن بحر العشق إلىٰ بحر الهيام ، والهيام لا يعرفه إلا من ذاقه .

۞ وقيل لأبي يزيد يوماً : إن فلاناً يقول : إنه الغوث ، فقال :

"الولاة كثيرون وأمير المؤمنين واحد" .

وأقول : الدعاة كثيرون وأمير المؤمنين واحد .

هذا بعض ما ورد من كلام سيدنا أبي يزيد البسطامي قدس سره .

ولقد سئل أبو علي الجرجاني رضي الله عنه عن الكلام المنقول عن أبي يزيد مما لا يفهم ، فقال : « يسلم له حاله ومقاله ، ومن أراد أن يرتقي مقام أبي يزيد فليجاهد نفسه كما جاهد أبو يزيد نفسه ، فهناك يفهم كلام أبي يزيد » .

وفاته :

توفي رحمه الله تعالى سنة إحدى وستين ومائتين من الهجرة ، عن ثلاثة وسبعين عاماً .

ثم انتقل السر الشريف بعده إلى سيدنا أبي الحسن الخرقاني رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما عنا ، آباء لنا موصلين وعارفين ومرشدين .



٧ - سيدنا الشيخ أبو الحسن الخرقاني

نُعت بالخرقاني نسبة إلىٰ بلده خرقان في بلاد فارس .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

كان انتساب شيخنا في التصوف إلىٰ سيدنا أبي يزيد البسطامي عن طريق الروح ؛ لهذا نقول : إنه أويسي الانتساب .

وقد بشر به أبو يزيد قدس سره قبل وفاته . حيث يروىٰ أن الشيخ أبا يزيد خرج يوماً مع أصحابه إلىٰ الصحراء ، وفي أثناء سيره حدث له حال عظيم بلغ منه ما بلغ ، واندهش منه أصحابه لما رأوا أنه غاب عن الوجود وبقي فترة في هذا الحال ، فلما رجع إلىٰ نفسه سألوه عن سبب هذا الحال فقال : جاءتني نفس عجيبة من خرقان كالنفس التي جاءت للنبي ﷺ من قبل اليمن - يعني أويساً القرني - ، وهذه النفس تبشرني بظهور رجل من كبار الأولياء . فسألوه عن اسمه ، فقال : اسمه أبو الحسن ، وذكر صفته وطوله ، ومقاماته وطريقته ، وأنه يكون أعلىٰ منه مقاماً وباعاً .

وبعد وفاة أبي يزيد بسنتين ، جاء رجل من خرقان إلىٰ زاوية أبي يزيد ، فسأله أصحاب أبي يزيد عن اسمه ، فقال : أبو الحسن الخرقاني ، فنظروا إليه فوجدوه الذي وصفه لهم أبو يزيد قبل سنتين . فعند ذلك ذكروا له أن الشيخ بشّر به ، وأنه يكون من مريديه ، فقال أبو الحسن : إني رأيت أبا يزيد في المنام وقد أخبرني بمثل ذلك .

ثم ذهب أبو الحسن إلىٰ تربة أبي يزيد وأخذ الطريقة من روحانيته .

وصار يتردد كل صباح إلى مقام أبي يزيد ، ويبقى واقفاً مع الحضور إلى وقت الضحى ، ويتلقى منه العلوم والمعارف الإلهية .

ولقد جاء مرة للزيارة كالعادة ، فوجد الثلج قد ملأ المكان وغطى المقام تماماً ، فغُمَّ لذلك وعزم على الانصراف ، فسمع صوتاً من القبر مِن قِبَل الشيخ يقول : أنْ أقبل إلينا يا أبا الحسن ، أقبل . فجعل أبو الحسن يفتح طريقه في الثلج ، وحصل له في هذه المرة ترقياً عجيباً إلى مراتب عالية ، بسبب صبره على البرد أمام شيخه الذي يأخذ عن روحه .

وهنا ناحية أحب أن تُعرف ، وهي أن الأرواح العالية على صلة مع أحبابها وإن كانت في العالم الثاني ، وذلك بأن تتصل روح الحي بروح من هو في البرزخ اتصالاً لائقاً ، ويقع التخاطب الروحاني بين المفيد والمستفيد ، ويخلق الله عزَّ وجلَّ للروح المستفيدة علماً ضرورياً بما تلقيه الروح المفيدة ، وهذا كله إذا كان المستفيد تام الصفاء وجاهزاً للتحمل .

وهذه طبيعة في عالم الأرواح ، ففي عصرنا يحضّرون روح فلان وفلان عن طريق كلمات ، فمن باب أَوْلى أن أهل الله تلتقي أرواحهم .

وهذا عالم يحتاج إلى صفاء مرآة ، إلى نور البصيرة ، وإلى البقاء بعد الفناء .

من كلامه ومآثره :

❁ قال رحمه الله تعالى :

"إن الوارث المحمدي هو شخص يكون مقتدياً بفعله بالنبي ﷺ ، ومتّبعاً لآثاره عليه الصلاة والسلام ، لا مَن يُسوِّد وجه الورق

- يقصد الكتابة والمؤلفات -" .

وأقول : الوارث هو الذي يكون دائماً مع النبيﷺ في كل أفعاله وأقواله حضراً وسفراً . أمّا أن يدّعي أنه وارث ويشرب بيده اليسرىٰ أو يحلق لحيته ، فالوارث أعلىٰ بكثير .

* وقال قدس سره :

"أنا منذ أربعين عاماً علىٰ حال واحد لا أرىٰ في قلبي سواه" .

وهذه مرتبة رفيعة جداً لا تكون إلا لكبار العارفين ، وتعني أنه ثابت في مقامه .

* وقال رحمه الله تعالىٰ :

"تريد نفسي منذ أربعين سنة شربة من الماء البارد واللبن الحامض فلم أعطها إلىٰ الآن" .

وأقول : الأعلىٰ من هذا ألا تريد .

* وقال قدس سره :

"إن العلماء والعباد كثيرون في الدنيا ، لكن ينبغي أن يكونوا من الذين يمسون ويصبحون بما يرضيه تعالىٰ" .

* وقال قدس الله سره العزيز :

"إنَّ أنور القلوب قلب لا يكون فيه سوىٰ الله تعالىٰ . وأفضل الأعمال عمل لا يكون فيه فكر رؤية المخلوقين . وأطيب الرزق ما يكون بسعيك . وأفضل الرفقاء من يكون عيشه بالله تعالىٰ ، إذا ذكر ذكّرك ، وإذا صمت ذكّرك" .

❁ وقال رحمه الله تعالىٰ ينقل عن الشبلي :

"إذا قيل لي : اختر ، أختار ألا أختار" .

وأقول : إن مقام التسليم هو أعلىٰ مقام ، لا خيار ولا اختيار .

❁ ويُروىٰ أنه قال يوماً لأصحابه يسألهم : ما أفضل الأشياء؟ قالوا : السماع من الشيخ أَوْلىٰ ، قال :

"القلب الذي مليء بذكر الله تعالىٰ" .

وهنا تصبح الكائنات كلها الملك والملكوت بين يديه ، ولكنه لو التفت إلىٰ واحدة لخر من السماء ؛ لأنه التفت إلىٰ غير الله . كما يحصل مع بعض العارفين في بداية طريقهم ، يرىٰ الكنوز أمامه فلا يلتفت إليها إلا إذا أُذن له ، يرىٰ أشياء غريبة عجيبة في الكائنات ، فعليه أن يعرض عنها وأن يقول : شعارنا (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) .

❁ وسئل قدس سره يوماً عن التصوف فقال :

"الصوفي لا يكون صوفياً بالثوب المرقع ، ولا بالسجادة ، ولا بإجراء الرسوم والعادات (كالعمة الكبيرة ، والمسبحة في الرقبة ، ولبس الصوف) . بل الصوفي من كان فانياً عن وجوده في عالم الشهادة ، بحيث ذاب ذوباناً كاملاً في الحضرة الإلهية" .

❁ وقال أيضاً :

"إن الصوفي لا يحتاج إلىٰ الشمس في النهار ، ولا يحتاج إلىٰ النجوم والقمر في الليل ، بل هو عدم محض لا يحتاج إلىٰ الوجود لاستغراقه دائماً في بحر الشهود ، ومن كان مستغرقاً في بحر الشهود كان بغنىٰ عن هذه الأمور" .

❁ وقد سئل رحمه الله تعالىٰ : من أين يعرف الإنسان نفسه أنه غافل

أم يقظان؟ فأجاب قائلاً :

"اليقظان هو من إذا ذكر الله تبارك وتعالىٰ ذكره بكله مِن فرقه إلىٰ كل ذرة من جسمه مع خشيته تعالىٰ" .

* وسئل قدس سره : من يجوز أن يتكلم في الفناء والبقاء؟ فقال :

"هو ذاك إنسان علقوه بشعرة واحدة في الهواء ، وجاءت ريح شديدة بحيث تقلع الأشجار ، وتهدم الجدار ، وتكدر البحار ، وتعكر المياه ، وتحرك الجبال والأحجار ، ولا تقدر أن تحركه من مكانه قيد شبر" .

يعني بهذا الكلام أنه لا يترك ما هو فيه وإن عظمت المصيبة وعمت الحوادث .

والذي يصل إلىٰ ذلك هو صاحب المقام ، فهو الثابت الذي يؤخذ عنه ويستفاد منه . أما صاحب الحال فهو غير مستقر؛ لأن الحال يأتي ويذهب ، فلا يستطيع أن يأخذ عنه غيره .

وقد قلنا ولا زلنا نقول : بدايتنا نهاية غيرنا ، والمقام عندنا أساس ، بدون مقام الإنسان كأنه يقف في الهواء وكذا صاحب الحال ، أما صاحب المقام فهو أرسخ من الجبال ، مهما جاءت الزوابع فهو ثابت ، وهذا الذي يفيد .

لذا نحن ننصح إخواننا أن لا تكون لهم صلة بأي مجذوب ؛ لأن المجذوب ليس له مقام بل هو متردد عند حاله . والمريد إذا اتصل بالمجذوب نخشىٰ عليه من الجذب ، وأن تؤثر عليه روح المجذوب فيه ، حيث المجذوب تُرىٰ له كرامات أكثر من العارف ، لكن العارف أسمىٰ من هذا الكلام .

وفاته :

توفي قدس سره سنة خمس وعشرين وأربعمائة من الهجرة ، وله من الكرامات الكثير .

ثم انتقل السر الشريف بعده إلى سيدنا أبي علي الفارمدي قدس الله سرهما العزيز .



٨ - سيدنا الشيخ أبو علي الفارمدي

نسبه :

هو الفضل بن محمد الطوسي ، نسبة إلىٰ بلـدة طوس ، وأعتقد هـي من أعمال إيران من جهة روسيا .

كنيته أبو علي ، وفارمدي هي نسبة إلىٰ بلدة فارمد في فارس .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

كـان قـدس سـره عالمـاً شـافعي المذهـب ، قـرأ علـىٰ الشـيخ الغـزالي الكبير[1] ، وأخذ عنه علم الشريعة من فقه وحديث وغير ذلك . وأخـذ كذلـك عن الشيخ عثمان الصابوني .

أما علم الحقيقة فأخذه عن أبي القاسم الجرجاني[2] ، وعـن القشـيري صاحب الرسالة القشيرية .

ولقـد اشـتغل سـيدنا أبـو علـي بعلـم الشـريعة امتثـالاً لأمـر شـيخه القشيري ، ولا زال يشتغل به أربع سنين حتىٰ كان يضع الريشة في الـدواة فتخرج بيضاء ، فذكر ذلك لشيخه فقال له : هـذه إشـارة بـأنْ قـف واذهـب

---

(١) هو أخو الشيخ أبي حامد الغزالي .

(٢) هو واحد من مشايخ الطريق ، غير أنه لم يُذكر كثيراً . لكن الأظهر أنه كان صديقاً له أكثر منه شيخاً ، علماً أن أبا علي أخذ وتأثر بالجرجاني حيث كان أكبر منـه وأصلـع منه في البدايـة ، ثم تجاوزه بعد ذلك .

للعمل بالعلم اللدني ، ثم أتته بعدها الفيوضات الربانية . لأن العلم اللدني إما أن يأتي فيوضاً على القلب من قبل المولى ، قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥] . أو عن طريق الشيخ ، أو عن طريق الحضرة النبوية الشريفة مباشرة .

فيقول عن نفسه رحمه الله تعالى : استولى عليَّ مدة المجاهدة يوماً عند الأستاذ القشيري حال لم أكن معه شيئاً مذكوراً ، فذكرتُ ذلك لشيخي فقال : يا أبا علي ، ذوقي ليس أعلى من هذا ، فهو مقام أرفع من مقامي ، ووصلتَ إلى ما هو أرفع من مستواي .

فيقول أبو علي : فلم أزل متشوقاً إلى شيخ يوصلني إلى أعلى من هذا مدة مديدة ، وذلك الحال يزيد عليَّ . وكنت سمعت بالشيخ أبي القاسم الجرجاني ، فتوجهت إلى طوس ولم أكن أعرف محله . فلما وصلت البلدة سألت عنه ، فوجدته في المجلس مع جماعة من مريديه ، فصليت ركعتين تحية المسجد ، ثم جلست في ناحية أمامه وكنت أظن أنه لا يراني ، وتلاميذه كثر فاختفيت في زاوية ، فسمعته يقول : أقبل أبا علي ، فلم أرد عليه مظنة أنه يخاطب أحد تلاميذه بنفس اسمي . ثم قال : يا أبا علي الفارمدي ، أقبل عليّ . فلم أرد عليه وظننت أنه يخاطب تلاميذه ، فقال لي مريدوه : إن الشيخ يعرفك فقم إليه . فقمت وجلست أمامه وكان مطبقاً رأسه ، فرفعه وقال : تعال يا أبا علي ، فسلمت عليه فذكرت له أحوالي ، فقال : نعم بارك الله لك في بدايتك ، هذه البداية التي فوق مستوى سيد الطائفة صاحب الرسالة القشيرية التي تكلم فيها جميع السادة الصوفية . وأكمل : نِعْمَتْ بدايتك فإنك الآن واصل إلى أول درجة في السلوك .

ثم بشرني بالوصول إلىٰ درجة علية ، فقلت في نفسي : هذا أستاذي . فأقمت عنده ، وبعدها أمرني بأنواع الرياضات من ترويض النفس والمجاهدات مدة مديدة .

بعض مناقبه وفضائله :

كان شيخنا عالماً عارفاً صمدانياً متضلعاً بمذهب السلف ، ذا خبرة بمناهج الخلف والفقه بكامله .

أصبح شيخاً لعصره ، منفرداً بطرق في التذكير لم يُسبق إليها في التهذيب ، وعباراته وحسن تأديبه للمريدين .

وقد تتلمذ علىٰ يده الكثير ، منهم حجة الإسلام صاحب الإحياء أبو حامد الغزالي ، وكان دائماً يمدحه .

وكان رحمه الله تعالىٰ مليح استعاراته ، دقيق إشاراته ، وكانت ألفاظه رقيقة مهذبة ، تؤثر دائماً في قلوب وآذان السامعين .

لهذا إذا دخلتَ علىٰ مجلسه رأيته روضة من رياض الجنة ، فكان يستولي علىٰ القلوب ويؤثر عليها بوعظه .

وقد عقد له الشيخ أبو القاسم الجرجاني علىٰ ابنته وزوّجه إياها من بين مريديه[1] ، وهذه مزية عظيمة .

ومن كلامه المأثور يقول أبو حامد الغزالي قدس سره :

---

(١) وقد حصل ذلك أيضاً مع الشيخ أبي الخير الميداني ، حيث زوّجه الشيخ عيسىٰ الكردي ابنته ، وكنت أراه يحترمها ويشاورها في كثير من الأمور .

لقد سمعت الشيخ أبا علي الفارمدي يحدث عن شيخه أبي القاسم الجرجاني فيقول : **"التسع والتسعون اسماً تصير أوصافاً للسالك وهو بعد لم يصل"** .

وفاته :

توفي قدس سره سنة سبع وسبعين وأربعمائة من الهجرة الشريفة .

ثم انتقل سر الطريقة العلية بعده إلى سيدنا يوسف الهمداني قدس سره .



٩- سيدنا الشيخ يوسف الهمداني

هو خليفة سيدنا أبي علي الفارمدي ، وقد استلم في زمانه ووقته .

مولده ونشأته العلمية :

ولد قدس سره سنة أربعين وأربعمائة من الهجرة .

ولما بلغ الثامنة من عمره سافر إلى بغداد ، وتفقه على يد الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، وقرأ عليه (التنبيه) الذي هو أصل من أصول الكتب الشافعية .

ثم تابع طلبه للعلم حتى بلغ درجة الكمال في علم النظر .

قرأ القرآن والفقه والحديث والأحكام ، وتبحر في علوم التوحيد ، وسافر في طلب العلم إلى بخارى وأصفهان ، وأخذ العلم عن مشايخ منهم : أبو عبدالله الجويهي ، وحسن السماني ، وأبو علي الفارمدي .

وقد انتفع به خلق كثير في بغداد ومرو وأصفهان وخراسان وسمرقند ، واستلم المشيخة ، وتخرج من تحت يديه الكثير من العلماء العاملين . فكان بعد ذلك واعظاً ومطلوباً في بلاد العراق ، وخراسان ، وخوارزم ، وبلاد ما وراء النهر .

وقد أقام مدة تزيد عن السنتين في جبل زر .

ولقد التقى الشيخُ عبد القادر الجيلاني[1] بشيخنا وأخذ عنه ، حيث كان الشيخ عبد القادر يدرس في المدرسة النظامية في بغداد .

---

(١) الشيخ عبد القادر هو الذي قال للخضر عليه السلام عندما كان في مجلسه : يا خضر ، إن كنت موسوياً فأنا محمدي ، وإن قلت لسيدنا موسى : إنك لن تستطيع معي صبراً ، فأنت لن تستطيع معي صبراً .

بعض كراماته :

أحب أن أضع بين يديك أخي القارئ بعض كرامات شيخنا ؛ لنكون على دراية بأحواله ، وأنه كان صاحب زمانه ووقته .

فلقد وصل شيخنا إلى درجة كان يظهر متى شاء أمام الناس ويغيب متى شاء ، فيجلس معهم ويكلمهم في الوعظ والدين ثم يختفي وهكذا .

وهناك قصة مشهورة ذكرها العلماء ، وقد أثبتت كرامة كبيرة للشيخ يوسف الهمداني .

فيقول ابن عصرون : كنت أدرس في المدرسة النظامية في بغداد ، وتصادقت مع ابن السقا وعبدالقادر الجيلاني في شبابه . وكنا نحب زيارة الصالحين ، فسمعنا بالغوث الشيخ يوسف الهمداني ، فقصدنا زيارته نحن الثلاثة .

وفي الطريق قال ابن السقا : لأسألنه سؤالاً لا يعرف جوابه ، وقلت : لأسألنه سؤالاً وأنتظر الجواب ، وقال عبد القادر : حاشا لله إنما أزوره لأتبرك به ، ولم يكن معنا أحد .

وسرنا حتى وصلنا إلى زاويته وجلسنا ننتظر ، فظهر من بيننا وبدأ الحديثَ مع ابن السقا فقال : ويحك يا فلان ، قلتَ إنك تسألني مسألة تريد أن تعجزني بها ، مسألتك كذا وجوابها كذا . ثم قال : كأني أرى نار الكفر تشتعل بين عينيك .

ثم التفت الشيخ يوسف إليّ وقال : أما أنت فقلت ستسألني سؤالاً وتنتظر الجواب ، فسؤالك كذا وجوابه كذا ، كأني أراك وقد أتتك الدنيا بحذافيرها .

ثم التفت إلى الشيخ عبدالقادر وقال : أما أنت يا عبدالقادر فمرحباً بك ، فإنك أتيت لتتبرك بنا فأهلاً وسهلاً . وبشّره بأمور وقال : كأني أراك قد جلست على كرسيك في بغداد وقلت : قدمي هذه على رقبة كل ولي لله تعالى .

ومضت الأيام ، أمّا ابن السقا فقد تعمق في علم الفقه والحديث والتوحيد والجدل حتىٰ برق نجمه ، وقرّبه الخليفة وأرسله إلىٰ ملك الروم بطلب منه ؛ ليثبت له بأن الإسلام هو دين الله ، وأن باقي الأديان محرّفة .

فجلس ابن السقا مع الأحبار والرهبان وناقشهم وجادلهم ، وأثبت لهم خلال أيام بأن الإسلام هو الدين الصحيح ، واقتنع الجميع بذلك . ثم قام لينطلق من قصر الملك ، فرأىٰ ابنة الملك فوقع حبها في قلبه ، فطلب من الملك أن يزوجها منه فرفض ، ومع الإصرار قال له الملك : أزوجك علىٰ أن تتنصّر . فتنصّر بعد أن أثبت بأن الإسلام هو الدين الصحيح ، وتزوج ابنة الملك فترة ، ثم مرض وأُلقي في الطريق العام .

يقول بعض معاصريه : مررت به في القسطنطينية وهو ملقىٰ علىٰ الطريق ، فقلت له : يا فلان ، ماذا تحفظ من القرآن؟ قال : لا أحفظ من القرآن شيئاً . ثم يقول الشخص : فرجعت إليه وهو يعاني الموت فحولته للقبلة ، فلما عدت وجدته قد مات ووجهته لغير القبلة .

وهذا حكم من أساء الظن بالشيخ ، وقلّل الأدب مع أهل الله ولو في الباطن ، فقد سُلب منه القرآن وكلمة التوحيد .

أمّا ابن عصرون فيقول : رجعت إلىٰ دمشق واستلمت القضاء ، وأتتني الدنيا كما كان قول الشيخ تماماً .

وأما الشيخ عبدالقادر ، فإنه بدأ بالشريعة ثم الحقيقة ، وتمسك حتىٰ وصل إلىٰ درجة الغوثية المطلقة أو العظمىٰ ، وجلس علىٰ كرسيه في بغداد ، ثم أخذه الحال وقال : قدمي هذه علىٰ رقبة كل ولي لله تعالىٰ . أي استلم الغوثية الكاملة العامة ، فما من ولي في الأرض إلا وقال : قبلنا ، سوىٰ ولي من بلاد المغرب اعترض علىٰ قوله فطرد من الولاية .

ومن كراماته كذلك يروىٰ أنه كان يتكلم مع الناس في مجلس ، وكان في المجلس فقيهان من أهل الظاهر ، فقالا له : اسكت أنت مبتدع ، فقال لهما الشيخ يوسف : اسكتا أنتما لا عشتما ، فماتا حالاً .

ويروىٰ أنه جاءته امرأة من همدان باكية تقول : يا سيدي ، إن ابني أسره الفرنجة وأخذوه إلىٰ بلادهم ، وليس عندي غيره . وما زالت تبكي أمام الشيخ وهو يقول لها : اصبري واتقي الله ، سيكون بخير إن شاء الله . فلم تصبر وازداد هلعها ، عندها قال : اللهم فك أسر ولدها وعجل فرجه ، ثم قال : يا امرأة ، قومي واذهبي إلىٰ دارك ، فإن ولدك في البيت .

فذهبت المرأة إلىٰ دارها ، وإذ بولدها في الدار والقيود والحديد في يديه ، فتعجبت وسألته : ما قصتك يا ولدي؟ فقال : إنني كنت الساعة في القسطنطينية ، والحرس عليّ والقيود في يدي ، فأتاني شخص فاحتملني وأتىٰ بي هنا كما ترين .

فالكرامات غالباً تظهر علىٰ أيدي العارفين في كثير من المواقف بسبب الحاجة ، وهو لا يريدها ولا يتمناها .

وفاته :

كانت وفاته قدس سره سنة خمس وثلاثين وخمسمائة من الهجرة في مروهوراه ، ودفن في موضع وفاته ، ثم جاء تلميذ من تلاميذه ونقل جثمانه الطاهر إلىٰ مرو شمال العراق ، وقبره يزار الآن ويتبرك به الناس .

وقد خلّف قبل وفاته أربعة ، منهم الذي طال باعه في الطريقة النقشبندية وهو سيدنا عبد الخالق الغجدواني رحمه الله تعالىٰ .



١٠ - سيدنا الشيخ عبد الخالق الغجدواني

هو واضع قواعد وأسس الطريقة النقشبندية العلية ، وله الفضل في ذلك .

نسبه ومولده :

هو من أسرة صالحة مؤمنة ، ينتهي نسبه إلى الإمام مالك بن أنس .

أبوه الشيخ عبدالجميل وكان من كبار الصالحين والعارفين بالله ، ومن كبار علماء الشريعة والحقيقة . كان له الكثير من المناظرات والمباحثات اللدنية مع سيدنا الخضر ، حيث كان دائماً يلتقي معه ، وكانت له صحبة وموادعة . لهذا بشره الخضر بولد صالح قبل ولادته ، وسماه عبد الخالق .

أما أمه فهي بنت ملك من ملوك الروم .

وقد ولد قدس سره في غجدوان ، وهي قرية على بعد ستة فراسخ من بخارى ، وقد نشأ فيها عدد كبير من العلماء .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

كان سيدنا الخضر يمر على شيخنا صاحب سيرتنا دائماً في صباه ، وينظر إليه صباح مساء . وقد اعتنى به كثيراً وقام بتربيته ، فلقنه في صغره الذكر الخفي ، وكيفية النفي والإثبات . وارتضع منه العلوم اللدنية ، وصعد لديه أرقى المقامات السنية . فما بالك بإنسان كان يرضع من ثدي الخضر يوماً بعد يوم؟

ومن قائل يقول : وهل تحتاج إلى علم؟

فالجواب عند السادة النقشبندية : تحتاج لعلم طويل ، وسيأتي معنا

ما يثبت لك ما أقول .

أما علم الشريعة فأخذه عن علماء بخارىٰ وغيرهم .

قال الخواجة[1] عبد الخالق قدس سره :

لما بلغت من العمر اثنتين وعشرين سنة ، فوّضني الخضر عليه السلام إلىٰ الشيخ الكبير العارف الرباني يوسف الهمداني ، ووصاه بتربيتي . فلزمت خدمته ، واستفدت منه حتىٰ رجع الشيخ يوسف إلىٰ خراسان .

وهنا يتبين لنا شدة اعتناء سيدنا الخضر بشيخنا ، حيث نظر يومها إلىٰ شيخ الزمان وصاحب الوقت وهو الشيخ يوسف الهمداني ، فوصاه به وقال له : أوصيك بهذا المريد فإن له شأناً . فكان اعتناؤه به خاصاً أفرده عن كل المريدين .

بعد ذلك اشتغل شيخنا بالرياضات كثيراً ، وقد ستر أحواله عن الغير ، فكان لا يُظهر أموره علىٰ الآخرين .

ونعني بالرياضات تهذيب النفس وتأديبها ، وهذا لا يكون كلاماً . فللنفس أهواء وشهوات وأغراض ، إذا تركتها كانت كما وصفها الإمام البوصيري رحمه الله تعالىٰ :

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ علىٰ حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوىٰ ما تولىٰ يُصْمِ أو يَصِمِ

لهذا فإن النفس عندما خلقها الله تعالىٰ تطاولت ونسيت بأنها مخلوقة عاجزة ضعيفة ، فقال لها تعالىٰ : مَن أنتِ؟ قالت : أنا أنا ، وأنتَ أنتَ .

---

(١) الخواجة هي لفظة فارسية تعني رئيس البيت ، وسيد القوم أو الشريف .

فعاقبها الله بجميع العقوبات وحبسها ، فبقيت على حالها . ثم سلط عليها الجوع ، فعندما جاعت ذلت وذابت ، فسألها : يا نفس ، مَن أنتِ؟ قالت : رباه أنا عبدك الذليل ، وأنت ربي القدير .

فالنفس تطلب الراحة ، لهذا كان شيخنا قدس سره يقابلها بالعكس ، حتى وصلت لمقامات رفيعة .

ومن هذه الرياضات أنه كان في البداية ينزل تحت الماء فيذكر الله كي لا يتنفس ، كي يشتغل قلبه بالنفي والإثبات . وسيأتي معنا إن شاء الله كيف يكون الذكر الخفي ، وكيف يقف الإنسان حارساً على قلبه ، ويمنع إبليس من الدخول إلى سره .

وكان قدس الله لا ينام الليل ، يمضيه واقفاً ساجداً راكعاً ، يتفكر في ملكوت الله ، يجوع يوماً ويومين .

ولما مات الشيخ يوسف الهمداني ، قام الشيخ عبدالخالق مقامه في الدعوة إلى الله ، وقام بنشر الطريقة التي آلت إليه بإجازة من شيخه رسمياً ، وبإشارة من الخضر عليه السلام .

ونشأ على يديه الكثير من المريدين من بلاد فارس والشام ، لهذا تجد في الشام الكثير من الزوايا والتكايا للشيخ عبدالخالق .

ولشيخنا الكثير من المؤلفات ، منها (مقامات الهمداني) .

بعض كراماته :

كان لشيخنا كرامات واضحة ، منها : أنه كان يصلي الصلوات الخمس في مكة أمام الكعبة وهو في غجدوان ثم يرجع . أي كان من أهل الخطوة ، فتطوى له الأرض وتقطع له المسافات الطويلة بلمحة .

وله غيرها الكثير من الكرامات ، ولكن لا أحب لمريدنا أن ينشغل بها عن الحقيقة . فالكرامة ليست بغاية ، بل الهدف أسمىٰ : إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي .

من نصائحه لبعض مريديه :

❁ "يا بني ، اتبع آثار السلف ولازم السنة والجماعة ، واجتنب الصوفية المدعين ، وصلِّ الصلاة بالجماعة علىٰ الدوام بشرط أن لا تقبل شيئاً من وظائف الإمام ، وإياك أن تصحب الملوك أو أبناءهم ، وكن قليل الكلام والطعام والمنام" .

وهذه نواحٍ دقيقة يجب علىٰ المريد أن يطبقها ، ولا بد من العلم لتطبيق ذلك علىٰ النفس .

فيقول : (اتبع آثار السلف) ، ويكون ذلك بقراءة سيرهم . فأنت الآن في القرن الهجري الخامس عشر ، في قمة الحضارة علىٰ زعمهم والرفاهية ، فعش مع السيرة كي تبعث معهم ، ولا تلتفت للناس ، هُم في بحر وأنت في بحر آخر .

وقوله : (اجتنب الصوفية المدعين) ؛ لأن هؤلاء الذين يدعون التصوف هم جهلة ، يريدون كل شيء باسم الإسلام . فإياك منهم فإنهم يذبحون الفضيلة والدين ، يتصيدون الناس كما يروق لهم من أجل أمور شهوانية ودنيوية ، وهم أضر علىٰ الإسلام من نار حامية علىٰ هشيم يابس .

وقوله : (وإياك أن تصحب الملوك أو أبناءهم) ؛ لأن صحبتهم تقسي القلب ، فهي صحبة ترف وكبر . فاجعل علاقتك دائماً مع ملك الملوك .

وقوله : (كن قليل الكلام والطعام والمنام) ؛ لأن كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسي القلب ، وكثرة الطعام تخمل العقل والروح ، وكثرة المنام بُعد عن الذكر والحقيقة .

وفاته :

توفي شيخنا قدس سره في غجدوان ، ودفن فيها .

وكان قبل أن يتوفاه الله تعالى قد اختار أربعة خلفاء ، منهم سيدنا عارف الريوكري قدس سره .



١١ - سيدنا الشيخ عارف الريوكري

هو الخليفة الرابع من خلفاء الخواجة عبدالخالق الغجدواني قدس الله سرهما .

مولده :

ولد قدس سره في قرية ريوكر ، وهي قرية من قرىٰ بخارىٰ تبعد عنها ستة فراسخ ، وبعيدة عن غجدوان بفرسخ واحد .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

أخذ الطريقة عن شيخه عبدالخالق ، وسلك نهجه ، وتمم الطريق الذي سلكه آباؤه في هذه الطريقة العلية .

بقي خادماً لشيخه حتىٰ أذن له بالإشارة والإرشاد ، وشهد له بالكمال علىٰ رؤوس الأشهاد . فلحق بهمته أسلافَه ، وملأ الآفاق بعلمه ونفحاته ، والأقطار بأعطار بركاته ، وفتح أبصار الأمصار بأسرار فتوحاته ، حتىٰ أصبح قدس سره نور حديقة الحقيقة ، ونور صدقة هذه الطريقة .

وكان قدس سره يُقصد بالرحلة من كل مكان ؛ لهذا يعتبر من أعظم رجال النفحات والرشحات الزكية بعلمي الشريعة والحقيقة .

وكان علىٰ غاية رفيعة بإشاراته وعباراته ، وارتبط به المريدون ، ووصل علىٰ يديه الكثير من العارفين . حتىٰ أصبح بعصره قطب الرجال ، ومرجع الزهاد ، وتاج الورع والورعين .

وفاته :

بقي شيخنا قدس سره على سنن مشايخه حتى توفي في قرية ريوكـر ، سنة تسـع وأربعين وستمائة من الهجرة .

ثم تلقى سر هذه النسبة الشريفة تلميذه الشيخ محمود الإنجيري قـدس الله سره العزيز .



١٢ - سيدنا الشيخ محمود الإنجيري الفغنوي

مولده ونشأته وانتسابه للطريقة :

ولد قدس سره في قرية إنجير ، وهي من أعمال بخارىٰ .

قام مقام الشيخ عارف ، وانقطع لهداية الخلق إلىٰ الحق ، وامتاز بأنه عدل إلىٰ الذكر الجهري في مرض أستاذه وبحضرته ، فقال أستاذه : هذا وقت قد أشاروا به إليَّ قبل - ويقصد بذلك مشايخه قبله - .

يروىٰ أن الشيخ محمود قدس الله سره العزيز حضر يوماً مجلساً بحضرة الشمس الحلواني والشيخ حافظ الدين ، وهما من كبار علماء أهل الشريعة . فسألاه عن الذكر الجهري ، فقال لهما : أقصد به إيقاظ النائم ، وتنبيه الغافل ؛ ليتوجه إلىٰ الله ويستقيم علىٰ الطريق ، ويخلص التوبة لله تعالىٰ التي هي مفتاح الخير وآية السعادة . فقالا له : إن نيتك صحيحة تجيز لك ذلك .

وفي فضل شيخنا يروىٰ أن الشيخ علياً الرامتني قدس سره قال : لقي رجل من أهل الولاية الكبار الخضر عليه السلام ، فقال له : أخبرني عمن هو في هذا الزمان علىٰ جادة الشريعة المطهرة وطريق الاستقامة حتىٰ أتبعه ، فقال له : هو الشيخ محمود الإنجيري الفغنوي .

بعض كراماته :

هي كثيرة منها :

ذُكر أنه كان شيخ بزمانه يعرف بالشيخ دُهقان ، وهو من خلفاء أولياء البخاري الكبير . وقد سأل ربه وهو يحتضر في السكرات الأخيرة

أن يغيثه بولي من أوليائه حتىٰ يهون عليه تعالىٰ سكرات الموت ، ولأن الغوث إذا حضر طرد إبليس . فإذا بالشيخ محمود يدخل عليه ، وبقي عنده حتىٰ التحق بالرفيق الأعلىٰ ، ولقنه عند الوفاة الشهادتين والذكر ، ومات علىٰ ذلك .

وفاته :

توفي الشيخ محمود سنة خمس وثمانين وستمائة من الهجرة النبوية الشريفة .

وقيل : لما قربت وفاته أحال أمر الخلافة إلىٰ حضرة العزيزان الشيخ علي الرامتني ، وفوّض سائر الأصحاب إليه . وبذلك تلقىٰ الحقيقة والطريقة ، وحمل راية الولاية والصلاح والذكر والطريقة .



١٣ - سيدنا الشيخ علي الرامتني العزيزان

مولده ونشأته العلمية :

ولد شيخنا في قرية رامتين ، وهي على بعد فرسخين من بخارى .

اشتهر بالعزيزان ، وهذا لقبه في السلسلة العلية .

نشأ واشتغل بتحصيل العلوم الشرعية في بخارى ونواحي تلك الديار التي كانت قد ازدهرت في علوم الشريعة والحقيقة حتى تضلع منها .

وقد اتصل شيخنا قدس سره بالشيخ محمود الإنجيري ، فحصل له من المقامات العلية والفتوحات المتوالية ما ملأ به الخافِقَيْن إمداداً ، والفريقَيْن إرشاداً .

بعض كراماته :

للشيخ العزيزان كرامات كثيرة منها :

كان قد وقع بينه وبين السيد آتي - وهو من كبار الأغنياء والأثرياء في زمانه - برودة ، وكان آتي قد أساء للشيخ العزيزان باللفظ والفعل ، فعلم الشيخ بذلك فقسا قلبه عليه .

واتفق أنْ جاء الأتراك وأغاروا على البلدة ، فنهبوا وقتلوا وأسروا كثيراً من أهلها ، ومن جملة من أُسر ولد السيد آتي الذي كان يحبه كثيراً .
فعلم آتي أن ابنه قد أُسر بسبب إساءته للشيخ ، فجاء إليه وقبَّل يديه ، ورجع عن موقفه وتاب واعتذر منه ، فقَبِلَ الشيخ اعتذاره .

ثم قال آتي : لأُكَفِّرَنَّ عن ذنوبي الماضية ، فدعا الشيخَ ومن حضر

من العلماء إلىٰ داره ، وفهم الشيخ ذلك . فحضر الشيخ وتلاميذه ، فوُضع الطعام ، فقال الشيخ العزيزان : لا أمد يدي إلىٰ الطعام حتىٰ يحضر ولده ويأكل معنا . ثم سكت والجماعة ينظرون إليه ، فإذا بالباب يُطرق ، ففتحوا فوجدوا الولد قد جاء وعليه أثر الأسر والضرب ، وكان بين البلدين مسافة عشرة أيام . ففزع الناس كلهم وأقبلوا عليه يسألونه عن كيفية خلاصه من الأسر ووصوله إليهم ، فقال : لا علم لي غير أني كنت في هذا الوقت عند الترك أسيراً ، ثم وجدتُني عندكم . فقاموا وقبّلوا يد الشيخ ، وازداد أبوه حباً وتقرباً للشيخ .

ويروىٰ أن مريداً له قدس سره بعد أن أخلص له وكان في خدمته أكثر من عشرين سنة في كل الأوقات ، طلب أن يكون علىٰ صورته وسيرته تماماً ، فقال له الشيخ : هذه كبيرة . فلما أصرّ المريد ، أخذ الشيخ بيده وأدخله الخلوة ، ثم توجّه إليه بكله . فخرج المريد بعد ساعة وقد صار كالشيخ صورة وسيرة ، لا يقدر أحد أن يميز بينهما . وعاش المريد بعدها أربعين يوماً ، ثم توفي بعد ذلك .

وهذه كرامة عظيمة للشيخ .

من كلامه ومآثره :

❁ روي عنه قدس سره أنه قال :

"اعملوا ولا تحسبوا ، واعترفوا بالتقصير ، واستأنفوا العمل دائماً" .

وتحت كل كلمة معان جسام ، فأقول :

(اعملوا ولا تحسبوا) : أي لا تحسب علىٰ ربك ، لأنه يُخشىٰ عليك إذا رأيت عملك كثيراً أن تغتر به . فلا تحاول أن تنظر إلىٰ ذلك ،

وعليك أن تشغل جميع وقتك بطاعة الله ؛ لأنه ما خلقك إلا لذلك .

(واعترفوا دائماً بالتقصير) : أي اعترف بحقيقة أنك مقصر ، بأنك أنت الضعيف والعاجز والمسكين ، وأنّ الذي يأتيك من الفتوحات هو من فضل الله عليك لا بعملك .

(واستأنفوا العمل دائماً) : أي لا تغتر بعمل قدمته ، حاول كل يوم أن تقوم بعمل مثله وأفضل حتىٰ تلقى الله عز وجل .

❁ وقال قدس سره :

"اجتهد بالحضور علىٰ الدوام لا سيما وقت الطعام وعند الكلام" .

وهذه الحالات التي يغفل المرء بها عن ربه ، فكن حاضراً مع ربك علىٰ الدوام .

❁ وقال قدس سره :

"علىٰ المرشد أن يعلم أولاً استعداد السالك وقابليته ، ثم يلقنه الذكر ويربيه علىٰ حسب ذلك . فإن مَثَل من يتصدىٰ لتربية المريدين وإرشادهم كمثل من يربي الطائر ، فكما ينبغي له أن يعلم قدر تحمل حوصلته فيطعمه علىٰ حسبها ، كذلك المرشد يعطي المريد علىٰ حسب تحمله للذكر ، وإلا خشي عليه من رد الفعل" .

❁ وقال قدس سره :

"ينبغي للسالك أن يكثر من المجاهدات والرياضات ؛ ليُحَصِّل الأحوال والمقامات" .

وهناك طريق آخر وهو أن يسعىٰ في تحصيل محبة قلوب الأولياء له ، فإن قلوب هذه الطائفة العلية موارد الحكم الإلهية ، فيدرك بذلك نصيباً ،

وتظهر أحوالهم على قلبه .

❁ وقد سأله الشيخ بدر الدين الميداني قدس سره فقال : إن الله قد أمرنا بكثرة الذكر بقوله عز وجل : ﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤١] ، فهل المراد ذكر اللسان أم ذكر القلب؟ فأجاب :

"للمبتدئ ذكر اللسان ، وللمنتهي ذكر القلب" .

لأن المبتدئ يذكر الله تعالى بالتكليف والتأمل ، وأما المنتهي فإنَّ القلب إذا تأثر بالذكر صارت جميع أجزائه ذاكرة ، فحينئذ يتحقق بالذكر الكثير ، فتكون أعمال يوم واحد منه بمقدار عمل سنة من غيره .

❁ وسأله الشيخ سيف الدين وكان من أجل العلماء في زمانه : لِمَ تجهر بالذكر؟ فقال :

"لقد اتفق العلماء على جواز الجهر بالذكر عند النَّفَس الأخير من الحياة ؛ لقوله ﷺ : « لَقِّنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله »[1]" .

فالسادة الصوفية يعتبرون أنَّ كل نَفَس يخرج بأنه قد مات وهو النَّفَس الأخير ، فهو يدخل تحت قوله ﷺ ، وشريعتنا قائمة على تطبيق السنة الشريفة .

❁ ويروى عن الشيخ العزيزان أنه قال : أتى الخضر يوماً لزيارة الشيخ عبدالخالق الغجدواني ، فأحضر له الشيخ رغيفين من شعير فما أكل ، فقال له الشيخ : كُلْ يا سيدي فإنه حلال ، هو من جهدي وتعبي . فقال الخضر : نعم إنه حلال غير أن عاجنه لم يكن طاهراً ، فلا يجوز لي أن آكله .

---

(١) رواه الجماعة إلا البخاري من طرق مختلفة .

فلو وقفتَ وسبحتَ بذهنك إلىٰ هذه المرتبة أو طرتَ حولها ، لنظرتَ أين أنت وأين هذا المقال ، وأقول هنا : راكب الحمار غير راكب الحصان ، وفرق بين الماشي والراكب .

وفاته :

بقي الشيخ العزيزان علىٰ هذه السيرة حتىٰ توفي سنة إحدىٰ وعشرين وسبعمائة من الهجرة ، عن عمر قدره مائة وثلاثون عاماً قدس الله سره العزيز .

وقد خلّف قبل موته تلميذه الشيخ محمد بابا السماسي قدس سره ، والذي تلقىٰ سر الطريقة من بعده .



١٤ - سيدنا الشيخ محمد بابا السماسي

مولده :

ولد قدس سره في قرية سماس من قرىٰ رامتين ، علىٰ بعد ثلاثة فراسخ من بخارىٰ .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

اشتغل منذ صغره بجميع العلوم النقلية والعقلية ، حتىٰ أصبح علامة في كل فن وعلم ، وفاق أقرانه في العلوم بعد أن قرأها علىٰ أربابها .

وبعد أن وصل القمة في علم الشريعة ، صحب سيدَنا العزيزان ، ودأب علىٰ المجاهدات والرياضات التي سار عليها السلف . ولا زال علىٰ هذا الحال والمنوال حتىٰ امتاز علىٰ جميع إخوانه في الطريقة ، في الفتوحات والفيوضات والكرامات . وهذا الذي جعل شيخه العزيزان بعد أن رأىٰ منه الانطلاق المطلق ، والاتباع الصادق ، والاقتداء المستمر ، والعطاء غير المحدود ، أن يتخذه خليفة له ، وأمر أصحابه بطاعته مدة حياته .

فالشيخ يراقب دائماً تصرفات المريد طيلة أيام سلوكه ، وكلما كان اتباعه أفضل وتسليمه أكثر ، كلما كان عطاؤه أغزر .

ولما قربت وفاة الخواجة العزيزان ، اختار شيخَنا صاحبَ سيرتنا من بين الأصحاب لمقام الإرشاد ، وفوّض إليه أمر الخلافة والنيابة ، وأمر باقي الأصحاب بمتابعته . فكان مرجعاً وقبلة للذاكرين والزاهدين ، والعاملين علىٰ طريق الآخرة .

وكان للخواجة محمد بابا السماسي بستان صغير في قريته ، كان دائماً يباشر إصلاحه بنفسه ، ويقوم بالأعمال الزراعية بيده .

يروىٰ أنه كان كلما وضع المنشار علىٰ غصن من الأغصان يغلبه الحال ويغيب عن نفسه ، فيسقط المنشار من يده ، ويبقىٰ في غيبته زماناً . وذلك لأن الغصن المقطوع يعني أنه مات ، وهنا تأخذ التجليات معه مأخذها ، ويفكر كيف يعامل الغصن الميت ، ويخشىٰ علىٰ نفسه أن يكون قد وصل إلىٰ ما وصل إليه الغصن ، فمن شدة خوفه يغمىٰ عليه .

وفاته :

توفي قدس سره في بلده سماس سنة خمس وخمسين وسبعمائة من الهجرة الشريفة ، ودفن فيها . ومقامه يزار ، وتقضىٰ حوائج زائريه ببركته .

وكان له أربعة خلفاء ، أبرزهم الخواجة الأمير كُلال قدس سره .



١٥ - سيدنا الشيخ الأمير كُلال

مولده :

ولد قدس سره في قرية سوخار ، وهي على بعد فرسخين من بخارى .

وسمي بكُلال لأنه كان يصنع الكيزان[١] ويعالجها .

كانت أمه تقول : كنت وأنا حامل به إذا تناولت لقمة من الطعام مشتبهاً بها أجد ألمها في نفسي ، فلما تكرر ذلك التزمت طريق الاحتياط في طعامي ، فلم أجد بعد ذلك شيئاً .

وتقول : كنت أرجو أن يجعل الله الخير والبركة في هذا الحمل . وقد حقق الله تعالى رجاءها .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

يروى أن شيخنا قدس سره لما بلغ سن الشباب كان مولعاً بفن المصارعة الذي نعرفه في زماننا ، وكان يجتمع عليه أرباب هذا الفن والشجاعة وأولوا المعارك ، فكان مصارعاً صرع أبناء زمانه جسمياً ، ووصل إلى حد كان يتحدى كل من ادعى أنه أقوى منه ، ويصارعه ويغلبه .

وقد مر به الشيخ محمد بابا السماسي قدس سره ذات يوم هو وأصحابه وهو في معركة مع خصومه ، فوقف الشيخ ينظر إليه وهو يصارع الرجال ويغلبهم . فتعجب أصحابه وقال بعضهم في نفسه : كيف يقف الشيخ عند

---

(١) أي الفخار .

أهل الغفلة؟ فكاشفه الشيخ وقال له : إن بين هؤلاء رجلاً ينتفع ببركة صحبته كثير من الناس ، وينالون أرفع الدرجات باتباعه ، فأنا أريد صيده . واستغرب المريد كيف بوقفة يستطيع أن يقنص هذا الرجل .

ثم بعد وقفة طويلة ونظر ، سار الشيخ السماسي وسار معه أصحابه . وفي هذه الأثناء حانت من الخواجة كُلال نظرة إلىٰ الشيخ السماسي وهو ينظر إليه ، فانجذب في الحال قلبه ، فترك المصارعة وتبعه إلىٰ بيته ، فأدخله الشيخ معه البيت . ثم بعد المجالسة لقّنه الذكر ، وعلمه أصول الطريقة العلية ، وقال له : أنت الآن ولدي[1] .

---

(١) وهذه الأحوال تكون كثيرة ، إذ يُؤمر الشيخ أن يذهب إلىٰ مكان معين ، لتكون سبباً في انجذاب ذلك العبد إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ ، وتكون العناية قد وافقت ذلك .

وقد حصل ذلك مع شيخ من شيوخنا ، إذ أمر تلميذه أن يسير معه ، ثم قال له : أغمض عينيك ، ثم خطا خطوة فانتقل بها من بلاد الشام إلىٰ بلاد الهند . فرأىٰ مزرعة كبيرة من القصب الكبير ، فقطع منها قصباً وحزم حزمتين ، وسار مع الشيخ وهو في قمة الأدب لا يسأله إلىٰ أين ، حتىٰ وصلا إلىٰ مجتمع هنود يرقصون ، فطلب منه الشيخ أن يأتي بزعيم القبيلة الذي يجلس علىٰ مكان مرتفع يطل عليهم . ولم يناقشه المريد لأنه كان ممتثلاً له ، فذهب وجر زعيمَ القبيلة من يده كما طلب منه الشيخ ، وأبعداه عن القبيلة . ثم أمر بضربه ، فلا زال يضربه حتىٰ كسّر القصب عليه ، وزعيم القبيلة لا يتكلم . ثم لقنه الشيخ الشهادتين والتوبة ، وغسّله التغسيل الروحي ، ثم مد له سجادة وأوقفه علىٰ الماء وقال له : سر بدلاً بإذن الله ، ومشىٰ الزعيم علىٰ وجه الماء حتىٰ غاب عن الأنظار . فسأل التلميذ شيخه دون اعتراض : ألستُ أنا أَوْلىٰ بهذا المقام يا سيدي؟ فقال : هكذا أُمرنا .

وكما حدث كذلك مع السيدة رابعة حيث دخل علىٰ بيتها رجل ليسرق وهي واقفة تصلي ، فلم يجد شيئاً فأراد الخروج ، فوجد الأبواب كلها مغلقة ، وأصبح المكان كله جدراناً ، فعلم أنه وقف أمام أمر عظيم ، فسلم أمره لله وانتظر حتىٰ سلمت السيدة رابعة من صلاتها ، وكانت علىٰ مرتبة رفيعة . فطلبت منه أن يُحضر الماء وأن يتوضأ ، ثم أن يصلي ركعتين ، ثم قالت : أُخرج بدلاً بإذن الله ، فدخل بيتها لصاً وخرج بدلاً من الأبدال الأربعين .
=

فلازم صحبة الشيخ عشرين سنة مع الاشتغال بالذكر والفكر ، والعبادة والخلوة ، حتىٰ لم يره أحد في سوق أو غيره طيلة هذه المدة .

وقد ترك الرياضة الجسمية وعمل بالرياضة الروحية حتىٰ هذب نفسه ، وأراحها من شوائب الدنيا ، وأصبح فوق مستوىٰ ذاته .

وبعد ذلك انطلق بأمر من الشيخ لتوجيه المريدين وطلاب العلم ، فكانت كلمته ونظرته تؤثر في قلوب مريديه ، وهكذا كثر تلاميذه في علم الشريعة وعلم الحقيقة .

وكان قدس سره يجيء كل يوم إثنين وخميس من سوخار إلىٰ سماس لزيارة شيخه ، وكان بينهما قرابة خمسة أميال .

ولم يزل قدس سره يشتغل في طريق القوم حتىٰ بلغ أعلىٰ الدرجات ،

ويروىٰ أيضاً أن شيخنا بدر الدين ركب عربة يوماً وذهب إلىٰ شارع البدوي في دمشق ، وهذا الشارع كان معروفاً أنه مليء بالمومسات . فذهب الشيخ وسار معه تلميذان كبيران مع العلم أنه كان يومها أبا العلماء في سوريا ، وتخرّج علىٰ يديه العلماء والأولياء ، فكان ذهابه إلىٰ ذلك الشارع ملفتاً للأنظار كثيراً . فلما وصل استأذن ودخل علىٰ فتاة من اللاتي ذكرتهن ، فجلس ثم وضع لها كيساً من المال وخرج والتلميذان ينظران . بعدها خرجت الفتاة معلنة توبتها ودموعها تغسلها ، ولا زالت تجالس الشيخ حتىٰ مات . وقد عاشت أكثر من مائة عام وهي تربي النساء علىٰ الأخلاق والقيم .

كما روي عن شيخنا أبي يزيد البسطامي أنه مر ومعه تلاميذه ، فرأىٰ جماعة تقف علىٰ باب ، فسأل فقيل : إنهم يدخلون من أجل الفاحشة . فوقف معهم بعمته وجبته حتىٰ جاء دوره ، فدخل علىٰ فتاة جميلة فقالت : هيّا ، قال : أبداً لا أريد ، قالت : ماذا تريد إذاً؟ قال : أريد منك فقط أن تلبسي هذه الجبة وهذا جزاؤك ، وقدم لها المال بيده . فلبستها ثم أخذها وسار ، وكان قد توجه إلىٰ الله وقال : اللهم إني قد أصلحت ظاهرها ، فعليك أن تصلح يا ربنا باطنها . وحصل لها من التجليات والفتوحات الكثير ، وعُرفت من الصالحات بعد ذلك .

وكل ذلك يبقىٰ أمامك لتعرف سر الجذبة ، وكيف يكون سر نظر العارف بالله إلىٰ مَن أُمر .

وعلت نسبته على أمثاله ، وفاق أقرانه ، وأصبحت كراماته في عصره أكثر من أن تذكر .

فهؤلاء كانوا على غاية من الأدب والأخلاق ، وبحسن ظنهم بربهم وبشيوخهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه من هذه الفتوحات ، وهذا العطاء الروحي غير المحدود .

وفاته :

توفي رحمه الله تعالى صبيحة يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى لسنة اثنتين وسبعين وسبعمائة من الهجرة .

خلفاؤه كثر ، وأعظم من سرى به سر هذه النسبة هو سيدنا الشيخ محمد بهاء الدين شاه نقشبند قدس الله سره العزيز .



١٦ - سيدنا الشيخ محمد بهاء الدين شاه نقشبند الأويسي البخاري

نسبه ومولده :

يصل نسبه الشريف إلىٰ الإمام الحسين ﷺ ، حيث قيل : إنَّ جده من أهل البيت ، نشأ في بلاد فارس وأنجب هناك فكان من ذريته .

ولد قدس سره في شهر محرم سنة سبع عشرة وسبعمائة من الهجرة في بلدة قصر العارفان ، وهي قرية تبعد عن بخارىٰ قليلاً .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

لقد تلقىٰ شيخنا سر هذه الطريقة العلية في الظاهر من سيدنا الشيخ محمد بابا السماسي ، ثم من بعده صَحِبَ الشيخ الأمير كلال قدس الله أسرارهم .

وفي الحقيقة كان شيخنا أويسياً ، حيث ربته روحانية مولانا الشيخ عبدالخالق الغجدواني قدس سره . وهناك حادثة مطولة تدل علىٰ ذلك ، كيف كان أثناء جذبته ، وكيف رعته روحانية الشيخ عبدالخالق .

يقول الخواجة شاه[١] نقشبند قدس سره :

لما توفي حضرة الشيخ محمد بابا السماسي حظيت بصحبة السيد الأمير كلال ، وأخبرني بأن حضرة الشيخ محمد بابا السماسي أوصاه بي

---

(١) الشاه كلمة فارسية تعني الملك ، أي وصل القمة في مرتبته .

وقال : لا تَألُ جهداً في تربية ولدي محمد بهاء الدين ، ولا في الشفقة عليه ، ولستَ مني في حل إن قصّرتَ في ذلك . فقال الأمير كلال : إنْ أنا قصرتُ في هذه الوصية فلستُ برجل[1] .

ولقد وفى الأمير كلال قدس سره بوعده ، فكان شيخنا تحت رعايته ونظره ، وكان نِعْمَ المربي له .

ثم يقول شيخنا صاحب سيرتنا :

خرجت يوماً في حال غلبة الجذبة والغيبة هائماً على وجهي ، أذهب كل مذهب ، ولطالما تجرّحت قدماي من الشوك . حتى إذا دنا الليل جذبتني زيارة السيد الأمير كلال قدس سره ، وذلك في فصل الشتاء وشدة البرد ، وليس على ظهري إلا فروة عتيقة . فلما وصلت إلى منزله وجدته جالساً بين أصحابه ، فحينما أبصرني سأل عني فعرّفوه بي ، فقال : أخرجوه من هذا المنزل .

وهنا قصد الشيخ الاختبار وتهذيب النفس لتصلح بعد ذلك للقيام بأداء الواجبات لهذه الطريقة ؛ لأن طريقنا لا يصلح إلا لإنسان ذاب ذوباناً تاماً في حب الله ، وأصبحت التربة التي يطأ عليها أغلى عليه من نفسه .

ومن هنا نأخذ الإشارة بأن الشيخ دائماً يقوم باختبار تلاميذه بأمور كثيرة ، وقد تكون هذه الأمور غالية ، فعلى التلميذ أن يكون في غاية الانتباه مع شيخه ، وإنْ حاول الشيخ الانبساط أمام المريد والنزول إلى مقامه .

---

(١) أي برجل على قدم الرجال الكبار .

ثم يقول شيخنا عن نفسه :

فلما خرجتُ أوشكتْ أن تنفــر نفسـي وتطغـىٰ ، وتجْـذِبَ مـني عنـان الانقياد والتسليم ، ولكن تداركتني عناية الله ورحمته وقلت : إني لأتحمل كل مذلة في ابتغاء مرضات الله تعالىٰ ، وهــذا هـو البـاب فـلا مندوحـة لي عنه . فوضعت رأس التواضع والانكسار علىٰ عتبة العز ، وقلت لنفســي : إني لا أرفع عن هذه العتبة رأسي ولو حصل لي ما حصـل . ذلـك والثلـج ينزل شيئاً فشيئاً علي ، والهواء شديد البرودة جداً .

ولم أزل كذلك حتىٰ قرب وقت الفجر ، فخرج السيد كلال قدس سـره من أجل صلاة الفجر ، فوقع قدمه الشريف علـىٰ رأسـي ، فلمـا أحـس بـي رفع رأسي عن العتبة ، وأدخلني المنزل وبشـرني ، وقـال لي : يـا ولـدي ، إن ثوب السعادة علىٰ قدر ذاتك وتحملك لهذه الصعاب .

ومن قائل يقول : كيف استطاع بدرجــة الحـرارة هـذه ، والثلـج يـنزل ، وفي الليل؟ أقول : تحمل من أجل الوصول ، فهو الباب الـذي يوصلـه إلىٰ الله تعالىٰ ، ولا بد للإنسان إذا أراد ليلىٰ من أن يدفع مهرها ، ومهرها غال .

وكأنما بقصته يعلمنا كيف يجب علىٰ المريـد الـذي يريـد الآخـرة بصـدق أن يتحمل من الشيخ ، عليه أن يذوب بذاته عن وجوده ، وأن يخلع كـبره ومكانتـه الاجتماعية والمالية والقبلية علىٰ البــاب ، وأن يدخـل متجـرداً مـن ذاتـه ، ويصـبر علىٰ ذلك لا أقول ساعة بل الوقت مفتوح حتىٰ يفتح الله له باب العرفان والقرب .

وإن الشيخ كلال هنا ما كان قاسي القلب ، إنما كــان المربـي الموجـه والمعلم الذي يضع الدواء علىٰ الـداء ، فكـان لا بـد ممـا لا بـد منـه وهـو العلاج الحاسم .

والشيخ إذا ابتسم في وجه المريد فذلك ليجذبه ، ولا يعني أن المريد وصل بل هو يحتاج إلىٰ تهذيبات كثيرة ، وبحاجة لتواضع كبير ولتنازلات إذا أراد الحقيقة وأراد الوصال ، وهذا ما كنا نجده كثيراً من مشايخنا .

يقول الشيخ شاه نقشبند قدس سره :

كنت في بخارىٰ والسيد كلال في قرية نسف ، فوجدتُ في نفسي رغبة لزيارته فَسِرْتُ ، فلما وصلت إلىٰ مقامه وسلمت عليه قال لي : يا بني ، لقد جئتَ بالوقت المناسب ، فإنا هيّأنا المطبخ ونريد من يحتطب لنا . فشكرته علىٰ هذه الإشارة وذهبت إلىٰ البر ، وأتيت بالحطب أحمله علىٰ ظهري وفيه الشوك الذي كان يدخل جسدي ، وأنا أنشد :

جَمالُ كعبةِ مَقصودي يُنشِّطني   فالشَّوْكُ كالخَزِّ عندي حين أحمله

ثم جعل السيد كلال يُخرج من قدمي الشوك بيده الشريفة تواضعاً منه ، ويمسح ما أصابهما من الجراح ، ويمدني بفيوضاته الوافرة وألطافه الباهرة .

وهكذا المريد يجد الصعاب أمامه كلها كأنها ألذ شيء علىٰ جسده وروحه .

من كلامه ومآثره :

❁ قال قدس الله سره العزيز :

"لا ينفع سالكَ هذا الطريق إلا البذل[1] ، والمسكنة[2] ، وعلو الهمة[3] . فإني ما أدخلوني إلا من هذا الباب ، وما نلت ما نلت إلا من ذلك" .

---

(١) أي الإنفاق ، والبذل هنا أعم لا بالمال بل بكل شيء .

(٢) أي التواضع .

(٣) أي الثبات علىٰ ذلك .

❁ وقال :

"نفي الموجود وعدم رؤية النفس في هذا الطريق هو رأس مال دولة القبول والوصول" .

❁ وقال قدس سره :

"وضعنا القدم في هذا الطريق ونحن مائتا شخص ، فاجتهدت أن أسبق الجميع فأدركتني عناية الله تعالىٰ ، فسبقتهم ووصلت إلىٰ المقصود قبلهم" .

ولم يقل ذلك افتخاراً ، إنما قالها مِنّة وتفضلاً من الله تعالىٰ عليه الذي وفقه لذلك ، وعلىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم .

❁ وقال قدس سره :

"الإسلام ، والانقياد للأحكام ، ورعاية التقوىٰ ، والعمل بالعزيمة ، والمجانبة عن الرخص بقدر الطاقة ، هن موارد النور والصفاء والرحمة ، ووسائط الوصول إلىٰ درجات الولاية" .

فقد وصل أولياء الله إلىٰ المنازل والمقامات الشريفة بالتحقق بهذه الصفات .

❁ وقال قدس سره :

"بُعْدُ الخلقِ عن الحق إنما هو بسبب اختيارهم البعدَ عن الحق ، وتحملهم زيادة الأوزار بمشيئتهم ، وإلا فليس لتربية الفيض الإلهي ونزوله بتقصير" .

فالله ليس بعاجز ولا بمقصر ، وليس لفضل الله وفيضه ومدده من تقصير . وإنما التقصير منك أيها المريد ، فكلما أعطيتَ أكثر أخذتَ من الفيوضات أكثر .

❁ وقال شيخنا :

"كل من أراد نفسه فما أراد نفسه ، ومن أراد غيره فقد أراد نفسه" .

فالذي يتبع نفسه ويتبع شهواته وملذاته ، هذا لا يريد أن ينقذ نفسه ، ولا يريد أن يرفع من شأنها ، ولا يريد أن يصل إلى مراتب الرجال والأبطال ، إنما هذا يريد الخلود للأرض .

وأما الذي يريد غيره فهو المتفاني الذي يريد نفسه ، يقدم الآخرين على ذاته ، فهذا الذي يرفع من نفسه ومن ذاته في حضرة الله تعالى .

❁ وقال قدس سره :

"مرآة كل المشايخ لها جهتان ، ومرآتنا لها ست جهات" .

هنا يبين علو شأنه وهمته العلية ، وأنه وصل بفتوحاته إلى ما لم يصل إليه غالب المشايخ .

❁ وقال قدس سره :

"لهذه الطريقة ثلاثة آداب : أدب مع الله ﷻ ، وأدب مع رسول الله ﷺ ، وأدب مع الشيخ" .

وشرح ذلك :

١- أدب مع الله ﷻ : وهو أن يكون المريد في الظاهر والباطن مستكملاً للعبودية بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، مُعرضاً عن سوى الله بالكلية .

٢- أدب مع رسول الله ﷺ : وهو أن يستغرق المريد في مقام ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ويراعي ذلك في جميع أحواله وجوباً . وأن ينظر المريد للسنة بأنها فرض ، وأن يعلم جيداً أنه ﷺ هو الواسطة بين الحق والخلق ، وهو الذي اختاره الله لذلك ، وأن كل شيء تحت

تصرف أمره العالي ﷺ .

وهي مرتبة لا توازيها مرتبة أخرىٰ ، ولا بد للمريد أن يقف أمام هـذا الأدب طويلاً ؛ ليعرف مرتبة النبي ﷺ ليكون باراً به .

٣- أدب مع الشيخ : وهو لازم للطالبين ؛ لأن المشايخ هم سبب في متابعته ﷺ، فحبهم من حبه ، وسبب في وصولهم إلىٰ مقام الدعوة إلىٰ الحق .

فينبغي للمريد حضوراً أو غيبة أن يكون مراعياً لأحوالهم ، متقيداً بهم ، متمسكاً بأذيالهم وبدون حدود ، فهم باب الوصول إلىٰ رسول الله ﷺ .

❁ وقال قدس سره :

"كل من سلّم نفسه للحق تعالىٰ وفوّض أمره إليه ، فالتجاؤه لغيره شرك يُتسامح به بحق العامة دون الخاصة" .

ويعني بذلك أن معاملة العامة تختلف كثيراً عن معاملة الخاصة ، فإذا أسلمت أمرك للحق وكنت علىٰ باب حضرته ، فالالتفات إلىٰ غيره شرك ، ولو خطر ببالك فإنك وقعت في أمر عظيم . فالعامة لو غفلوا بذلك يعذرون ، أما الكبار فلا .

❁ وقال قدس سره :

"إن طريقنا من النوادر وهي العروة الوثقىٰ ، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية ، واقتفاء آثار الصحابة الكرام ومَن بعدهم" .

فطريقنا هو الاتباع .

❁ وقال قدس سره :

"ينبغي للمتوكل ألا يرىٰ نفسه متوكلاً ، وأن يخفي توكله في الكسب" .

فالكسب لا يتنافىٰ مع التوكل ، أما أن نجلس في البيت وننتظر الصدقة من الناس فلا . ولو تركنا الكسب وتركنا الدنيا لأخذها أعداؤنا ، فنقوم بكل المجالات بإخلاص مع قمة التوكل علىٰ الله تعالىٰ .

۞ وقال قدس سره :

"إنْ نظرنا إلىٰ عيب الصاحب بقينا بلا صاحب ، فإنَّ أحداً لا يخلو من الصفات البشرية" .

۞ وقال قدس سره يوماً لأصحابه : ما الفقير؟ فما أجابه أحد ، فقال : **"هو مَن باطنه حرب وظاهره سلم" .**

وأقول : هو دائماً باطنه حرب علىٰ نفسه ، ثورة علىٰ ذاته ، انطلاق بدون حدود في تهذيب شخصه . وأما ظاهره فتسليم تام لأحكام الله وأمور الشريعة .

وفاته :

توفي قدس سره في ليلة الإثنين الموافق الثالث من شهر ربيع الأول لسنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة من الهجرة ، وعمره أربع وسبعون سنة .

وقد دفن في بستانه ، وبُني عليه قبة عظيمة . ثم حُوِّلَ البستان إلىٰ مسجد كبير يجمع الآلاف من المصلين ، وقبره في طرفه .

ثم انتقل السر الشريف بعده إلىٰ سيدنا الشيخ علاء الدين العطار قدس الله سره .



١٧ - سيدنا الشيخ علاء الدين العطار

نسبه ومولده :

هو محمد بن محمد علاء الدين البخاري الخوارزمي العطار .

ولد في بلدة من ناحية خوارزم .

نشأته العلمية :

اشتغل شيخنا بعد وفاة أبيه بتحصيل العلم في واحدة من مدارس بخارىٰ .

وبخارىٰ يومها كانت قبلة العلوم ، ومرجع العلماء ، وموطن الفضلاء في تلك القصبة والديار . كانت عامرة بالعلماء في جميع أنواع الفنون العلمية ، وكانت مشعلاً من مشاعل فنون الشريعة والحقيقة . لذا كان كل من أراد أن يسلك درب العلم والفضيلة ، يتوجه إلىٰ بخارىٰ ليجلس أمام علمائها ، ويرشف من مواعينهم الروحانية النورانية[١] .

فعكف علىٰ علم الشريعة ، ولا زال علىٰ هذا المنوال يقرأ علوم الفقه

---

(١) ولله در بخارىٰ كم أنجبت لنا من الرجال ، وكم أعطت لنا من الأبطال . فلقد نبغ في هذه البلاد رجال أعطوا للإسلام الكثير ، وحفظوا علىٰ المسلمين جسم الشريعة وروحها . نذكر منهم الإمام المشهور البخاري الذي حفظ علينا أقوىٰ الأحاديث بعد كتاب الله تعالىٰ ، كما وإن الكثير من أهل الذكر كانوا من هذا البلد الطيب . قال النبي ﷺ : « لو كان العلم بالثريا لتناوله رجل من فارس » . رواه أحمد وابن حبان عن أبي هريرة ، وروىٰ بنحوه الترمذي والبزار والطبراني وأبو يعلىٰ وأبو نعيم في الحلية بلفظ الإيمان بدل العلم .

والحديث والقرآن حتىٰ توسع في شتىٰ علوم الشريعة وجميع الفنون ، وبلغ منها فوق ما تتعلق به الظنون .

وهذه إشارة إلىٰ كل طالب حقيقة ، وإلىٰ كل من أراد التصوف . فعليه أن يتشرع ؛ لأن الشريعة هي درع الحقيقة وسياجها ، هي الميزان الذي تُعرض عليه جميع الأعمال فيقول : هذا حلال وهذا حرام ، هي الحصن الحصين التي تحمي وتصون ، وهي السيف الذاب عن صاحبه الذي يقاتل ويبعد عنه إبليس .

قال النبي ﷺ : « ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ، ولو اتخذه لعلمه »[1] .

لذا ذكر العلماء بأنه لا بد لطالب العلم من أن يُحصِّلَ الشريعة ليتحقق ، فيتشرع ليحمل السلاح القوي وبعدها يتحقق . فيكون المريد ذا جناحين ، جناح الشريعة وجناح الحقيقة ، فيستطيع أن يتمم سلوكه بسهولة .

ولا تقع المخالفات الشرعية إلا من اثنين :

١- ممن ادعىٰ الوصول إلىٰ الله وهو جاهل بالأمور الشرعية .

٢- أو مَن تشرع ولكن لا يطبق ذلك علىٰ نفسه ، فإبليس كان عالماً وليس بجاهل ، لكنه استهتر بعلمه فنحر نفسه .

ومن هنا أقول : العلم عبارة عن سلاح ذي حدين ، إن لم يكن العالم مطبقاً علمه علىٰ نفسه ، وقاصداً به وجه الله تعالىٰ ، وجعل العلم وسيلة لا غاية ، فإن هذا الإنسان شيطان يمشي علىٰ الأرض ويذبح نفسه بسكين .

---

(١) قال ابن حجر والسخاوي : ليس بثابت ولكن معناه صحيح ، أي لو أراد اتخاذه ولياً لعلمه ثم اتخذه ولياً .

فإياك أن يكون هذا العلم فقط للمناظرة والمجادلة ، وليقال: إنك تعرف . إياك أن تكون من هذا النوع ؛ لأنك لو فعلت لكنت قتلت نفسك . ليكن علمك الظاهري لا سيما الفقه مقصوداً به التطبيق والعمل ، ليكن وسيلة لقربك إلىٰ الله لا وسيلة لقربك من وظيفة . . . أو غيرها . وهذا الطريق هو الذي سلكه آباؤنا ومشايخنا الذين سبقونا قدس الله أسرارهم ونفعنا ببركاتهم .

وبعدُ ، فإن شيخنا بدأ بطلب الشريعة ليحمي اللب ، وبعد أن وصل إلىٰ مراتب عالية التفت إلىٰ طلب الحقيقة ، إلىٰ طلب العلوم السامية ، وقيّد الله له الشيخ شاه نقشبند .

امتدت يد الشيخ شاه نقشبند إلىٰ شيخنا العطار ، وكان يربيه ويعمل علىٰ ترقيته ، حتىٰ يروىٰ أن الشيخ شاه نقشبند قال لزوجته يوماً : إذا بلغت ابنتنا فأخبريني بذلك . فلما بلغت أخبرته ، فتوجه من بلده قصر العارفان إلىٰ بخارىٰ ، إلىٰ المدرسة التي فيها شيخنا علاء الدين العطار . فلما دخل حجرته لم يجد غير حصير ينام عليه ، وآجُرَة يتوسدها ، وإبريق مكسور يتوضأ منه . فلما أبصر الشيخُ العطار شاه نقشبند قام وأكب علىٰ قدميه ، فقبّلهما وجعل رأسه عليهما . فقال له الشيخ شاه نقشبند : إن لي بنتاً قد بلغت اليوم ، والله تبارك وتعالىٰ أمرني أن أنكحك إياها . فقال له الشيخ العطار : إن هذه لسعادتي غير أني لا أملك ما أنفق في ذلك ، وحالي كما تراني . فقال له الشيخ : ما كتب الله من الرزق لكم يأتيكم إن شاء الله ، فلا تفكر في ذلك . ثم عقد له عليها وبنىٰ بها ، وبذلك رأىٰ فضائل كثيرة ، وكفل الله لهما الرزق .

وبعدها كشف الشيخ شاه نقشبند مراقبته للشيخ علاء الدين ، فأخذ بتربيته التربية الصحيحة ، ورقىٰ علىٰ يديه أعلىٰ ترقية إلىٰ أن صار فرداً في بابه من سائر خاصة أصحابه الوارثين .

وقد أمر الشيخ شاه نقشبند شيخنا في حياته بتربية بعض مريديه ، وقال بحقه : إنه خفف عني أثقالي . وهذا دليل علىٰ أنه أصبح أهلاً في حياة شيخه ، علماً أن جميع مريدي الشيخ شاه نقشبند بعد وفاته اعترفوا لشيخنا بالخلافة وعلو الهمة ، واتبعوه وكانوا يسيرون بإشاراته .

ثم قام سيدنا شاه نقشبند بترويضه ترويضاً قاسياً ، فلقد طلب منه في حياته بالكثير من الرياضات . فكان يأخذ الأشياء ويحملها علىٰ رأسه وينزل إلىٰ السوق ليبيعها ، وكان يطلب منه أن يقف أمام دكان عمه من أجل البيع والشراء ، وفي الحقيقة ذاك ليس للبيع بل لترويض النفس وانتصاره عليها . علماً أنه كان من عائلة محافظة ومشهورة ؛ لذا قام أقاربه واحتجوا علىٰ ذلك ، لكن هذا الترويض كان عليه أهون من كل شيء . فهذه النفس تحتاج إلىٰ أن تذل لتعالج ، ولتكون قريبة من حضرة الله عز وجل .

من كلامه ومآثره :

❁ قال الشيخ علاء الدين قدس سره :

"إن لي بعون الله تعالىٰ ثم ببركة شيخنا شاه نقشبند قوة لو توجهت إلىٰ جميع الخلائق لجعلتهم من الواصلين" .

وهذه هي القوة الروحية ، ولا يصل إليها كل واحد .

❁ وقال قدس سره :

"إذا خلا قلب المريد بأمر مرشده عما سوىٰ حب المرشد ، وعما يكون

مانعاً من حبه ، وتمكن من محبته ، فإنه يكون حينئذ قابلاً لورود الفيوضات الإلهية غير المتناهية عليه . فإن القصور لا يكون من الفيوضات ، بل من الطالب" .

❁ وقال الشيخ قدس سره :

"ينبغي للمريد أن يُظهر جميع أحواله للشيخ ، ويتيقن أنه لا ينال المقصود الحقيقي إلا برضائه وحبه . وأنْ يعتقد أنَّ الأبواب كلها مسدودة دونه ظاهراً وباطناً إلا ذاك الباب الذي هو شيخه ، والذي يفديه بكل ما يملك" .

وهذه ناحية على المريد أن يفهمها جيداً .

❁ وقال قدس الله سره :

"آية المريد الكامل أنه مهما كان عنده من علوم وعرفان وهمة عالية في السلوك والمجاهدة ، فإنه لا يجد لها في نفسه أثراً ولا قدراً ، ولا يراها إلا بقدر الذرة بالنسبة إلى ما عند شيخه" .

❁ وقال قدس سره :

"لا ترجى الفائدة إلا لمن يشاهد دائماً قصور أعماله ، ويعد نفسه من الناقصين ، ويلتجئ إلى ألطاف كرم رب العالمين" .

وأقول : لا بد لطالب الحقيقة من أن يكون في قمة التذلل والتواضع والخضوع أمام باب الله ، فإذا لم يفعل فإنه لا يستفيد أبداً .

❁ وقال قدس سره :

"على المريد أن يفوض أموره الدنيوية والأخروية ، كلية أو جزئية لاختيار شيخه وتدبيره ، بحيث لا يكون له أدنى اختيار معه" .

۞ وقال :

"لا بد للشيخ من أن يفحص عن أحوال المريد فيهتم بإصلاحه ، وأن يأمره بما ينفعه في معاشه ومعاده ليُقتدىٰ به بعد ذلك" .

فالشيخ دائماً يختبر مريده بين آونة وأخرىٰ ، يختبره بالنفس ، بالوقت ، بالأولاد ، بكل غال وثمين عليه ؛ لينظر أين وصل مستوىٰ هذا الطالب . فإذا وجده في حالة حسنة تمم له السلوك ، وإذا وجد أمامه عقبات عدّل له من طريقه ، وأشار إليه بما يتناسب مع حاله ومقامه .

وهذه الملاحظات التي تأتي من الشيخ لا بد للمريد من أن يأخذها بقبول وتسليم ، بدون أي اعتراض ولو كان قلبياً ، فإنه يضر المريد بسلوكه ، فاحذر ذلك .

۞ وقال قدس سره : **"اعلم أنه من رافق العلماء حفظ لسانه"** .

وهنا أقول : لا بد لمن يجالس العلماء أن يحفظ لسانه ، ولمن يجالس الأولياء أن يحفظ قلبه ، فما بالك بمن يجالس العلماء والأولياء بآن واحد؟ فلا بد له من أن يحفظ قلبه ولسانه ، وإلا خُشي عليه من أن يقع من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريح إلىٰ مكان سحيق .

لذا قال بعض مشايخ السلسلة : مَن قال لشيخه (لِمَ) سقط من عين الله ، ولم يفلح بعدها أبداً إن قالها بقصد الاعتراض .

۞ وقال قدس سره :

"إياك وإيذاء قلوب الصوفية ، وإغفال آداب مخالطتهم . فإذا أردت صحبتهم فتعلم أولاً آداب الصحبة ، ثم صاحبهم تنتفع بهم ، وإلا فتضر نفسك" .

فكن مع هذه النخبة الصوفية الذين يتفق باطنهم مع ظاهرهم ، وكن مع مشايخك في الأدب الكامل ؛ لتكون مع الوصل ومع النور إن شاء الله . وقد قيل : لا طريق لمن لا أدب له ، وإذا رأىٰ المتأدب نفسه أنه متأدب أخطأ في الأدب .

❁ وقال قدس سره :

"النفع في زيارة قبور المشايخ علىٰ قدر معرفتك بهم" .

فكلما عرفت صاحب القبر أكثر ، كلما انتفعت بزيارته أكثر .

وهذه ناحية حساسة جداً أحب أن يلتفت إليها كل واحد قبل أن يزور ولياً . فالذين يزورون رسول الله ﷺ من المسلمين ليسوا سواء ولا بمرتبة واحدة ، هناك أناس منذ دخولهم المسجد النبوي يرون أنفسهم بين يدي النبي ﷺ ، وهناك أناس يدخلون المسجد ويسلمون وفكرهم في الدنيا ، في البيع والشراء .

ليس كل من زار الحمىٰ سمع الندا ... من ضمنه أهلاً بهذا الزائر

❁ وقال قدس سره :

"القرب من قبور الصالحين له تأثير كبير ، ومع ذلك فالتوجه إلىٰ أرواحهم المقدسة أولىٰ منه" .

إذ لا يتوقف تأثيره علىٰ القرب والبعد بدليل قوله ﷺ : « وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم »[1] .

وشهود صور أهل القبور المثالية عند زيارتهم لا يوازن معرفة صفاتهم ، وإن معرفتها أقوىٰ فائدة .

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وصحّحه النووي . وروىٰ بنحوه الطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن عن الحسن بن علي قال : [حيثما كنتم فصلوا عليّ ، فإن صلاتكم تبلغني] ، كما رواه ابن أبي عاصم في مصنفه وعبد الرزاق .

❁ وقال قدس سره :

"طريق المراقبة أعلىٰ وأرفع من طريق النفي والإثبات ، وأقرب إلىٰ الجذبة الإلهية والثبات" .

فالنفي والإثبات هو نفي الألوهية عن غير الله وإثباتها لحضرته عز وجل .

والمراقبة هي أن يجلس المريد ويراقب اسم الله في قلبه ، وروحه ، ودمه ، وشعره ، وعينه ، وكل ذرات جسمه . فالذي يعيش مع هذه يكون أقرب من الذي يعيش مع النفي والإثبات .

❁ وقال قدس الله سره :

"يصل السالك بدوام المراقبة إلىٰ مرتبة الوزارة الباطنية ، والتصرف في الملك والملكوت ، والاطلاع علىٰ الخواطر وتنوير الباطن ، والنظر إليه بعين الموهبة" .

فالوزارة الباطنية هي مرتبة ليست بهينة ، هي مرتبة دقيقة جداً وعالية ، بحيث يصبح المُلك والملكوت بين يدي السالك ، ثم يكون بعد ذلك من أهل الاطلاع علىٰ الخواطر وما يمر علىٰ القلب .

والمجذوب حالاً يفضح الناس ، أما العارف بالله فينظر إليك ، فإنْ وجد فيك خيراً ستره وحمد الله علىٰ نظافة سريرتك ، وإنْ وجد غير ذلك توجه إلىٰ قلبك ليغسل لك هذا الخاطر ، وستره وتجاهل وعاملك معاملة عادية .

❁ وقال قدس سره :

"مِن التمكن من المراقبة تحصل الجمعية وقبول القلوب ، ويسمىٰ جمعاً وقبولاً" .

والمقصود بمرتبة الجمع - وهي مرتبة عالية - أن يكون مع الله ومع الناس في آن واحد دون أن يتشوش أو أن يظهر عليه شيء يغير حاله .

وأما مرتبة القبول فإنها توصل العبد إلىٰ الله ﷻ .

وهذه من اصطلاحات ورموز السادة الصوفية .

۞ وقال قدس سره :

"سكوت المريد ينبغي أن لا يكون خالياً عن ثلاثة أشياء : حفظ الخواطر ، والتوجه إلىٰ الذكر ، ومشاهدة أحوال القلب" .

ولتفصيل ذلك أقول :

(حفظ الخواطر) أي أن تقف حارساً علىٰ باب قلبك .

(والتوجه إلىٰ الذكر) بحيث تسمع قلبَك وكلك يذكر الله تعالىٰ .

(ومشاهدة أحوال القلب) أي النظر إلىٰ أحواله وتقلبه .

۞ وقال قدس الله سره العزيز :

"صحبة أهل الله ﷻ تزيد في العقل وتنوِّره" .

وفاته :

ابتدأ مرضه قدس سره في اليوم الثاني من شهر رجب ، وانتقل إلىٰ ربه ليلة الأربعاء لعشرين خلت منه سنة اثنتين وثمانمائة من الهجرة .

وكان الشيخ مدة مرضه الأخير يتكلم بالوصايا تارة فيوصي مريديه بأمور الدين والدنيا ، وبالحكم تارة أخرىٰ ، وتارة بالدعاء للخلق ، وتارة بالرضا والمحبة والوجد والوصل والتسليم والابتهال .

وقد قال قبل مرضه الأخير بخمسة عشر يوماً : إني اخترت السفر

إلىٰ الآخرة ولا أرجع عنه .

وقد دفن قدس سره في جفانيان وهي قرية من أعمال بخارىٰ ، وقبره يزار ويتبرك به الصالحون .

ويروىٰ أنَّ بعض السادة الصوفية رآه في المنام بعد وفاته بأربعين يوماً يقول : إن ما أعطانيه الحق تعالىٰ هو فوق اعتقادي واعتقاد المخلصين .

ولقد خلف الكثير من أجلاء المريدين ، ومن أفضلهم الشيخ يعقوب الجرخي ، والعلامة الشريف الجرجاني وهو خليفته الثاني . قدس الله تعالىٰ أسرارهم ، وأمطر ثراهم برحمته .



١٨ - سيدنا الشيخ يعقوب الجرخي

هو صاحب الشيخ شاه نقشبند ، وبعد أن تعمق في علوم الشريعة أُمر بمصاحبة الشيخ علاء الدين العطار ، وكان بعد ذلك من خيار أصحابه .

مولده :

ولد قدس سره في بلدة جرخ ، وهي قرية من قرىٰ غزنين بين قندهار وكابل من بلاد ما وراء النهر .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

لقد رحل قدس سره في طلب العلم إلىٰ هراة ، وكانت يومها مركزاً كبيراً لتعليم الشريعة .

ثم سافر إلىٰ مصر لتلقي العلوم العقلية والشرعية ، فجلس فيها فترة طويلة من الزمن علىٰ علمائها ، ومن أعظمهم علامة عصره الشيخ شهاب الدين الشيرواني الشافعي . فأخذ طرفاً كبيراً من العلم ، وقرأ القرآن والفقه وعلم الأحكام ، وتعمق في علوم الشريعة .

ولا زال يقرأ حتىٰ بلغ درجات رفيعة في شتىٰ المجالات ، ثم عاد إلىٰ وطنه يعلم قومه أمور الشريعة .

وبعد ذلك صحب حضرة شاه نقشبند قدس سره لتحصيل العلوم اللدنية .

يقول شيخنا قدس سره :

كنت مخلصاً في محبة حضرة الشيخ شاه نقشبند قبل التشرف بلقائه .

فلما فرغت من تحصيل العلم ، وأُجزت بالفتوىٰ من قبل مشايخي ، وعزمت علىٰ الانصراف إلىٰ الوطن ، أتيت لزيارته قدس الله سره العزيز ، وقلت له مع الخضوع : أرجو دوام ملاحظتي بإكسير أنظاركم يا سيدي ، فقال : جئتني وقت التوجه إلىٰ الوطن؟ فقلت له : إني محبك وخادمك ، قال : ولِمَ؟ قلت : لأنك عظيم الشأن مقبول عندي وعند الناس ، فقال : ائتني بدليل أحسن منه فإنه يُحتمل أن يكون هذا القبول شيطانياً ، فقلت : ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ : « ومن أحبه الله ألقىٰ محبته علىٰ قلوب عباده »[1] ، فتبسم الشيخ وقال : نحن العزيزان .

فلما سمعت هذه الكلمة من فمه دهشت وهزت كياني ؛ لأني كنت رأيت في المنام قبل ذلك بشهر قائلاً يقول لي : كن مريد العزيزان وتابعاً له ، فتذكرت ذلك وكنت قد نسيتها .

ثم استأذنته وقلت له : اترك عندي شيئاً إذا رأيتُه تذكرتك ، فقال : خذ كوفيتي هذه واحفظها ، فإذا نظرتَ إليها تذكرتني ، ومتىٰ تذكرتني وجدتني .

ثم انطلق الشيخ يعقوب إلىٰ بلده ، وكلما أراد شيخَه نظر للكوفية فرآه . فكان دائماً يجده أمامه ، ويستقي من روحه ، ويستشف بإرشاده ، ويستنير بإشاراته . وكان كل يوم يتعلم ويستفيد منه ، ولم يغتر بعلمه الظاهري ؛ لأن علم الشريعة إذا لم يكن مقروناً بعلم الحقيقة فإنه يكون حجة علىٰ صاحبه .

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس في كتابه [نوادر الأصول في أحاديث الرسول] .

فعلماء الورق غير علماء النور ، والعالم العامل هو الذي يتمثل بعلم الشريعة والحقيقة ، ولا بد للمرء أن يكون ناهلاً من هذين المنهلين ، والنبي ﷺ خير أسوة لنا حيث كان يُعَلِّمُ عملياً ما يريد الله ؛ ليسهل التطبيق عند الآخرين .

وكثرة المصاحبة تعطي معان كثيرة ، وتبين الكثير من النقاط التي على المريد أن يُصلح بها نفسه ، ويهذب من ذاته .

ثم يقول صاحب سيرتنا قدس سره : لما جد بي الطلب للتحقق في هذا المشرب النقشبندي ، جعلت أختلف إلى سيدي شاه نقشبند كثيراً ، وهو يزداد رحمة بي وشفقة عليّ ، وأنا أزداد اعتقاداً به وإخلاصاً له ، حتى تيقنت أنه ليس أحد أفضل منه في وقته ، حتى أخذت هذه المعرفة والعلوم اللدنية .

وهنا ناحية أحب أن أبيّنها ، وهي أن الشيخ طبيب نفساني روحاني ، فهناك من الطلاب والمريدين من يحتاج إلى تلطف للغاية وإلى الشفقة فيبتسم الشيخ في وجهه ، وهناك من الطلاب من يعامَل معاملة خاصة . فأنواع المعاملات تتنوع بحسب استعداد المريد ، فهم ليسوا بمقام واحد ، وكل مريد يُعطى الدواء الذي يستسيغه وينفعه .

كما أحب أن أشير إلى ناحية أخرى وهي قول الشيخ : (حتى تيقنت أنه ليس أحد أفضل منه في وقته) . وهذه ناحية ضرورية للتلميذ ، فإذا لم يعتقد لم يستفد . إذا رأى شيخه وانتقاه من بين علماء عصره وزمانه ، فعليه أن يعتقد أنه هو العالم العارف الوارث ، وهو الذي يستفاد منه روحياً وشرعياً ، وهو الذي يستطيع أن يملأ قلبه بالأنوار والتجليات ، وتأتيه

الفتوحات والفيوضات ، وكلٌ على حسب استعداده . أما إذا تردد فإنه أوقف نفسه عن السلوك .

والتردد يأتي عن طريق إبليس والنفس والجبلة . فإبليس يريد أن يؤخر كل واحد منا ، فيدخل على المريد بأمور كثيرة ، فإذا أصغى لها أضرته كثيراً . يأتي في ساعات الصفاء ، وفي ساعات الأنوار والتجليات والعطاء الكامل ، ويدخل عليه معترضاً كقاطع طريق ، فإذا وقف عنده المريد قطع عليه هذه الأنوار .

وإبليس لا يبدأ بالنبي ﷺ ، بل يبدأ بالشيخ وينتهي بالله . خطوة على خطوة بتخطيط مدروس ، وهذا التخطيط هو الذي يقطع على المريد ويقصم ظهره .

وهذا الشيء حاصل بين المريدين ، يكون المريد مسترسلاً في صفائه وفي تجلياته ، وهنا يأتي إبليس فجأة ليخرجه من هذه الجنة ، ليضع له التفاحة التي وضعها لسيدنا آدم عليه السلام .

وهذه الناحية التي يأتي بها إبليس لا تكون مرة واحدة في اليوم ، بل قد تكون كل ساعة ، بل كل دقيقة ، وكلما كثرت معاندتك لإبليس كثر تحديه لك .

فلا بد لنا أن نكون يقظين جداً ، وعارفين لمداخل إبليس قاطع الطريق . حالاً إذا أتاك وخطر لك بخاطر تذكر كلامي واقطع عليه ، ولف كلامه في كيس ثم ألقيه بعد قفله كالقمامة ، فتبقى أنوارك سارية في جميع جسمك إن شاء الله تعالى .

وأنت في معركة ، فإذا ثبتّ على ذلك قصمت ظهره وذبحته بدون

سكين ، فهو جبان يخاف لأن معك الذي هو أقوىٰ ، معك الله سبحانه .

ونعود إلىٰ سيرة شيخنا قدس سره فيقول :

قال لي سيدي شاه نقشبند قدس سره : « ورد في الأَخبار أن العلم علمان : علم القلب ، وذلك العلم النافع علّمه الله الأنبياء والمرسلين . وعلم اللسان ، وذلك علم المجادلة والمناظرة وهو حجة الله علىٰ خلقه . وأرجو الله تعالىٰ أن يكون لك نصيب من علم الحقيقة » .

ثم قال : « ورد في الآثار إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق ، فإنهم جواسيس القلوب يدخلونها وينظرون إلىٰ هممكم » .

ثم قال : « أنا مأمور من جانب الحق تعالىٰ ألا أقبل إلا من يقبله تعالىٰ ، وسأنظر الليلة فإن قَبِلَك تعالىٰ قَبِلْتُك » .

فيقول الخواجة يعقوب : فكانت أثقل علي من جبال الدنيا ، إذ بتُّ خائفاً قلقاً تلك الليلة لا أدري كيف يكون النوم ، هل يُفتح لي باب القبول أم لا؟ ولا زلت علىٰ ذلك حتىٰ الصباح ، فما مضىٰ عليّ من عمري ليلة أشد منها . فلما طلع الفجر ذهبت فصليت خلفه ، فلما انصرف من صلاته قال لي : بارك الله فيك ، لقد قبلك الله فقبلتك . فكانت أحلىٰ لقلبي من أي شيء ، حتىٰ أحلىٰ عليّ من أن أُبَشَّرَ بدخول الجنة .

وبعد ذلك أجلسني الشيخ شاه نقشبند وعدّ عليَّ سلسلة مشايخ هذه الطريقة النيرة حتىٰ وصل إلىٰ حضرة الشيخ عبدالخالق الغجدواني ، ثم لقّنني الوقوف العددي ، كيف أَعُدُّ نَفَسي شهيقاً وزفيراً ، وكيف أكون حاضراً مع الله عند أخذ النَّفَس الحي ، وعند إلقاء النَّفَس الميت . وقال : هذا أول العلم اللدني الذي وصل من سيدنا الخضر عليه السلام

إلىٰ الشيخ عبد الخالق رضي الله تعالىٰ عنه ، وأحب لك أن تذكرها دائماً ، فقد تأخذ من ثمارها ما ينفعك إن شاء الله تعالىٰ .

يقول الخواجة يعقوب : فلم أزل في خدمة شيخي شاه نقشبند وصدق محبته ، ما التفت يوماً إلىٰ غيره ، وما وَقَفَتْ وما نقصت محبته يوماً ، بل كانت تزداد يوماً بعد يوم حتىٰ أذن لي بإرشاد الخلق إلىٰ الله تعالىٰ ، وجعلني خليفة من خلفائه ، وقال لي : إن ذلك سيكون سبباً لمساعدتك في الانطلاق إلىٰ الله .

وفي الحقيقة إن إرشاد الخلق يحتاج إلىٰ الكمل ، وهو يساعده . فكلما خدم الناس وأرشدهم ودلهم علىٰ الحلال والحرام ، كلما ارتفع قدره عند ربه تبارك وتعالىٰ إن كان صادقاً .

لذا استفاد شيخنا كثيراً حتىٰ وصل إلىٰ الغوثية المطلقة ، ووصل إلىٰ درجة من أعلىٰ درجات الولاية في نهاية عمره رحمه الله تعالىٰ .

يقول شيخنا قدس سره : كنت يوماً جالساً ، ففكرت بمكانة شيخي أين هو من القرآن؟ ثم أردت الفأل الحسن ففتحت القرآن ، وإذ خرج معي قوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

ثم يقول : ثم أمرني شيخي شاه نقشبند عند وفاته بصحبة الشيخ علاء الدين العطار في جفانيان ، وقال لي : هو صاحب الوقت الآن وهو شيخ الطريقة . فامتثلت لأمر شيخي ، ولزمت صحبة الشيخ علاء الدين حتىٰ توفاه الله سبحانه .

وهنا أقول لك أيها المريد : فإنْ توفي شيخك ووجدت نفسك لست أهلاً لتكون شيخاً وموجهاً ، فحالاً يجب عليك أن تبحث عن صاحب

الوقت لتكون معه ، ولتستفيد من منهله . أما الذين يقولون غير ذلك فإنهم يتسكعون على موائد الفائدة الحسية ، وهؤلاء لهم أغراض دنيوية يريدون أن يصلوا إليها عن طريق الشيخ .

هناك بعض المتسكعين الجهال على موائد الأولياء والصالحين ليقطعوا على الناس طريقهم ، وهؤلاء لا أقول : قطاع طرق ؛ لأن قاطع الطريق يقف في الطريق ويشهر سلاحه ، يأخذ منك المال ويمشي . لكن هذا يأخذ منك المال والإيمان والوقت ، والوقت من حسابك .

أقول ذلك لكي يكون المريد دائماً على صلة مع أهل المعرفة ومع صاحب الوقت ، ليستفيد ويتعلم ويرشف الأنوار ، حتى يرضى الله عنه والنبي والصالحون . فالمشايخ الصادقون الكمل كلهم يقومون بمهمة واحدة ، يتممون الطريق ، والعطاء مستمر من الله ، ولم تغلق أبواب ربنا .

وفاته :

بعد وفاة الشيخ العطار ، أقام الشيخ يعقوب في بلدة هُلغتو يقيم معالم الإرشاد الحسي والمعنوي ، الشرعي واللدني ، حتى توفاه الله ﷻ سنة إحدى وخمسين وثمانمائة من الهجرة .

وقد خلّف أصحاباً كثيرين ، ومن جملة خلفائه الذين سرى سر هذه النسبة المطهرة إليهم سيدنا ناصر الدين عبيدالله الأحرار قدس الله أسرارهم .



١٩ - سيدنا الشيخ ناصر الدين عبيد الله الأحرار

نسبه ومولده :

ينتهي نسب شيخنا لأمه بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقد ولد قدس سره في شهر رمضان سنة ست وثمانمائة من الهجرة .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

لقد حصلت لشيخنا نسبة الحضور وهو ابن ثلاث سنين ، وكان يرىٰ الكثير من التجليات والأنوار ، ويظن أن الناس كلهم يرون ذلك ، حتىٰ إذا كبر وعرف الناس أدرك أن هذه نعمة خصّه الله تعالىٰ بها في صغره .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بعثه خاله إلىٰ الشيخ إبراهيم الشاشي ليتعلم في مدارس سمرقند ، وليتمم تحصيل العلوم حيث كانت تُقصد يومها للعلم والمعرفة والدراية .

وبعد أن وصل إلىٰ تلك الديار بدأ في علوم الشريعة ، ولا زال يتعلم حتىٰ فاق علماء عصره ، ومال فيها إلىٰ صحبة المشايخ الكبار فترة من الزمن .

ثم توجه إلىٰ هراة وأقام بها خمس سنين في طلب العلم ، وصحب فيها المشايخ الكبار حتىٰ أصبح من قمة العلماء .

وبعد أن تشرع أخذ الطريقة عن الشيخ يعقوب الجرخي قدس سره ، ولازمه خادماً له حتىٰ أذن له في الإرشاد والتوجه .

كما صحب الكثير من أصحاب سيدنا شاه نقشبند واستفاد منهم .

ولقد حج الشيخ عبيدالله بيت الله مراراً ، فكان يسير من بلـده بخـارىٰ من بلاد ما وراء النـهر إلىٰ مكـة علىٰ قدميـه ، مـع العلـم أن الطريـق كـان محفوفـاً بقطـاع الطـرق والوحـوش ، إضافـة إلىٰ البـرد والتعـب والعنـاء ، فالحج لم يكن ميسراً كأيامنا هذه .

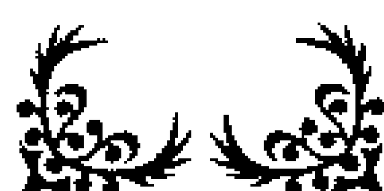
ثم أقبل شـيخنا علىٰ إرشـاد الطـالبين ، وجـذب المسـتعدين للحضـرة ، وهو أحد الأعلام الذين اشتهر بهم الطريق ، وزال بهم عن الطـالبين التعويـق ، وله من الكرامات الكثير .

وللشيخ قدس سره مؤلفات جمّة جمعت نفائس عرائس المسائل التي فيها الشريعة والحقيقة ، وهي معروفة وبها من النصائح الكثير .

وفاته :

توفي رحمه الله تعالىٰ في ربيع الأول سنة خمـس وتسـعين وثمانمائـة من الهجرة ، ودفن في سمرقند ، وقبره يزار الآن وعليه مسجد كبير .

كان له خلفاء كثر ، أجلهم الشيخ محمد الزاهد قدس سره .



٢٠ - سيدنا الشيخ محمد الزاهد

كان من أعاظم شيوخ هذه السلسلة النقشبندية العلية ، ومن أكابر علماء عصره في الشريعة والحقيقة .

نسبه ومولده :

هو سبط مولانا يعقوب الجرخي ، حيث هو جده لأمه .

ولد في وخشوار ، وهي قرية من قرىٰ حَصار في بلاد ما وراء النهر .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

لقد صحب الشيخ محمد الزاهد الكثير من خلفاء جده ، واستفاض منهم كثيراً من العلوم والمعارف ، غير أنه سلك علىٰ يد الشيخ عبيدالله الأحرار قدس الله سرهما العزيز .

وقد اشتغل قدس سره سنين عديدة بالرياضات الشاقة والمجاهدات الحقة قبل ملاحقته بالشيخ عبيد الله الأحرار ، فوقف أمام نفسه بتوفيق من الله تعالىٰ وأوقفها عند حدها ، وكان في معركة مستمرة معها ومع الهوىٰ ، وتغلب علىٰ إبليس وأعوانه .

ثم انتسب إلىٰ سيدنا عبيدالله الأحرار بإشارة غيبية عجيبة ؛ وذلك للإنابة والاسترشاد ، وليتم له المقام ، وليكون من سلسلة الرجال الذين يشار إليهم بالبنان عند الله تعالىٰ .

لهذا لما اطلع الشيخ عبيدالله الأحرار علىٰ حاله ، وحصل اللقاء بينهما بعد سفر طويل ، أقبل عليه الشيخ كل الإقبال ، وأجلّه كل

الإجلال ، وبايعه تلك الليلة وأحْيَوْها بالصحبة . وفيها أخذ شيخنا من الأنوار ، وترقىٰ إلىٰ مقامات لا يجاوزها غيره من العاملين في مائة عام ، الجادين في السلوك للوصول .

فأصبح من تلك الليلة وقد نال رتبة الكمال والتكميل في هذه الطريقة العلية ، وطُوِيَت له منازل السلوك ، وتمت له الوصلة بملك الملوك تبارك وتعالىٰ ، ودفعته يد القدرة إلىٰ مراتب علية بوقت واحد ، فكانت ليلة نورانية ، والله الموفق لذلك .

هناك أناس من أهل الصلاح يعيشون علىٰ حال معين ويموتون عليه ، أي يعيشون بدون مقام . إنما الموفقون هم هؤلاء الذين تختارهم القدرة الإلهية فترفعهم بساعة واحدة إلىٰ درجات لا يعلمها إلا الله ﷻ . والله علىٰ كل شيء قدير ، ولا يُسأل عما يفعل ، يعطي الفضل لمن يشاء .

ثم أذن له شيخه بالرجوع لوطنه ، وأجازه قبل مفارقته بتربية الطالبين ، وبالدعوة إلىٰ رب العالمين .

وهكذا رجع إلىٰ بلده ، ولم يزل ممتثلاً أمر شيخه ، مسترشداً بإشاراته ، مستنيراً بوصلته به إلىٰ ربه ، حتىٰ توفاه الله تعالىٰ .

ولقد برع شيخنا صاحب ترجمتنا في علم الشريعة ، وتعمق في علم الحقيقة ، وتفرد بزمانه في المقامات العلية الرفيعة : كالفقر ، والتجرد عن السوىٰ ، والزهد حتىٰ في الجنة ، واتباع السنة الصحيحة .

فالفقر عند السادة الصوفية لا يعني الفقر من مال ، بل يقال للسادة الصوفية الكمل : الفقراء إلىٰ الله ، أي الأغنياء عن غيره .

وفاته :

كانت وفاته قدس سره في بلدة وخشوار سنة ست وثلاثين وتسعمائة من الهجرة النبوية الشريفة ، وقبره هناك يزار ويتبرك به .

جميع خلفائه كانوا أجلاء ، وعلى الهدى أدلاء . ومِن أجل أصحابه وأكمل خلفائه سيدنا الدرويش محمد قدس سره ، وهو الذي كانت له الوصلة على أن يتمم السلسلة النقشبندية العلية .



٢١ - سيدنا الشيخ الدرويش محمد الأمكنكي

هو غوث الأولياء الأعلام ، وغيث علماء الإسلام في عصره ، فوصل القمة في الشريعة والحقيقة .

نسبه :

هو ابن أخت سيدنا محمد الزاهد الذي سردنا بعض صفاته العلية . فالشيخ محمد الزاهد خاله ، وأبوه في الطريقة .

ولقد سكن شيخنا قدس سره في بلدة أمكنة وهي قرية من ولاية كش .

نشأته وانتسابه للطريقة :

كان شيخنا في بداية أمره وقبل أن يلحق بخاله قد بايع الشيخ عبيدالله الأحرار من غير واسطة ، ولكن الإشارة الإلهية أمرته أن يُربىٰ علىٰ يد خاله ، فبلغ علىٰ يديه درجة الشيخ العارف الكامل المكمل لغيره وبوقت قريب ، ثم أجازه بالخلافة .

قال بحقه الشيخ شرف الدين في روضة السلام :

إنه كان له قوة قدسية عظيمة ، وآثار خارقة في تربية المريدين . وكان إذا توجه إلىٰ مريد بنظرة كشف ظاهره وباطنه .

وفاته :

بقي شيخنا على تربية المريدين وتوجيههم وإرشادهم بإشارة من شيخه حتى توفاه الله ببلده ، وقبره يزار ويتبرك به .

وقبل وفاته استخلف عدداً كبيراً من المريدين ، وفي مقدمتهم ولده الشيخ محمد الخواجكي قدس الله سره الشريف .



٢٢ - سيدنا الشيخ محمد الخواجكي الأمكنكي

هـو مـن كبـار خلفـاء سـيدنا الدرويـش محمـد ، وهـو الـذي أَذِنَ لـه بالخلافة ، وأن يستلم الطريقة من بعده قدس الله سرهما العزيز .

نسبه :

هو الابن الأكبر لمولانا الدرويش محمـد مـن الصلـب ، وكـان يلقـب بعبد الباقي .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

كان قدس سره خليفـة أبيـه في الشـريعة والحقيقـة ، ولقـد بلـغ رتبـة الكمـال والتكميـل بحسـن تربيـة أبيـه لـه وصحبتـه لـه ، علمـاً أن شـيخنا قد أدرك الشيخ محمـد الزاهـد وبايعـه ، وكمـا هـو معلـوم أنـه خـال أبيـه من النسب وشيخه ، لكنه تربىٰ علىٰ يد أبيه التربية الروحيـة حتـىٰ أصبـح شيخ زمانه وشيخ عصره .

اشـتغل قـدس سـره بعلـوم الشـريعة ، وأخذهـا مـن علمـاء سمرقنـد وبخارىٰ . وطالـع الكتب المتداولة ، ودرس بعد بلوغـه رتبـة الكمـال ، ونـال الرتبة التي تسمىٰ مرتبة المولوية ، وجعلها ستراً وحجاباً لأحواله الباطنية .

تكلـم في علـم الحقيقـة ، وبـرع في علـم الشـريعة ، وجـاوز أقرانـه في عصره في المجالين الحسي والمعنوي .

وقد كانت كراماته واضحة ، وإشاراته لامعة .

وكان باعه طويلاً ، وجاهه عريضاً ، حتىٰ ذاع صيته في مشارق الأرض ومغاربها .

وكان يأمر كل من يحضر عنده لطلب الطريقة بالاستخارة ، ولم يكن يقبل أحداً بدون ذلك . ثم يتركه فترة من الزمن ، ثم بعد ذلك إذا كان أهلاً لذلك أعطاه الطريقة العلية .

وفاته :

بقي الشيخ محمد الخواجكي مقيماً في بلاده ، داعياً إلى الله ﷻ علىٰ طريقة أسلافه ، حتىٰ لحق بالرفيق الأعلىٰ سنة عشر أو ثمان بعد الألف من الهجرة .

خلفاؤه كثر ، كلهم كاملون عارفون وأولياء كبار . وأكملهم شيخ هذه السلسلة محمد الباقي الذي سرىٰ إليه سر هذه النسبة الشريفة ، أفاض الله تبارك وتعالىٰ عليه سجال رحمته وعلينا ببركته .



٢٣ - سيدنا الشيخ محمد الباقي

هو الـدرة المنتظمة المضيئة الفريدة في عقد سلسلتنا النقشبندية العلية ، الذي أنشأ الرجال وأضاء لهم طريق الوصول والكمال .

مولده ونشأته وانتسابه للطريقة :

ولد قدس سره في نواحي مدينة كابل من بلاد العجم ، ونشأ بها طيلة صباه .

ثم جَدَّ في تلقي علوم الشريعة عن سادات العصر ، وفضلاء كل مصر ، فكان يسير من بلد إلىٰ بلد طلباً للعلم .

وبعد أن برع في علوم الشريعة ، أخذ من قلوب العارفين ، واستفاض من قلوب الأولياء وروحانية المرشدين ، حتىٰ صار في المعقول بحراً ، وفي المنقول حَبراً ، وفي كل فضيلة فرداً .

فبلغ في درجة علم الشريعة القمة ، ووصل إلىٰ درجة الكمال والتكميل بعهد شيخه .

وكان قدس سره يحب السياحة كثيراً ، ويكثر منها في الجبال والوديان والوهاد ، طلباً للمعرفة واقتداء بسيدنا محمد ﷺ .

وفي نهاية سياحته وصل إلىٰ مدينة سمرقند ، واتصل بحضرة الشيخ محمد الخواجكي قدس سره ، وتلقىٰ منه طريق حضرة النقشبند . فرقىٰ في أقرب أوقاته إلىٰ أعلىٰ درجات الكمال في الطريقة ؛ لأنه دخل مُسَلِّماً ، جلس أمام شيخه بدون أي سلاح ، وكان كالإسفنج تماماً يغب ويأخذ كل شيء عن شيخه ، يقتدي به في كل أموره ، ويعشقه عشقاً غير محدود .

كان أويسياً في بداية أمره ، وكانت تربيه دائماً روحانية سيدنا غوث الأبرار عبيدالله الأحرار قدس سره .

ثم أجاز له سيدنا عبيدالله في تربية المريدين ، وإرشاد المسترشدين .

وقد طلب منه شيخه أن يعود إلى الهند ، فعاد إليها وتوطن مدينة دلهي جهان آباد . فملأها بالإيمان والعرفان ، والأسرار والأنوار ، والإمداد والإرشاد . وما انتشرت في جميع الأقطار الهندية عوارف معارف الطريقة النقشبندية إلا من أرج رياض فضله قدس سره ، إذ ما كانوا يعرفونها من قبله .

فأقبلت عليه الأمم بما جذبهم به من علو الهمة ، وقوة التصرفات الإلهية ، والخصائص المحمدية . حتى صار كل من يقع بصره عليه أو يحضر مجلسه يحصل له الغيبة والفناء من أول وهلة ، وربما انكشف له عن عالم الملك والملكوت .

وقد سلك على يديه الكثير ممن أراد الوصول إلى الله ﷻ .

بعض مناقبه وفضائله :

كان سراً من أسرار الله تبارك وتعالى ، وآية من آيات المولى ﷻ ، وهو الفاني العارف بالله والباقي به تعالى .

لقد جمع بين شرفي العلوم والمعارف ، وآتاه الله تبارك وتعالى العلمين ، والتصرف في العالَمَيْن (عالم الملك والعالم الآخر) . وهذه قَلَّما تكون للأولياء الكبار ، مما يدل على سمو قدره عند الله تبارك وتعالى ، فهي لا تكون إلا للكبار الكبار .

وقد بشره شيخه بتربية شمس سمرقند الإمام الرباني مجدد الألف الثاني أحمد الفاروقي العمري ، وكان كما قال : كرامة له .

يقول سيدنا أحمد الفاروقي عن شيخه محمد الباقي ما نصه :

هو القائم مقام المشايخ العلية ، والنائب مناب الأكابر النقشبندية ، والواصل إلىٰ نهاية النهاية ، البالغ أقصىٰ درجات الولاية ، قطب مدار الخلائق ، كاشف أسرار الحقائق ، الفرد الكامل في المحبة الذاتية ، والمحقق الجامع لكمالات الولاية المحمدية ، مسند أهل الإرشاد والهداية ، مرشد طريق درج النهاية في البداية ، زبدة العارفين ، وقدوة المحققين ، شيخنا وملاذنا ومولانا الشيخ الأجل العارف الأكمل سيدنا محمد الباقي أبقاه الله تعالىٰ .

ومهما قلت فما أقصر لساني ، وأصغر بنان بياني في ترجمة ما قيل في شأنه . فجزاه الله عن شيوخ طريقتنا خير الجزاء ، ورزقنا المسير بما أناروا لنا الطريق .

وفاته :

توفي قدس سره يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادىٰ الآخرة سنة أربع عشرة بعد الألف من الهجرة ، في مدينة دلهي حيث قبره هناك ، وهو القبر الكبير الذي يُتبرك به . وكان له من العمر أربعون سنة وأربعة أشهر .

خلفاؤه أكثر من أن يذكروا ، وأعظم من تلقىٰ سره وسر هذه النسبة المطهرة شيخ هذه السلسلة الإمام الرباني أحمد الفاروقي قدس الله سره العزيز .



٢٤ - الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي العمري

هـو درة إكليـل الأوليـاء العـارفين ، وغـــرة جبـين الأصفيـاء الغـر المحجلين ، داعـي الخلـق بـالحق إلى الحـق ، القطـب الأوحـد ، والعَلَـم المفرد في زمانه ، الإمام الرباني مجدد الألف الثاني في الطريقة .

نسبه ومولده :

ينتـهي نسـبه إلى سـيدنا ومولانـا أمـير المؤمنـين الفـاروق عمـر بـن الخطاب رضي الله عنه ؛ لهذا لقب بالفاروقي .

ولد يوم عاشوراء سنة إحدى وسبعين وتسعمائة مـن الهجـرة في بلـدة سهرند ، وهي بلدة عظيمة من أعمال لاهور في الهند .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

كان آباؤه الكرام وأجداده العظام مـن أكـابر العلمـاء الأعـلام ، ومـن صلحـاء الأنام في أوقاتهم .

أخذ العلم المعقول والمنقول عن والده وغيره من محققي زمانه .

ولقـد اشـتغل بـالطرق الثـلاث علـى والـده قـدس الله سـريهما قبـل أن يشتغل بالطريقة النقشبندية العلية ، وهي : القادريـة ، والسـهروردية ، والجستية .

ولقد جَدَّ في هذا المجال وفاق أقرانه ، وما جاراه أحد في زمانـه . لهـذا أذن له والده بالإرشاد ، واستخلفه في هذه الطـرق الثـلاث وهـو ابـن سـبع عشرة سنة ، فوصل موصل الرجال الكبار وهو في هذه السن المبكرة .

ولكنه كان دائماً في نفسه يتتوق للانتساب إلىٰ الطريقة النقشبندية العلية ؛ لعلمه بفضلها علىٰ سائر الطرق ، وعلو نسبتها علىٰ كل النسب .

لهذا عمل جاهداً بعد الدعاء والابتهال ، والتقشف والزهد ، حتىٰ استطاع حين قدم الهند أن يجتمع مع غوث الزمان في وقته العارف بالله سيدنا الشيخ محمد الباقي قدس سره . فأخذ عنه الطريقة النقشبندية ولازمه ، ففاز بأعلىٰ المرام في مدة شهرين وبضعة أيام ، حتىٰ شهد له شيخه بالمرادية ، والمحبوبية ، والكمال والتكميل ، وفوّض إليه تربية المريدين .

وفي الحقيقة عناية الله تناولت تربية هذا الشيخ من حين ولادته ، حيث نشأ النشأة المحمدية الصحيحة ، ورضع حليب المعرفة والشريعة والحقيقة منذ نعومة أظافره ، فكان همه أن يسير إلىٰ الله بجد وصدق دون التفات . فكان ينطلق من مرتبة إلىٰ مرتبة ويخترق الحجب ، يقطع مسافات الألف عام بثانية ، ويجاوز غيره من السائرين والسالكين بعناية فائقة . فحيّر الأولياء في زمانه بسلوكه ، وكان المُجدُّ من الأولياء الكبار يحاول أن يتبع غبار عنانه ، ولكنه لا يستطيع أن يصل غباره . كيف لا وقد تولت تربيته العناية الربانية ، وكانت تأتيه الفتوحات بدون حدود ، وتتفجر ينابيع الحِكم من قلبه وتجري علىٰ لسانه؟

ولا زال قدس سره ينطلق من مرتبة إلىٰ مرتبة ، ومن مقام إلىٰ مقام حتىٰ وصل درجة الكمال والتكميل ، والفناء ثم البقاء ، واستلم السُدَّة في عصره ، والقيادة الروحية في زمانه . فكان عن طريقه يرقىٰ الأولياء ، ويرتفع الرجال ، وهو الآخذ بالقرآن والسنة .

لقد فاق أقران زمانه ، بل استطاع أن يجدد الطريقة النقشبندية ؛ لهذا نُعت بأنه مجدد الألف الثاني في الطريقة ، فكان عملاقاً في كل المجالات .

وقد وصل كما ذكرنا في عهد شيخه إلى مرتبة المرادية ، وهناك فرق بين المريد والمراد ، فالمراد أي طُلب وأُرسل إليه .

وفي ذلك يقول قدس سره : إن العناية الإلهية جذبتني جذب المرادين أولاً ، ثم يسّرت لي طي منازل السلوك ثانياً ، فوجدت الله سبحانه أولاً عين الأشياء - كما قال أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفية - ، ثم وجدت الله في الأشياء من غير حلول ولا سريان ، ثم وجدته سبحانه معها بمعية ذاتية ، ثم رأيته بعدها ، ثم قبلها ، ثم رأيته سبحانه وما رأيت شيئاً .

وهو المعني بالتوحيد الشهودي المعبر عنه بالفناء الكامل بالله تعالى ، وهو أول قدم توضع في الولاية ، وأسبق كلام في البداية .

مع العلم أن هذه الرؤية في أي مرتبة من المراتب المذكورة تحصل أولاً في الآفاق (التفكر) ، ثم ثانياً في الأنفس ، ثم يذوب عن الآفاق وعن نفسه .

يقول سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه عندما سئل عن قرب الله تعالى قال : قريب منا بدون ملاصقة ، وهذا تعليق على قول الشيخ من غير حلول .

وهنا يُعذر أهل السكر الذين يصلون إلى هذه المراتب ، فمتى وصل المريد إلى هذه المراتب ذاب عن نفسه وعن شهوده وعن الكون ، وصار يسبح الله وقد نسي ذاته .

ثم يكمل شيخنا فيقول :

ثم ترقيت في البقاء وهو أعلىٰ من الفنـاء ، وهـو ثـاني قـدم في الولايـة عندنا . فرأيت الأشياء ثانياً علىٰ مـا هـي عليـه (الكتـاب كتـاب ، والسـماء سماء . . .) ، فوجدت الله تعالىٰ عينها بـل عـين نفسـي ، ثـم وجدتـه تعـالىٰ في الأشياء بـل في نفسـي ، ثـم مـع الأشـياء بـل مـع نفسـي ، ثـم قبـل الأشـياء بل قبل نفسي ، ثم بعد الأشياء بل بعد نفسي ، ثم رأيته سبحانه وما رأيت شيئاً .

وهنا أقول : حلق كالنسر الكبـير ، رأىٰ الفضـاء بالكـامل ثـم رأىٰ الله تعالىٰ ولم ير غيره حتىٰ ولا نفسه .

وهـذه هـي النهايـة عندنـا ، الـتي هـي الرجـوع إلىٰ البدايـة والعَـوْد إلىٰ مرتبة العوام ؛ لأنه لو بقي علىٰ المرتبة الأولىٰ لَما اسـتطاع أن يجلـس مع العامة ويتحدث معهم ، ومقام الكمل أن يتكلم مع العوام .

وهذا هو المقام الأخير ، وهو أتم مقام الأولياء ، وأتم مقامات دعوة الخلـق إلىٰ الحـق ، وأكمـل منـازل التكميـل والإرشـاد . وذلـك لتمـام المناسبة للخلق المقتضية لكمال الإفادة والاستفادة ، وهذا كله تخطـاه الشيخ أحمد الفاروقي .

ومن تتبع منكم سيرة سيدنا رسول الله ﷺ يـرىٰ أنـه في البدايـة حُبِّـبَ إليه الخـلاء ، فكـان ينظـر للحقيقـة لأنـه يريـد الله تعـالىٰ ، وبعـد أن رأىٰ الحقيقة نزل الوحي ، وبعد أن نزلت الحقيقة رجـع إلىٰ النـاس للإرشـاد ، وهذا لا يكون إلا بتجاوز هذه المراتب .

مع العلم أنه عند غيرنا من الطرق يكون الفناء آخر مراتبهم .

بعض مناقبه وفضائله :

هو أول من تكلم في مقامات الأولياء الكبار ، ومقامات الأنبياء والرسل ، وخاض بحاراً كانت قبله مغلقة عن غيره .

ولقد خصّه الله تبارك وتعالىٰ بفضيلة نشر العلوم الدينية ، والكشف عن أسرار العلوم اللدنية . أي أخذ الشريعة والحقيقة ، فكان ذا باع في علم الكشف ، وفي بيان مراتب الولاية والنبوة والرسالة ، وكمالات أولي العزم من الرجال ، وتكلم في درجات الخِلة والمحبة ، وإظهار أسرار الذات والشؤون الإلهية بما لم يُسْبَق إليه قط .

لهذا والحقيقة مرة ، قام الحاسدون من أهل زمانه وحاربوه ، ونعتوه حتىٰ وصلوا به إلىٰ التكفير ، والكفر هو أعلىٰ درجات الرذيلة . وطلبوا من علماء زمانه بإصدار الفتاوىٰ في تكفيره وهو الآخذ بالشريعة والمدافع عنها ، كما طلبوا من السلطان أن يقتله ويطرده من البلاد . لكن العلماء المخلصين من أهل زمانه دافعوا عنه ، وبيّنوا بأنه هو صاحب الوقت ، وهو صاحب السيف المسلول الذي يسير مع الشريعة ومع الحقيقة ، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً .

وكان قدس الله سره العزيز يلتقي بالنبي ﷺ مباشرة ، حيث قال : لقد كتب لي النبي ﷺ خط الإرشاد بيده الشريفة ، وقال لي : لم أكتب لأحد قبلك مثله .

أي لم يكتب النبي ﷺ لأحد قبله مثل ما كتب له ، وقد يكون كتب لغيره شيئاً آخر . علماً بأنه بعالم البرزخ والنبي ﷺ هو صاحب المعجزات ، فلا يرد علىٰ ذلك أنه ﷺ لا يكتب ولا يقرأ ، فإنه كان

لا يكتب ولا يقرأ في الدنيا ، أما بعد أن انتقل إلىٰ البرزخ فإنه قد يكتب ، ويكون ذلك من معجزاته ﷺ .

وقد بشره النبي ﷺ بأنه يغفر الله لألوف يوم القيامة وجبت لهم النار فيدخلهم الجنة بشفاعته . وهذه هدية من النبي ﷺ له ، وهو ينقلها للأمانة لا ليرىٰ نفسه علىٰ الناس .

وللشيخ رحمه الله مؤلفات كثيرة ، منها : مكتوباته القدسية في جزءين وكان يكاتب بها الأولياء الكبار وتلاميذه ، والرسالة التهليلية ، ورسالة إثبات النبوة ، وغيرها الكثير .

كما كان الله وفّقه لنشر الإسلام في بلاد الهند .

ومن كراماته قدس سره: يقول ولده الأكبر : كثيراً ما كان يخبرني الشيخ نفعنا الله به بالأمر خيراً كان أو شراً قبل وقوعه ، فيقع كما يقول بإذن الله بلا تفاوت .

من كلامه ومآثره :

❁ قال قدس الله سره العزيز :

"علامة وصول الصوفي إلىٰ حقيقة حق اليقين ، مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة" .

❁ وقال قدس سره :

"اعلم يا أخي أن الذي لا بد منه وكلفنا الله تعالىٰ به هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر : ٧]" .

وإذا كنا مأمورين بالإخلاص في ذلك وهو لا يتصور بدون الفناء وبغير المحبة الذاتية ، وجب علينا أيضاً سلوك طريق الصوفية الموصلة للفناء والمحبة الذاتية ، حتىٰ تتحقق حقيقة الإخلاص .

ولَمَّا كانت طرق الصوفية متفاوتة بالكمال والتكميل ، كان كل طريق تُلتزم فيه متابعة السنة السنية وأداء الأحكام أولىٰ وأنسب بالاختيار ، وذلك هو طريق السادة النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية .

فإن هؤلاء الأكابر التزموا في هذه الطريقة متابعة السنة ، واجتناب البدعة . وهم لا يجيزون العمل بالرخصة ولو وجدوا ظاهراً أنَّ له نفعاً في الباطن ، بل هم مع الظاهر . ولا يتركون الأخذ بالعزائم ولو علموا صورة أنه مضر بالسيرة ، فيأخذون بالورع . ويجعلون الأحوال والمواجيد تابعة للأحكام الشرعية ، كما يجعلون الأوراق والمعارف خادمة للعلوم اللدنية ، ولا يستبدلون الجواهر النفيسة الشرعية مثل الأطفال بجوز الوجد وزبيب الحال .

هذا هو حالهم علىٰ الدوام ، لقد مُحِيَتْ نقوش السوىٰ من بواطنهم .

وهذه السيرة هي سيرة الرجال الكبار ، الذين يريدون القرب المستمر .

فطريقتنا هي التي تتقيد بالشريعة والحقيقة معاً ، فنسير معهما بسلوك واحد متتابع . فنحن شريعتنا حقيقة ، وحقيقتنا شريعة .

ولا يجوز لصاحب الحقيقة حسب الظاهر أن يخالف الشريعة ، فهناك مخالفات تقع من الشيوخ بحسب آراء أهل الظاهر ، إنما هي عين

الحقيقة . كما وقعت مخالفات الخضر في عين سيدنا موسىٰ ولم يستطع أن يصبر عليها ، إنما عندما أوضحها له كانت هي الحقة ، وكانت المرشدة ، لذلك قال النبي ﷺ : « يرحم الله موسىٰ ، لوددنا أنه صبر حتىٰ يقص علينا من أمرهما »[1] .

❁ وقال قدس سره :

"طريقهم أقرب الطرق قطعاً ، وموصلة البتة" .

❁ وقال :

"نهاية غيرهم مندرجة في بداية هؤلاء الأكابر" .

❁ وقال :

"وأي مناسبة بين أخص الخواص ، وبين كل زرّاق ورقاص؟! ولو ملأت الدفاتر في بيان خصائص أولئك الصفوة ، لكان كقطرة من بحر لا نهاية له" .

❁ وقال قدس سره :

"الشريعة والحقيقة متحدتان في الحقيقة لا تغاير بينهما ، ولا فرق إلا بالإجمال والتفصيل ، فالشريعة إجمال والحقيقة تفصيل . وبالاستدلال والكشف ، فالشريعة استدلال والحقيقة كشف مباشر . وبالغيب والشهادة ، فالشريعة غيب والحقيقة شهادة" .

فالأحكام والعلوم التي تثبت بموجب الشريعة الغراء هي التي

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي بن كعب في قصة حديث الخضر وموسىٰ . كما رواه الترمذي في سننه ، وأحمد في مسنده ، وغيرهم .

تتبين بعد التحقق بحقيقة عين اليقين ، وتنكشف بالتفصيل ، وتظهر من الغيب إلىٰ الشهادة .

وهكذا أحب أن يفهم المريد التلاؤم بين الشريعة والحقيقة ، فالشريعة متن والحقيقة شرح .

ونحن عندنا الحقيقة لا تتنافىٰ مع الشريعة ، بل كل واحدة منهما تتمم الأخرىٰ .

* وقال قدس سره :

"وما وقع من بعض المشايخ من أن الشريعة قشر والحقيقة لب مُشْعِرٌ بعدم استقامة قائله" .

فالأكابر أولوا الأحوال المستقيمة لا يجيزون الإتيان بمثل هذه العبارات ، ولا يفرقون بين الشريعة والحقيقة متناً وشرحاً .

* وقال قدس سره :

"كل خلاف وقع من كافة مشايخ الطرق للشريعة فهو مبني علىٰ سكر الوقت ، وهو لا يكون إلا في أثناء الوقت . والمنتهون إلىٰ نهاية النهاية كلهم في الصحو ، والوقت مغلوب لهم" .

لقد سمعنا أن بعض المشايخ لهم شطحات تخالف الشريعة ، وهذا قبل الوصول التام أي أثناء الطريق ، وقد بَيَّنا الوصول التام وهو العَوْد إلىٰ درجة العوام . فالذي تكلم بكلمات تُوهم مخالفة الشريعة هو تكلم عن سكر ، والسكران معذور كالنائم لا يُؤاخذ ، فكيف يأتي أناس ويكفرونهم؟!

وفاته :

توفي قدس سره في السابع عشر من صفر سنة أربع وثلاثين بعد الألف من الهجرة ، عن عمر يناهز الثلاثة والستين عاماً ، ودفن في مدينة سهرند .

وقد كثر خلفاؤه وأتباعه في شتى أرجاء البلاد الواسعة ، ومن أكمل وأتم من سرى إليه سر هذه النسبة الصديقية هو ولده الشيخ محمد المعصوم قدس سره .



٢٥ - سيدنا الشيخ محمد المعصوم

هو العروة الوثقى ، والقدوة الأتقى . كان آية من آيات الله مثل والده الماجد ، قد نَوَّرَ العالم من ظلمات الجهل والبدع بيُمن توجهاته العلية وأحواله السنية .

نسبه ومولده :

هو أحد أولاد الإمام أحمد الفاروقي من صلبه ، وقد كانوا أربعة .

ولد قدس سره سنة سبع بعد الألف من الهجرة .

يقول الشيخ أحمد الفاروقي قدس سره :

كان قدوم محمد المعصوم كثير البركة عليّ ، فإني تشرفت بعد ولادته بخدمة شيخي - يعني الشيخ محمد الباقي قدس الله أسرارهم الجميع - ، فنلت هذه المعارف والعلوم ببركة هذه الخدمة .

وقد اعتبر الشيخ أحمد الفاروقي خدمة شيخه من أكبر النعم التي مَنَّ الله بها عليه ، وقد كان يخدمه قولاً وفعلاً .

والتلميذ إذا خدم شيخه ليلاً ونهاراً ، فإنه لا يفعل ذلك خوفاً من الشيخ ، فالخوف ليس هو الذي يربط ، إنما العقيدة التي هي أقوى من هذا بكثير ، والحب الذي لا حدود له في العطاء ، أما الخوف فله حدود .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

لقد ارتضع شيخنا ثدي العرفان من والده الرفيع الشأن ، حتى تضلع في علوم الخواص وخواص العلوم ، وأخذ من علوم الشريعة والحقيقة

ما لا حصر له .

وقد شهد له والده في صغره بعلو الاستعداد ، علماً أنه لقنه الطريقة وهو ابن أحد عشر عاماً ، وبايعه عليها . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وصوله لدرجة الكمال وهو بهذه السن المبكرة .

حفظ القرآن الكريم في ثلاثة أشهر ، ثم اشتغل بتحصيل العلم والطريق ، فبلغ فيهما درجات الكمال وهو ابن سبع عشرة سنة .

ثم جلس بعد والده وشيخه قدس الله سرهما في سدة الإرشاد وإمداد العباد ، وكان عمره ستة وعشرين عاماً .

بعض مناقبه وفضائله :

كان قدس سره في أعلى درجات الاستقامة في الشريعة والحقيقة ، وكان في نهاية الورع الصادق ، والتقوى الصحيحة ، والتمسك بالسنة المطهرة ، والأخذ بناصية العزيمة ، واجتناب سبل البدع ووجوه الرخص . وهي القاعدة عندنا معشر النقشبندية .

ويكفيه ما شهد له والده غوث زمانه وقطب وجوده فقال : إن ولدي كان من المحبوبين والمستعدين للولاية المحمدية .

وقد بشره بعد أن بلغ درجة الخلافة ووصل إلى الكمالات بقطبية الروم والشام ، وما والاهما من البلاد إلى فارس إلى الصين ، فوقع الأمر وفق بشارته بإذن الله تعالى ، فكان بعدها قطب هذا الوجود .

وكان له خلفاء في كل هذه البلاد قد بلغ عددهم سبعة آلاف خليفة ، وأما عدد من بايعه منهم فبلغ تسعمائة ألف .

كما كان له مكاتيب كوالده جُمعت له في ثلاثة مجلدات ضخمة .

بعض كراماته :

إن كرامات شيخنا صاحب هـذه السيرة العطـرة كثيرة جـداً وظـاهرة كالشمس ، منها :

يروى أن أحد خلفائه كان في سفر على فرس ، فجفلت من شـيء وكـانت مجنونـة ، فسـقط عـن ظـهرها وبقيـت رجلـه في الركـاب ورأسـه على الأرض ، وجعلت الفرس تعدو به حتى أيقن الموت والهلاك ، فاسـتغاث بحضرة الشيخ محمد المعصوم . فيقول : فرأيتـه قـد حضـر وأوقـف الفـرس ، وأخـرج رجلـي مـن الركـاب ، ومسـح عليّ فذهـب مـا بـي مـن الوجـع ، ثم أركبني الفرس وانطلق وسار .

ويروى أيضاً أن الشيخ محمد الصديق – وهو أحد مريديه وكان تـاجراً – قد وقع في البحر ولم يكن يعرف السباحة ، فكاد أن يغرق فاسـتغاث وقـال : واشيخاه . فحضر الشيخ في الحال ، وأخذ بيده وأنقذه من الغرق .

وفي ذلك يروى أن شيخنا كان جالساً بـين أصحابـه في رباطـه يتكلـم معـهم ، إذ ابتلـت يـده الشـريفة وكمـه إلى إبطـه بالمـاء الكثـير . فعجبـوا من ذلك ، وسألوه عنه فقال : استغاث بي رجل من المريدين وكـان يركـب سفينة في البحر وقد كادت أن تغرق ، فخلصتها من الغـرق ، فـابتل لذلـك كمي ويدي . فسمعوا ذلك واعتقدوا .

وبعد مدة وصل التاجر المريد صاحب القصة ، وحدّث بهذا الأمر كما أخبر الشيخ تماماً .

ومن كراماته كذلك ما روي أنه ظهر في زمان الشيخ قدس سره سـاحر مجوسي يوقد النار ويَدخلها هو ومن يطيعه فلا تحرقهم . فافتتن النـاس بـه

فتنة عظيمة ، فأُخبر الشيخ بذلك ، فـأمر بإيقـاد نـار عظيمـة ، وأمـر أحـد مريديه أن يدخل هذه النار . فدخلها وهو يشـتغل بـالذكر ، فصـارت النـار عليه برداً وسلاماً ، فبهت الذي كفر . ثـم طلـب مـن المجوسـي أن يدخلـها إن كان صادقاً ، فرفض ولو دخلها لاحترق ، فعرف الناس أن الذي يقوم بـه المجوسي سحر ، وأن النار ليست بنار بل هي شعوذة .

ويروىٰ عن الشيخ عبدالرحمـن الـترمذي أحـد أصحابـه قـال : جئـت مع إخواني لزيارة جناب الشـيخ العـالي ، فـأعطىٰ كـل واحـد منـهم أثـراً من لباسه تبركاً به إلا أنا فما أعطاني . فلما انصرفت إلىٰ وطني غلب علـيّ الحزن والغم لحرماني من هذا الفضل الجزيل ، وبقيت أياماً علىٰ حزني ، وإذ شاع في البلدة خبر قدوم الشيخ محمد المعصوم إليـها . فخـرج النـاس لاستقباله ، وخرجت معهم فرِحاً فَرَحاً شديداً . فلما بـارحت البلـدة رأيـت الشيخ مقبلاً علىٰ فرس أبيض ، فقال لي : لا تحزن يا عبدالرحمن ، وخـذ قلنسوتي تبركاً . فلما أخذتها غاب هو واختفىٰ الناس عن عيـني ، وبقيـت القلنسوة في يدي .

ويروىٰ أن رجلاً وُلِد أعمىٰ قد جاءه يلتمس منه أن يدعـو الله لـه في رد بصره ، فأخذ الشيخ شيئاً من ريقه ، ومسح به علىٰ عيـني الأعمـىٰ وقـال : اذهب إلىٰ بيتك وافتح عينيك هناك . ففعل فعاد بصيراً بـإذن الله تعـالىٰ ، وليس ذلك علىٰ الله بكثير .

ويروىٰ كذلك أنه ذُكر عنده رجل من الرافضة بأنه يسب الشيخين أبا بكـر وعمر رضي الله تعالىٰ عنهما جهراً ، فغضب غضباً شديداً وكان بين يديـه بطيـخ وسكين ، فأخذ السكين وقال : اذبحي هذا الخبيث ، ثـم أمرّهـا علىٰ البطيـخ ،

فمات الرافضي مِن وقته وفي مكانه[1] .

من كلامه ومآثره :

❁ يقول شيخنا رحمه الله تعالىٰ :

"العارف الكامل المُشَرَّف بالبقاء الذاتي يشاهد جماله في مرايا العالم ، ويرىٰ نفسه كلاً وإجمالاً ، ويرىٰ العالم كله مظاهره وتفصيله ، ويُعاين ذاته سارياً في أفراد العالم ، محيطاً به إحاطة الكل في أجزائه" .

هذه المقالة تدل علىٰ أن الشيخ قالها بعد البقاء ، والبقاء لا يكون إلا بعد الفناء .

والفناء ليس كلاماً يقال أو يباع ويشرىٰ ، بل الفناء أن لا يجد لنفسه رتبة ولا منصباً ولا سناً ، ولا يجد لنفسه حقوقاً ، بل يجد نفسه قد ذابت ذوباناً تاماً أمام هذا .

❁ وقال قدس سره :

"كُشف لي عن طريق الكشف الحقيقي أن سائر الممكنات من العرش إلىٰ الثرىٰ محتاج إلىٰ الحبيب المصطفىٰ ﷺ" .

---

(١) من المعلوم أن الكرامة أمر مخالف للعادة ، وإن شيخنا عندما ذبح بطيخته تصرف بهذا الإنسان الذي أوقع بأبي بكر وعمر . ومن قائل يقول : كيف يجوز لمسلم أن يقتل مسلماً والرافضي يقول : لا إله إلا الله؟ والجواب علىٰ ذلك ما قاله فقهاؤنا وعلماء أمتنا ، وما هو عقيدة كل واحد منا: أنَّ مَن أنكر صحبة أبي بكر كان كافراً حلال الدم . ونفهم من القصة أن شيخنا الإمام محمد المعصوم كان يعلم أن هذا الرافضي كان منكراً لصحبة أبي بكر ؛ لذا تصرف به علىٰ أنه إنسان مرتد غير قابل للإيمان ، فتصرف به كما اطلعت علىٰ القصة وقتله مرتداً ، وبذلك ينتفي الشك بفعل شيخنا وفعل غيره مما يمر معك في هذا الكتاب وغيره ، والله أسأل أن يلهمنا فهم تصرفات أولياء الله كي لا نقع بأمور لا تحمد عقباها ، فافهم والله الموفق للصواب .

بمعنى أن سيدنا محمداً ﷺ مسؤول عن هذه العوالم ، ومُمدها بمدد الله ، وكثير من العوالم التي تخفى علينا تسير ببركته ﷺ .

فكما أن الوليد يحتاج إلى أبيه وأمه ، كذا العالم فهو مرتبط بسيدنا محمد ﷺ ارتباط وسيلة لا غاية .

وقد كُتب على حمائل العرش (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . فهو ﷺ أفضل المخلوقات قاطبة ، ولا يختلف أحد من العارفين في ذلك . ومن وصل إلى واحد من بليون من الشك من الأولياء طرد من المعرفة ، بل طرد من رحمة الله البتة .

وما وصل ولي من أولياء الله إلى المرتبة التي وصل إليها إلا بدرجة حبه لرسول الله ﷺ ، وكل على حسب درجته .

والعارف أحياناً يريه الله أشياء لا يستطيع أن يبوح بها ولو لأقرب المقربين إليه ، وعندما يرى ذلك يراه بالعين المجردة عرشاً وفرشاً .

❁ ومن كلامه في مكتوباته :

"اعلموا أيها الإخوان أن المقصود من خلق الإنسان تحصيل معرفة الحق تبارك وتعالى الواضح البرهان ، والناس في ذلك – يعني الكبار لا العوام – متفاوتون على حسب تفاوت الاستعدادات والأفهام .

وإن القدر المشترك بين هذه الطائفة وما أجمعوا عليه الذي لا بد منه في مدارج القرب ، أن المعرفة لا تُتصور بدون الفناء في المعروف ، فمن لم يكن عن نفسه متفانياً لا يهتدي لحقيقة التوحيد .

وإني على خوف من البعد والهجر ، فيبقى لنا غماً إلى غاية الحشر" .

❁ وقد سئل شيخنا قدس سره : هل يتعرض الشيطان لسالكي هذه

الطريقة؟ فأجاب : قال الشيخ عبد الخالق الغجدواني قدس سره :

"إن لم يصل السالك إلى حد فناء النفس يجد الشيطان إليه سبيلاً عند الغضب . وأما الواصل إلى فناء النفس فلا يكون له غضب بل غيرة ، وعند الغيرة يفر الشيطان" .

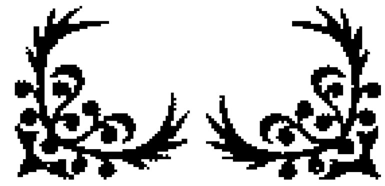
والمقصود هنا من الغيرة أي الغيرة على الشريعة والدين ، فالشريعة عرضنا ، والحقيقة شرفنا ، والعارف يغار على الشريعة والحقيقة .

ويفسرها قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر : ٤٢] . فالياء هنا في عبادي هي ياء النسبة ، وهي تعني الأنبياء والصديقين وكبار الأولياء الذين فنوا بذات الله سبحانه ، حيث يرون العالم والعوالم كلها برؤية تختلف عما يراه الغير ، فمتى جاوز السالك هذه المرتبة يصبح كلام الناس واستفزازهم سواء ؛ لأنه يغار على الدين لا على نفسه ، فهو قد أسقط كل أموره .

وفاته :

توفي قدس سره سنة تسع وسبعين بعد الألف من الهجرة الشريفة في بلده ، وقبره يزار ويتبرك به .

ثم انتقل السر الشريف بعده إلى ولده الشيخ محمد سيف الدين الفاروقي قدس الله سرهما العزيز ، وأفاض الله علينا وعلى العالمين أنوارهما وبرّهما .



٢٦ - سيدنا الشيخ محمد سيف الدين الفاروقي

نسبه ومولده :

هو ابن سيدنا الشيخ محمد المعصوم جسماً وروحاً .

وقد ولد قدس سره سنة خمس وخمسين بعد الألف من الهجرة .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

اشتغل شيخنا بطلب العلم الشرعي منذ نعومة أظافره ، فتعلم جميع أمور الشريعة وما لها من آلات .

وكان بعد ذلك معرضاً عن الخلق إعراضاً كاملاً ، عاملاً بعلمه ، مقبلاً على ربه عز وجل بكله . وكل ذلك قبل أن ينال شرف الطريقة من والده الشيخ محمد المعصوم .

وبعد انتهائه من تحصيل العلم الشرعي ، ألح على والده بالانتساب للطريقة النقشبندية العلية . فلما رآه أبوه أهلاً لذلك أعطاه الطريقة ، ثم جدّ واجتهد حتى حصّل الكمالات المعنوية ، وبلغ أقصى غايات القرب ، ووصل إلى نهاية المقامات .

ولما تم أمره وكمل بدره ، اختار الإقامة في بلدة دلهي ، وذلك بأمر والده وشيخه ، وبإشارة غيبية له .

وقبل الوصول إلى نهاية المقامات ، كان لشيخنا قدس سره جذب قوي بحيث يتأثر به كل من نظر إليه وجلس أمامه .

وبعد الوصول كان له تصرف عال جداً ، يتصرف بأمور الناس ، ويتوجه إلى القلوب التي تكون قد أذعنت إلى أمر من الأمور المخالفة ،

فتتغير القلوب بإذن الله تعالىٰ .

وهذا ما يسمىٰ بالتصريف ، وهناك تصريف عام وتصريف خاص ، وهذه درجات ستعرفها بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

أجل ، كان له سر غريب وعظيم قدس سره بحيث كان كل مَن يدخل إليه يتغير حاله ، فمن دخل إلىٰ السوق يريد أشياء كثيرة ورآه تغير كل ذلك إلىٰ خلاف ما يريد قبل السوق ، فيذهب إلىٰ الشيخ ويقبل يديه ، ويجلس متأدباً كغيره من الناس ، فإذا ابتعد عن الشيخ تعجب بالحال الذي حصل له ، ثم يرجع مرة ثانية بنفس النية الأولىٰ ، فإذا وصل إلىٰ باب الشيخ تغير حاله . . .

وهكذا حال الشيخ بجذبه القوي وتصرفه العالي ، بحيث كان الناس يضطربون من قوة توجهاته ، ويبقون بدون اختيار بين يديه .

ومن قوة توجهات الشيخ قدس سره أنْ تأثر به سلطان زمانه الملك محمد عالمكير ، الذي تتلمذ علىٰ يديه وأدركته بركته ، فكان يأتي بسلطانه وحاشيته ويجلس بين يديه . ولا زال يطلب منه الطريقة حتـ أعطاه الطريقة ، وأصبح مريداً ملازماً في حلقة درسه . ثم أدركته العنـ حتىٰ حفظ القرآن الكريم في سن غير مبكرة ، حيث كان قد ت الستين . وكان دائماً يثابر علىٰ تعلم أمور الشريعة هو وأولاده وصل بيُمْن همته وبركة شيخه إلىٰ مقامات شريفة رفيعة .

كما انتفع به خلق كثير ، وأصبح سلطان الأوليا في زمانه ووقته .

بعض مناقبه وفضائله :

كان قدس سره لا يتهاون بأمور الشريعة ، بل كان إذا سمع بمنكر في ناحيته ذهب إليه وأزاله . وكان يسير معه لفيف كبير من إخوانه ومريديه ؛ ليزيلوا المنكر بمعية شيخهم ومربي أرواحهم ، إما باليد أو اللسان إذا احتاج الأمر .

فكان لا يرضىٰ بمعصية أو مكروه ؛ لأنه يعتبر أن الشريعة والحقيقة متلازمان ، كل واحد منهما محتاج للآخر . هما جسم وروح ، فلا بد للجسم من الروح ، ولا بد للروح من الجسم .

لهذا رجال طريقتنا تمسكوا بالشريعة والحقيقة ، وبأوقات لا أقول : قد هُيِّئت لهم ، بل هناك مَن فسّقهم ، ومَن كفرهم ، ومَن حاول بترهم وقتلهم ، ومن كان يبث الدعايات عليهم . ولو قرأتَ لرأيتَ الكثير من هذا ، إنما كل ذلك كان يدفعهم للأمام ؛ لأنهم وصلوا إلىٰ درجة الفناء .

فكان شيخنا لا يلتفت إلىٰ أبناء عصره ، وما ينعتونه به من الصفات التي إن دلت علىٰ شيء فإنما تدل علىٰ حقد وحسد قائليها ، بل كان دائماً واقفاً عند قول النبي ﷺ : « فإن كل ذي نعمة محسود »[1] .

فكلما ارتفع مقام العارف بالله ، كلما كثر ابتلاؤه وأعداؤه من أعوان إبليس ، وكثر حساده . فهم يختلقون عليه بأفعال وكلمات قد يصلون بها

---

(١) رواه الطبراني في الثلاثة بسند ضعيف عن معاذ بن جبل . وكذا البيهقي في شعبه ، والديلمي في الفردوس ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن أبي الدنيا ، والعسكري ، والقضاعي .
ويستأنس له بما أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس مرفوعاً : [إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم] .

إلىٰ تكفير العارف ، لكن العارف دائماً يتأسىٰ بسيرة سلفه ، ويعتقد أنها سنة الكبار ، فما من كبير في طريقنا إلا وابتلي علىٰ مستوىٰ الباطن والظاهر .

فشيخنا ابتلي ، لكنه صبر وأمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر ؛ لذا كان أبوه في حياته يسميه بمحتسب الأمة .

ولقد كان لسيدنا محمد سيف الدين في عصره شوكة ومكانة ظاهرة ، حتىٰ كان السلاطين والأمراء في بلاد نائية يقومون علىٰ أرجلهم بالأدب التام بين يديه . وكان في حلقته يجلس الناس علىٰ حسب مكانتهم الروحية لا الدنيوية .

وكان قدس سره بغاية الكرم والجود ، وكانت أموره المادية واسعة بفضل الله ، بابه لا يغلق أمام الضيف ، ويأكل من مطبخه كل يوم ألف وأربعمائة رجل صباح مساء .

وبالمناسبة أقول : ما اتخذ الله ولياً بخيلاً ، فولاية وبخل لا يجتمعان ؛ لأن البخيل يقول بلسان حاله: إنه قانط من رحمة الله ، والولي ليس بقانط .

وفاته :

بقي شيخنا علىٰ هذه الحالة حتىٰ توفي قدس سره سنة خمس وتسعين بعد الألف من الهجرة ، ودفن في بلده سهرند .

كان له خلفاء حنفاء ، ملؤوا البلاد إرشاداً ، والعباد إمداداً . ومن أعظمهم شيخ هذه السلسلة المنورة ، وأكمل من سرىٰ إليه سر هذه النسبة المطهرة ، سيدنا الشيخ نور محمد البدواني قدس الله سره العزيز .



٢٧ - سيدنا الشيخ نور محمد البدواني

هو فرع من فروع الشجرة النبوية الزاهرة ، وطراز عصابة آل البيت الطاهرة .

هو سيد شريف أظهر الله تبارك وتعالىٰ الشريعة والحقيقة في أيامه ، وظهر ظهور البدر ليلة تمامه . فكم أحيىٰ من سنة ؟ وكم درس وقطع من بدعة ؟ قدس الله سره الشريف .

جانب من حياته ومناقبه :

لقد غلب علىٰ شيخنا قدس سره في أواسط أمره - أي قبل أن يبلغ درجة الكمل - الاستغراق خمسة عشر عاماً ، فكان لا يفيق من غيبته إلا وقت الصلاة ، فإذا صلىٰ غاب ، وهذا مقام .

وبقي علىٰ ذلك تلك الفترة حتىٰ كمل حاله ، ووصل إلىٰ درجة الفناء ثم البقاء ، ثم بعد ذلك عاد إلىٰ درجة الصحو التام . وهذا كما عرفناه لكل من مر معنا في هذه السلسلة الطيبة .

ولقد استلم بعد شيخه محمد سيف الدين قطبية زمانه ، وكان بابه قبلة للأولياء ، وكانت أعتابه رحلة للأتقياء ، يحل المشكلات العويصة في مجالات الحقيقة والشريعة . فإذا أشكل علىٰ عالِم أمر من أمور الشريعة جاءه وأعطاه الجواب ، وإذا أشكل علىٰ ولي كبير مقام من المقامات في الحقيقة جاء إليه وأشار إليه .

ومع علو مقامه كان ملازماً علىٰ مطالعة كتب السيرة والشمائل والأخلاق المحمدية متأسياً بها ، يتعلم منها كل يوم ؛ لأنه كان يعتقد

بأن المرء كلما قرأ السنة أكثر كلما فهمها أكثر وطبقها أكثر .

فكان كثير المتابعة للسنة الشريفة ، ويعتبر كما نعتبر نحن بأنه لا وصول للأولياء الكبار إلا باتباع السنة بعد أداء الفرائض ، ثم التمسك بها والتأدب أمامها .

لذا كان مشايخنا يقولون ولا زلنا نقول : لو رأيتم العصافير تنادي الرجل وتقول له : مرحباً بولي الله ، مرحباً بالعالِم . . وهو مخالف للشريعة ، فاعلموا أنه مستدرج . قال تبارك وتعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَلَم : ٤٤] .

فعندنا الميزان - ميزان الشريعة - لا نبتعد عنه ، بل نتمسك به كتمسكنا بأرواحنا ، والشريعة أغلى عندنا من ذواتنا ومن ذراتنا . فمن نازعنا في ذلك خاصمناه بسيف الشريعة ؛ لأنه السيف القاطع البتار ، ومن كان هذا شأنه كان النبي ﷺ معه دائماً .

لذا كان صاحب سيرتنا قدس سره دائماً يحث تلاميذه على اتباع السنة ، ويقول : هي باب الوصول إلى الله تعالى .

يروى أنه دخل مرة برجله اليمنى إلى بيت الخلاء قبل اليسرى سهواً ، فانقبض قلبه ثلاثة أيام من مخالفته للسنة الشريفة ، فجعل يتضرع ويلتجئ إلى الله تعالى حتى بدّل قبضه بسطاً .

وكان قدس سره يحتاط أشد الاحتياط في أكل الحلال ، حتى إنه كان يزرع بيده ، ويحصد بيده ، ويطحن بيده ، ويخبز كذلك بيده الشريفة أقراصاً ، ويأكل منها عند شدة الجوع حتى تنتهي ، فإذا انتهت خبز غيرها ؛ وذلك لأنه يعلم أن كل جسد ينبت من الحرام فالنار أَوْلى به .

وكان قدس سره لا يأكل إلا عند شدة الجوع ، وبعد الطعام يشتغل بالمراقبة ، وكذا غالب أوقاته . فيتجه للقبلة ويطأطئ رأسه بخضوع إلىٰ ربه ، وهكذا يعيش بحياة ثانية ، جسمه مع الناس وهو في مكان آخر . حتىٰ إنه من كثرة مراقبته قد تقوس ظهره .

وكان في حياة شيخه الفاروقي يقوم بخدمته وبأموره حتىٰ وفاته رحمه الله تعالىٰ ، وبخدمته أكرمه الله بهذا المقام الذي وصل إليه .

ولقد تكلم شيخنا بكلمات قدسية أثبتت جلالة رتبته العلية ، ومكانته في الشريعة والحقيقة .

بعض كراماته :

لقد ظهرت علىٰ يد الشيخ كرامات كثيرة جلت في بابها عن المشاركة ، منها :

يروىٰ أن امرأة جاءت إليه يوماً وقالت : يا سيدي ، إن الجن قد اختطفت ابنتي ، وقد عملتُ لردها أعمالاً كثيرة مع من يدّعي أنه يستطيع أن يخلص ابنتي من الجن فما نفعت ، فأغثني قد أتيت لك بعد أنْ عجزت ، وابنتي غالية عليّ جداً . ففكر الشيخ ساعة ثم قال : تجيء ابنتك في اليوم والوقت الفلاني إن شاء الله .

فذهبت المرأة وهي شاكّة في قوله ، فجاءت ابنتها في ذلك الوقت ، فسألوها عن كيفية مجيئها فقالت : ألقاني الجن في الصحراء ، فرأيت شيخاً كبيراً أخذ بيدي وأوصلني إلىٰ هنا . ووصفته فإذا هو الشيخ البدواني قدس سره .

ويروىٰ عن أحد أصحابه أنه قال : وقعت عيني في الطريق علىٰ امرأة أجنبية ، فلما وقفتُ بين يدي شيخي البدواني قال لي : إني أجد فيك ظلمة الزنا .

فكان قدس سره ينظر بنور الله ، وهذا أمر بسيط عند أهل الله . لذا قال النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[1] .

وقد كان للشيخ البدواني تلميذ كبير اسمه ميرزا جان جانان[2] ، فيقول هذا المريد : سألني مرة الشيخ كلشن - وهو من كبار المشايخ في ذلك العصر - فقال : هل بشّرك شيخك بأي مقام ؟ فقلت له بما بشرني به شيخي من المقامات ، وما وجدت في نفسي من حالات ذلك . فقال الشيخ كلشن متعجباً من ذلك ومنكراً : إن شيخك يدّعي دعاوي كثيرة ، فهو غير صادق بها .

فيقول الشيخ جان جانان : فذكرت ذلك إلىٰ السيد البدواني فقال : إن علمي ليس بعلم الله حتىٰ أكون محيطاً بكل شيء ، وأنا لست نبياً حتىٰ يكون الإنكار عليّ كفراً ، وأنا مسامح لما نعتني به . فتركت ملاقاة الشيخ كلشن بعد ذلك ، وكان واجباً عليّ أن أقاطعه ، حيث سمعت الشيخ عبدالله الأنصاري يقول : إذا أحببت من يبغض شيخك أو جالسته كثيراً واختلطت به فالكلب أفضل منك .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، ورواه الترمذي في النوادر والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن عن أبي أمامة . كما رواه البخاري في تاريخه ، والعسكري ، والخطيب ، وأبو نعيم ، وغيرهم .

(٢) هو اسم فارسي ، ومعناه روح الروح .

فقاطعته حتى مر عام ، فالتقيت به بالصدفة فقال لي : لعلك هجرتني لإنكاري على شيخك ؟ قلت : نعم ، فقال : قد أظهر الله لي كمال شيخك ، وإني كنت على غير الحق ، وقد رجعت وتبت إلى الله . فلقد أدركته العناية الربانية .

ولقد ذكرت هذه الحكاية ؛ ليعرف المريد كيف يكون مع الآخرين إذا وقفوا هذا الموقف المعادي لشيخه .

وفاته :

توفي قدس سره يوم الحادي عشر من ذي القعدة سنة خمس وثلاثين ومائة بعد الألف .

ثم انتقل السر الشريف بعده إلى سيدنا وشيخنا حبيب الله جان جانان المظهر قدس الله سره العزيز .



٢٨ - سيدنا الشيخ شمس الدين حبيب الله جان جانان المظهر

نسبه ومولده :

هو من السادة العلوية حيث ينتهي نسبه إلىٰ سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من ابنه محمد بن الحنفية .

ولد قدس سره في رمضان عام أحد عشر ومائة وألف من الهجرة .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

ولد شيخنا قدس سره وآثار النجابة في ناصيته ، وكان بعيداً عن أمثاله من الصبية ، له شأنه الخاص .

وكان يرىٰ أجساماً غريبة ، والملائكة تزوره وهو في سن مبكرة .

ولما بلغ تسع سنين من عمره رأىٰ مناماً لسيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فشرّفه بأنواع الكرامات ، وكانت بعد ذلك علامات الولاية لائحة من حركاته وسكناته .

وكان كلما ذُكر سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه تمثلت صورته أمامه ، ويراه بعينيه في يقظة ، وهذه الرؤيا كانت تعلمه علىٰ حسب مستواه . وكذلك كان يرىٰ الإمام الرباني أحمد الفاروقي قدس سره .

فمنذ صغر سنه كان شيخنا مداركاً بالعناية والرعاية الإلهية ، وملاحظاً من قبل الحضرة النبوية الشريفة ، ومن قبل الأولياء الكبار ؛ لِيُعَدَّ إلىٰ ما سيجد أمامه من المهام الملقاة عليه في حياته .

يقول قدس الله سره العزيز :

كنت في صغر سني أذهب مع والدي إلىٰ شيخ ، وكان هذا الشيخ يتهاون بالصلاة ، فقلت لوالدي : يا أبتاه ، لماذا يتهاون شيخك في الصلاة ؟ فقال : يا ولدي ، إنه قد يكون غائباً وفي سُكر . فقلت : يا أبتاه ، أيصلح أن نأخذ الطريق عن غائب ؟ حيث كان أبي يطمح أن آخذ الطريقة عنه ، فقطعت علىٰ والدي ما يريد ، فقال لي : يا ولدي ، أنت منذ صغرك مدارك بالعناية ، وتركني .

مع العلم أن آباءه الكرام وأجداده العظام كانوا ملوك زمانهم ، وكانوا من الأمراء ذوي الاحتشام ، الموصوفين بالأخلاق الحميدة والأوصاف الجميلة ، والمعروفين بالمروءة ، والعدل ، والشجاعة ، والسخاء ، وكمال الديانة مع المنصب . كانوا متمسكين بدينهم ، ولم يغتروا بزخارف هذه الدنيا الفانية . حتىٰ إذا بلغت نوبة الإمارة والملك والده ، ترك الجاه والمنصب باختياره ، واختار دولة الفقراء الصوفية ، ولزم القناعة ، وقسم أسباب المنصب والجاه علىٰ الفقراء ، وذلك لإرضاء مولاه ﷻ.

فأبوه طلق الدنيا وأعطاها لغيره ، وأعرض عن المنصب والجاه ، واختار أن يكون ضمن أهل الله . فكان من عائلة النجباء ، وحوىٰ أمور السيادة ، وعرف كيف يسوس البلاد ، ويسوس الأمة وأمور الصنع .

ومع هذا اهتم والده الكريم بتربيته التربية الإسلامية الصحيحة ، وأكد عليه أن يقسم جميع أوقاته لكسب الكمالات في صغر سنه . فعلمه الآداب السلطانية ، حتىٰ إذا أراد غير طريق الفقراء سار سير أجداده وكان أهلاً لذلك . كما علمه الفنون العسكرية ليكون أهلاً لقيادة الجيوش ،

وعلمه سائر الصنائع الضرورية والمعارف اللازمة ، هذا بالإضافة إلى علوم الشريعة والحقيقة .

وكان يقول له : لو كنتَ أميراً كما هو دأب آبائك وأجدادك لعرفتَ قدر أرباب الصنائع والمعارف ، حيث مَن لم يعرف شيئاً فإنه لا يعرف قدر أربابه .

وبتعبير آخر يقول : لا يعرف الفضل إلا ذووه ، فإذا عرفت حقيقة الصنائع والفنون بكاملها تعرف قيمة أهلها ، فكيف يعرف قيمة العلماء إلا إذا كان عالماً ؟ وكيف يعرف قيمة الأولياء إلا إذا وصل إلى مكان شاهد فيه مراتب الولاية ؟ . . وهكذا .

ثم يكمل أبوه فيقول :

وإن كنتُ قد اخترتُ لك الفقر (التصوف) والتجرد كما هو ظني بك ، ولا أعني بالفقر أن تكون عالة على الناس ، بل الفقر أن تسلك درب القوم الذين طلقوا الدنيا ، وانطلقوا إلى الله . فقد وضعت أمامك المصباح الذي ينير لك الطريقين ، فإما طريق الإمارة فتحافظ عليها ، ومع هذا تحافظ على أمور دينك وأخلاقك ، وإما أن تسلك طريق الفقراء الصوفيين العارفين .

لذا فإن شيخنا كان عارفاً بجميع الفنون ، حتى إنه إذا التقى بصاحب صنعة من الصنائع كان يعترف له بمهارته وكماله فيها . فعلى سبيل المثال كان يعرف خمسين نوعاً من تقطيع السراويل ، وهذه من جملة ما تعلم .

حتى إذا بلغ قدس سره الثامنة عشر من عمره فاق وبرع في كل فن ، ثم بعدها أتته الجذبة للحق .

وهذه الجذبة لا يعرف حقيقتها إلا من ذاقها ، وأعني بها أن يكون الشخص في طريق ثم فجأة يجد نفسه وقد تحول إلىٰ طريق آخر .

فشيخنا كان يسلك طريق الفنون والصنائع ، وفجأة استيقظ فوجد نفسه قد انطلق في درب الله . أي تداركته العناية الإلهية الربانية ، وضمته إلىٰ صف أناس هم قريبون من الحضرة الإلهية ومن عناية الله ، لا يشترون الدنيا ولا أهلها بشيء من الثمن ، ليس مقصودهم الجنة بل مقصودهم : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) .

ولقد عبّر عنهم الإمام النووي في أول رياضه بقوله :

إن لله عباداً فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلمّا وجدوا ... أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

اعتبروا الدنيا بحراً ، وجعلوا أعمالهم الصالحة سفناً تنقلهم إلىٰ الحضرة الإلهية .

فشيخنا قدس سره كانت جذبته قوية ، وهذه الجذبة جعلته ينطلق إلىٰ الله تبارك وتعالى بدون حوافز .

لهذا بعد هذه الجذبة ألهمه الله تبارك وتعالىٰ وأكرمه بخدمة سيد الزمان الشيخ نور محمد البدواني قدس سره ، فتلقىٰ عنه الطريقة العلية النقشبندية .

ولازم خدمة شيخه مع كمال الصدق ، والاشتغال بالرياضات الشاقة لتهذيب النفس والروح .

ثم بعد ذلك بإشارة من شيخه ، اختار السياحة في البراري والصحاري ،

في الجبال والشعاب ، ينام في الكهوف ، ويقتصر على التغذي بأوراق الشجر ، والاكتفاء من اللباس على ساتر العورة ، مدة سبع أو أربع سنين .

وهكذا هيئت له الدنيا ولكنه رفضها عن اختيار ، وخطب ما هو أسمى من ذلك . فكان يسيح في البراري مع الوحوش ، ويسير من جبل إلى جبل ، ومن واد إلى واد ، طلباً للحقيقة .

ولقد علمنا من سيرة نبينا المصطفى ﷺ أنه في بداية أمره حُبِّبَ إليه الخلاء قبل البعثة ، فكان ينطلق إلى غار حراء وإلى جبل النور ، وكانت عبادته التفكر في السماء والكواكب حتى نزل عليه جبريل الأمين .

وأنا لا أقول : كل أهل الله هكذا ، ولكن غالب هؤلاء العارفين كانوا يبدؤون بالسياحة ، أي بالابتعاد عن الناس والانطلاق في الأماكن الحرة الطليقة ، يسيرون من قارة إلى قارة ، وكانت تطوى لهم المسافات بعد ذلك ، ليريهم الله عوالم كثيرة ، وليعدّهم إلى أمور ثانية .

وكان مع هذا قدس سره يحب شيخه حباً كثيراً ، حتى وصل به الحد إلى أنه إذا نظر في المرآة لينظر إلى وجهه ، يرى شيخه بدلاً من أن يرى نفسه .

ثم بعد أن عاد من البراري وبإشارة ، رجع ولازم شيخه حتى توفي ، وكان على العهد صادقاً .

وبعد وفاته كان يتوجه إلى قبره ويستفيد منه ويستفيض مدة سنتين ، حتى أذن له شيخه عن طريق الروح بأشياء كثيرة ، وبلغ أعلى الدرجات .

وفي هذا المجال فإن أناساً شذاذاً يريدون أن يستغلوا مقامات الأولياء والصالحين ؛ ليظهروا بثوب كثيابهم ، من أجل شهواتهم وملذاتهم وأغراضهم الدنيوية ، فيقولون : اتصل بنا الشيخ وقال لنا : اعملوا كذا ،

ومنهم من يغمض عينيه ويقول : قال لي الشيخ كذا ، ومنهم من تتطور معه الأمور ويقول : إنه التقىٰ مع النبيﷺ ، والنبي وجَّهه وقال له كذا . والحقيقة أن إبليس هو القائل الحقيقي ، وهو يلعب به كما يلعب الصبيان بالكرة .

فليحذر الناس من أمثال هؤلاء كل الحذر ، فإنما هم أدعياء علىٰ الصوفية والصالحين ، ولا يرقبون الله تبارك وتعالىٰ في أقوالهم ولا أفعالهم ، ولا يخشون يوم الدين .

ولقد رأينا ذلك في الذين كانوا يداومون علىٰ درسنا ، وبعد ذلك قطعهم إبليس ونفوسهم عن هذه الجلسات ، وأصبحوا يسيرون مع أهوائهم وشهواتهم ، والتف حولهم عدد من الناس زادوهم بعداً وضلالاً ، فإياكم من هذا الطريق المظلم الذي نهايته جهنم .

فهؤلاء ما وصلوا إلىٰ واحد من بليون مما وصل إليه العارفون ، هم يوجهون الأمور حسب رغباتهم ، وإبليس في الحقيقة هو الذي يوسوس لهم .

نحن عندنا الاستخارة وهي من السنة ، وأما هؤلاء فنقول لهم : عودوا إلىٰ رشدكم وصوابكم ، وكونوا مع الشريعة والحقيقة دائماً .

وأما رجالنا فكانوا يجتمعون مع الشيخ مباشرة ، ولقد حصل لكثير من الأولياء والمشايخ أنهم كانوا يلتقون بمشايخهم علانية ، كما روي عن الشيخ عبدالغني النابلسي الذي أخذ غالب علومه عن الشيخ محيي الدين ابن العربي وبينهما أعوام كثيرة .

وهذه كرامات للأولياء علىٰ المسلم والمسلمة التسليم لها . فالكرامة هي أمر خارق للعادة ، وهي لا تكون لكل الناس .

وهنا كذلك ناحية أحب أن أتعرض لها ، وهي أن إبليس والنفس

والدنيا أعداء لنا ، ولقد أقسم إبليس أن يقطع الطريق على كثير من الناس ، فنرى هناك أناساً من أجل مصالحهم الشخصية وأمورهم الدنيوية يتمثلون بثياب الصالحين وصفات الأولياء ، ويتسكعون بكلمات يحفظونها من الكتب ليغروا بها الناس . وهؤلاء على أقسام ، منهم مَن يعيش باسم أبيه فيقول : أبي عالم ، أو جدي عالم ، فيستغل ذلك حتى يصل إلى مآربه .

فأقول : لا تخالطهم أيها القارئ واحذر منهم ؛ لأنهم أعداء للسنة والحق ، بل أعداء لأنفسهم .

نسأل الله العلي العظيم أن نكون من الواعين المداركين بعنايته ورعايته ؛ لنصل إليه كما يحب ويرضى .

جانب من حياته ومناقبه :

كان شيخنا قدس سره على أتم حال في الاستقامة ، واتباع السنة السنية ، وإحياء آثار الطريقة ، واتباع الزهد والورع ، وعدم الركون إلى الدنيا وأهلها .

كان يختار الفقر على الغنى ، ويحب الكفاف لنفسه ولأصحابه .

كان يحب العزلة والابتعاد عن الخلق ، لم يَبْنِ لنفسه رباطاً ولا بيتاً طيلة حياته ، مع شدة إلحاح تلاميذه الأغنياء عليه في ذلك الأمر .

وكان لشيخنا كرامات كثيرة جداً ، وتصرفات جسيمة . وكانت له كشوفات صحيحة على الأمور الكونية ، وأحوال أهل القبور ، والحقائق الإلهية مما لا يمكن حصره .

فكان يَشد إليه الرجالُ الرحالَ في مجال الشريعة والحقيقة أكثر من ثلاثين عاماً .

وأقول : الشريعة والحقيقة ؛ لأنه لا بد لكل ولي ومربٍ وموجه أن يعلم مريديه أمور الشريعة والحقيقة ، إذ لا بد قبل وضع المريد في طريق النور مِن أن يُسَلَّح بالسلاح الذي يحميه .

من كلامه ومآثره :

❁ كان يقول قدس سره :

"الخير كل الخير بمحبة المريد لشيخه" .

وهذه كلمة طيبة ، فكلما أحب المريد شيخه كلما رقىٰ أكثر ، وعن طريق حبه لشيخه يرتفع .

كل يوم يجب أن يجد نفسه محباً للشيخ أكثر من الذي قبله ، يثق به ويسلم له كل مواثيق أموره ، وينطلق دون التفات حيث اختاره وعلم أنه يدله علىٰ الله .

والرجال بمواقفهم ، وهذه المواقف هي التي ترفعهم ، وهي التي تعدلهم وتقربهم . وهذا سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أكمل رجال طريقتنا بعد رسول الله ﷺ ، فما عُهد إلينا أنه وقف عند شيء بل كله كان عطاء ، اعتنق العقيدة ووضع كل شيء عند حبه ومع حبه ، النفس والمال والوقت والولد ، بل وضع جميع مقاليد أموره ، ووضع التسليم التام .

وأقول : إياك أن تحب الشيخ لذاته وهذا ما عليه الكثير من الناس اليوم ، يجب أن تحب الشيخ لما هو أسمىٰ من ذاتك ، وبذلك تكون قد انتصرت علىٰ ذاتك ووصلت إلىٰ عالم الطهر ، عندها تستفيد وترشف كثيراً .

❁ وقال قدس سره :

"إن المريد يُوهَبُ بمحض الله تعالىٰ عن طريق الطريقة أشياء لا حصر لها" .

۞ وقال قدس سره :

"لا تنفتح عين القلب إلا بكثرة الذكر" .

فإن المداومة على الذكر تكشف عن القلب الضباب والران ، وتجعله قريباً من حضرة الملك الديان .

۞ وقال قدس الله سره :

"إذا ورد على المريد حال الاستغراق خلال الذكر ، وجب عليه أن يداوم على ذلك ويحافظ عليه . فإذا ذهب هذا الحال ، فعليه أن يشرع في الذكر مرة ثانية مع التضرع التام ، وأن يلازم ذلك حتى يعود له ذلك الاستغراق" .

وتعبير الحال عند السادة الصوفية هو حال يأتي ويذهب ، وهو غير مستقر . وصاحب المقام كالذي عمّر وبنى وأسس وجلس في هذا المقام ، الجبال تزول أمامه وهو لا يزول ، فهو ثابت وهو الأعلى . وهناك مقامات كثيرة منها : مقام الإخلاص ، ومقام البقاء ، ومقام الفناء ، ومقام عين الحقيقة . . وغيرها .

فيقول شيخنا : إذا جاءك حال عليك أن تحافظ عليه وتنميه حتى تجعله مقاماً ، فإنك في حال سرور فأدم عليك ذاك السرور ، واقطع كل ما يشوش عليك ويقطع عنك هذا الحال .

فإذا ذهب عنك هذا الشيء أعده مرة ثانية بالذكر والمراقبة والقرب ، فإذا رجع عليك فحاول أن تحافظ عليه كالعصفور داخل القفص ، أغلق عليه باب القفص ، فإذا أغلقت الباب أصبحت في مقام ، ثم انطلق بدون حدود .

۞ وقال قدس سره :

"لا بد لمريد هذه الطريقة من أن يكون قد هذب أخلاقه على وفق مكارم أخلاق النبي ﷺ ، حيث قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1]" .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة والبيهقي في سننه ، وقال ابن عبدالبر : هو متصل من وجوه صحاح . ورواه أحمد والخرائطي بلفظ : [صالح الأخلاق] .

فلا بد لابن الطريقة من أن يتخلق بالأخلاق المحمدية الشريفة .

❁ وقال قدس سره :

"العمل بالعزيمة في هذا الزمان صعب جداً ؛ لفساد المعاملات وعدم إمكان تطبيقها على قواعد الشريعة" .

لذا على المريد أن يحاول في زماننا أن يكون بعيداً عن الناس قدر الاستطاعة ، حتى يستطيع أن يحافظ على العزيمة .

ويعني شيخنا بالعزيمة أي الورع ، فعلى الإنسان الأخذ بالعزائم لا بالرخص ، إذ الأخذ بالرخص من صفات الضعفاء . فمثلاً أمامنا قولان معتمد وضعيف ، فنأخذ بالمعتمد حيث الضعيف يأخذ به الضعيف أو العاجز .

وعلى المربي أن يربي المريد على معالي الأمور والأخذ بالعزائم لا سيما في مقتبل حياته .

واحفظ هذه العبارة التي كانت في بدايتنا نصب أعيننا : "من لم تكن له بداية محرقة ، لم تكن له نهاية مشرقة" . أي مَن لم تكن له بداية جادة قوية لا تعرف الهوادة مع النفس والهوى والشهوات لم تكن له نهاية مشرقة .

❁ وقال قدس سره :

"الأخذ بظاهر الفتوى مع اجتناب البدعة غنيمة عظيمة" .

❁ وقال :

"ينبغي للسالك أن يعمر أوقاته ويستغرقها بالذكر والعبادة ، وحفظ مدركته عن الالتفات إلى السوى ، وصون سره وهمته عن التوجه إلى غير مفهوم لفظ الجلالة ، حتى تكون مَلَكَة حضوره راسخة" .

❁ وقال :

"إن دوام المراقبة يورث القوة في نسبة الباطن ، والاطلاع على المُلك والملكوت" .

❁ وقال قدس سره :

"إن كثرة ذكر التهليل تورث فناء الصفات البشرية" .

حيث التهليل مفيد في الطريقة بشرط ملاحظة المعنىٰ ، فلا إله إلا الله نفي وإثبات ، تنفي الألوهية عن الغير وتثبتها لله سبحانه .

❁ وقال قدس سره :

"إن التكثير من تكرار اسم الذات مثمر لنسبة الجذبة الإلهية ، ويفيد النفي والإثبات في السير والسلوك وقطع مسافة الطريق" .

أي يساعد علىٰ الجذبة الإلهية ، فحاول أن تراقب ذلك .

والجذبة الإلهية ليست بكلام يقال ، فكثير من الناس يتكلمون في الدين وهم لا يعلمون ، كالمستشرقين الكفار الذين لديهم شهادات عالية في الإسلام والدين . إنما الجذبة تعني أنه أُخذ جسماً وروحاً وأصبح من عباد الله الفطناء .

الجذبة الإلهية هي أحلىٰ علىٰ صاحبها من أي شيء من أنواع اللذات والشهوات ، ينطلق إلىٰ الله باختياره . ولكن أقول : هؤلاء رضي الله عنهم ورضوا عنه ، اختارهم فاختاروه ، وطلبهم فلبوه وأجابوه ، فالطلب منه تعالىٰ .

ولقد قال السهروردي في حقهم :

والله ما طلبوا الوقوف ببابه   حتىٰ دُعوا وأتاهم المفتاح

هم خُطبوا للحضرة الإلهية ، فتدعوهم إليها فينطلقون بدون التفات ، لا يغترون بسلطان أو مركز ، إنما يعتبرون كل شيء يهون أمام الوصول إلىٰ الله تعالىٰ .

وهذا ما تعنيه الجذبة الإلهية ، لفتة إلىٰ الحق والنور ، تتولاه العناية الربانية وتطلب منه أن يسلك هذا الطريق النوراني الموصل إلىٰ الفردوس ، بل إلىٰ حضرة الله تعالىٰ .

❁ وقال قدس سره :

"ومِن أَجَلِّ النعم الإلهية في حقي سَوْقي نحو شيخي ، وإثبات محبته وعقيدته في قلبي" .

وفاته :

قال قدس الله سره العزيز : لم يبق في قلبي أمر رجوت الحصول عليه إلا وقد نلته بتفضلات الله تبارك وتعالىٰ عليّ . لقد شرفني بالإسلام الحقيقي ، ووهبني حظاً وافراً من العلم والاستقامة في الشريعة والحقيقة ، والعمل الصالح ، وكل ما يلزم في مشيخة الطريقة من التصرف والكرامات والكشف ، إلا الشهادة الظاهرية التي لها في مقام القرب الإلهي درجة عالية ، فما نلتها . فإن أكثر مشايخي قد شربوا كأس الشهادة ، أما الفقير فإني كثير الضعف والعجز ، فلا قوة لي علىٰ الجهاد وحمل السيف ، فحصول هذه المرتبة في الظاهر متعسر علي .

ولقد تمت له هذه المرتبة وأكرمه الله بالشهادة كما رجا ، فنالها شهيداً للظاهر والباطن . حيث تعرض له بعض أعداء الملة من المجوس بعد

أن انتشـرت دعوتـه في بـلاد الهنـد وفي كـل مكـان ، فطعنـه وذلـك ليلـة الأربعاء في المحرم سنة خمس وتسعين ومائة وألف مـن الهجـرة النبويـة ، فنال شهادة الشريعة والحقيقة قدس الله سره العظيم .

ثم انتقل السر الشريف بعده إلى سيدنا الشيخ عبـدالله الدهلـوي قـدس الله سره العزيز .



٢٩ – سيدنا الشيخ عبد الله الدهلوي

نسبه ومولده :

هو من آل بيت الرسول ﷺ الكرام .

ولد سنة ثمان وخمسين ومائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة ، في قصبة بَتالة من ناحية بنجاب .

كان والده الشريف الشاه عبد اللطيف عالماً ، عارفاً ، صالحاً ، زاهداً ، كبير الشأن .

يروىٰ أنه رأىٰ في المنام قبل مولد الشيخ عبد الله الإمام علياً كرم الله وجهه يقول له : سَمِّ ولدك باسمي ، فلما وُلد سماه علياً .

ولما بلغ شيخنا سن التمييز سمّىٰ نفسه تأدباً (غلام علي) ، أي خادم علي .

ثم رأىٰ رسول الله ﷺ في المنام يقول له : أنت اسمك عبدالله وعبدالمهيمن ، فقام من منامه وسمىٰ نفسه بعبد الله ، واشتهر به .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

لقد أقبل قدس سره علىٰ العلوم منقولها ومعقولها ، وانكب علىٰ قراءة أمور علوم الشريعة حتىٰ أصبح عالم عصره . حتىٰ إذا بلغ اثنين وعشرين من عمره أصبح شيخ العلماء والعارفين في الشريعة والحقيقة ، ومليك المرشدين الكاملين ، ومظهر العلوم ، ومنبع سر الهداية واليقين في عصره .

ولقد التحق بحضرة سيدنا الشيخ ميرزا جان جانان قدس سره بعد العشرين من عمره ، وسأله الدخول في الطريق ، فقال له : عليك بالمحل الذي

فيه الشوق والذوق ، أي واظب على مجالسة أصحاب الذوق والشوق لله تعالى .

ولقد كتب هو بخط يده قدس سره فقال :

إني بعد تحصيل علم الحديث والتفسير تشرفت بالوصول إلى أعتاب حضرة الشهيد قدس سره ، فبايعني على الطريقة العلية القادرية بيده المباركة ، ولقنني الطريقة النقشبندية العلية . فتشرفت بالحضور في حلق الذكر والمراقبة عنده خمس عشرة سنة ، تلميذاً متأدباً أجلس على الأبواب ، حتى تفضل على الفقير الحقير -يتكلم عن نفسه- بالإجازة المطلقة في الإرشاد العام -أي درجة الوراثة- .

ثم يقول : فترددت في أول الأمر في أنه هل يرضى الشيخ عبدالقادر الجيلاني أن أشتغل في الطريقة النقشبندية أو لا ؟ فرأيت الشيخ عبدالقادر في المنام جالساً في مكان ، وحضرة الشاه نقشبند في مكان تلقاءه . فخطر لي حينئذ أن أحضر عند الشاه نقشبند ، فقال الغوث الجيلاني في الحال : المقصود يا ولدي هو الله تعالى ، فاذهب لا مضايقة . عند ذلك قمت من نومي مسروراً ، وعرفت المقصود ، ولازمت الشيخ .

جانب من حياته ومناقبه :

لقد كان قدس سره في الذكاء آية باهرة ، فقد حفظ القرآن الكريم في شهر واحد ومكّنه وأتقنه . وطبعاً بالإضافة إلى الذكاء والفطنة فهناك عناية ربانية كبيرة ، وهي الأساس .

وكان قدس سره قليل النوم جداً ، فإذا قام للتهجد أيقظ النوام ، ثم يتهجد ويجلس للمراقبة .

وقد كان له وِرد من القرآن الكريم كل يوم عشرة أجزاء . ثم يصلي الصبح جماعة ، ثم يلتفت إلىٰ حلق الذكر والمراقبة إلىٰ وقت الإشراق . ثم بعد صلاة الضحىٰ يجلس لقراءة الحديث والفقه والتفسير إلىٰ قرب الزوال ، فإذا صلىٰ الظهر قرأ درسي حديث وتفسير . ثم بعد تناول الغداء يقيل قليلاً ، ويشتغل بمطالعة الكتب الدينية والحقائق وغيرها ، ثم يكتب التحارير الضرورية والمكاتب لتلاميذه المريدين إلىٰ وقت العصر ، فيصلي ثم يقرأ حديثاً وتصوفاً ، كمكتوبات الإمام الرباني ، وعوارف المعارف ، ورسالة القشيري . ثم يقعد في حلقة الذكر والتوجه العام إلىٰ المغرب ، وبعد صلاة المغرب يتوجه لخواص السالكين ، ثم يتناول العَشاء ، حتىٰ إذا صلىٰ العِشاء أحيىٰ عامة ليله بالذكر والمراقبة ، فإذا غلبه النوم اضطجع في مصلاه وربما نام وهو جالس .

وكان قدس سره دائماً يجلس حَبواً اقتداء بالنبي ﷺ ، ولم يُعلم أنه مدّ رجليه أمام مريديه ؛ لفرط حيائه من الله تعالىٰ .

وكان حريصاً علىٰ إخفاء الصدقة لتكون مقبولة ، حيث لا تكون مقبولة إلا إذا كانت صادقة خالصة .

وكان يلبس الثوب الخشن ، ولو أُهدي إليه ثوب نفيس باعه واشترىٰ بثمنه عدة أثواب وتصدق بها ، ويقول : لأن يكتسي جماعة خير من أن يكتسي واحد . وهو في هذا المجال له مذهبه الخاص .

وكان قدس سره شديد الشفقة علىٰ المساكين بل علىٰ المسلمين ، وكان يكثر لهم من الدعاء في الليل .

وكان في مجلسه لا يتناول ذكر الأمراء ، ولا تُنتهك المحارم فيه ، ولا ترتفع الأصوات .

وقد وصل سيدنا الدهلوي صاحب هذه الترجمة إلىٰ درجة العشق النبوي الشريف ، وهذه مرتبة عالية جداً والقليل من الأولياء من ينالها . وقد بلغ هذه الدرجة قبله سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما .

فكان عاشقاً للنبي ﷺ ، بحيث إذا ذُكر أمامه اضطرب وغاب عن الدنيا .

يروىٰ أن خادماً لأحد التجار قد أحضر ماء لسيده ليتبرك الماء بالشيخ ، فوضع الخادم الماء أمام شيخنا ثم قال : أنت منظور رسول الله ﷺ . فارتعد شيخنا عند سماع هذه الكلمة ، ثم قام فقبّل رأس الخادم وقال له : مَن أنا حتىٰ أكون منظور رسول الله ﷺ ؟ ثم بالغ في الإكرام له وأعطاه المال الكثير .

وكان قدس سره شديد الحرص علىٰ اتباع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله ، قوي التمسك بالسنة ، دؤوباً علىٰ مطالعة حديثه ﷺ ، حتىٰ إنه توفي وسنن الترمذي علىٰ صدره الشريف من شدة تمسكه بالسنة ، فما بلغه أن النبي ﷺ فعل شيئاً إلا تأسىٰ به .

كما عُرف قدس سره أن له في القرآن الكريم ذوقاً عظيماً في التفسير ، كثير التلاوة له ، كثير المحبة لسماعه من الآخرين وهم يتلونه ، ويتأثر تأثراً بليغاً ، حتىٰ إذا ازداد من السماع اضمحل وتلاشىٰ وقال للقارئ : حسبي لا طاقة لي بالأكثر ، ويصل إلىٰ درجة الغيبوبة .

كما كان قدس سره مُحباً لأشعار القوم نشيداً وسرداً كشعر عمر بن الفارض ، ويحصل له من جراء سماعها وَجْدٌ كبير .

ولشيخنا قدس سره رسائل متعددة نافعة جداً ، كشف فيها للطالبين مسائل مهمة في الحقائق والمعارف .

كما له قدس سره الكثير من المبشرات والواقعات التي وقعت له مع الأكابر من أهل القبور . فكان له في هذا المجال باع طويل ، وهذا لا يكون لأحد إلا لخواص الأولياء .

وقد انتشر خلفاؤه في مشارق الأرض ومغاربها ، وانتسب إليه مِن الخواص والعوام مَن أدركه اللطف الإلهي .

بعض كراماته :

لقد أكرم الله تعالىٰ شيخنا صاحب سيرتنا بخوارق وكرامات لا تحصىٰ ، لكن ما كانت مقصودة ، ومن ذلك :

ذُكر أنه وقع في دلهي قحط شديد ، فخرج قدس سره إلىٰ صحن مسجد ، فجلس فيه وكان شديد الحرارة من الشمس ، فقال : يا رب ، لا أبرح جالساً حتىٰ تسقينا . فتغير الجو في الحال ، وامتلأت السماء بالضباب ، وجاءت الزوابع ، وأمطر الله تبارك وتعالىٰ البلاد والعباد من ساعتها ببركة شيخنا ، ثم قام بعد ذلك .

وهذه خصوصية للمدللين فقط .

من كلامه ومآثره :

❁ قال قدس سره :

"طالب الذوق ، والشوق ، والكرامات ، لم يطلب الحق تبارك وتعالىٰ" .

فالذي يتعبد من أجل الذوق ، ومن أجل أن يصير من أصحاب الكرامات والخوارق ، فهذا لم يطلب الله تعالىٰ .

السالك الصادق إلىٰ الله لا يلتفت في سلوكه إلىٰ الكرامة ، ولا يلتفت

إلىٰ السوىٰ ، وهذا الذي يعنيه الشيخ .

ولقد علّمنا ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أتاه جبريل وهو معلق بين السماء والأرض وقال له : هل لك من حاجة ؟ فابتسم سيدنا إبراهيم وقال : الله أقرب إليّ منك ، فقال جبريل : هو أرسلني إليك ، فقال : علمه بحالي يغني عن سؤالي . فتولته العناية الإلهية الذاتية كلها ، وأمر جبريل بعدها أن يكون في خدمة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وإذا نظرنا كذلك إلىٰ المرتبة الصديقية مرتبة أبي بكر ، نرىٰ أنه ما طلب يوماً كرامة أو معجزة من النبي ﷺ ، وهذه هي المرتبة الرفيعة .

❁ وقال :

"مشرب السادات الجستية الذين سكروا من خمرة الذوق والمحبة السماعُ والطربُ ، إرادة أن يُلون الشوق أرواحهم ألواناً ، ويرفعون النقاب عن وجه محبوبهم . ومشربنا نحن معشر المتوسلين بالسلسلة النقشبندية ، المرتشفين كأس المودة : الصلاةُ والحديثُ والاتباعُ ، رغبة أن تتنوع الأذواق علىٰ قلوبنا أنواعاً" .

وهناك فرق بين المشربين .

❁ وكان يقول :

"لا بد في هذه الطريقة من أربعة أشياء : اليد المكسورة ، والرجل المكسورة ، والدين الصحيح ، واليقين الصحيح" .

فاليد المكسورة : هي التي لا تمدها إلىٰ الأغيار بالسؤال ، أي تكون متوكلاً علىٰ الله تعالىٰ .

فلا بد لسالك هذا الطريق أن يكون في قمة التوكل ، لا يمد يده

إلىٰ سوىٰ الله مهما كان محتاجاً ، فإذا وصل إلىٰ هذا المقام أطعمه الله وسقاه .

يروىٰ أن شيخنا جلس في زاويته يوماً واثنين وثلاثة وليس عنده طعام ، ونفسه تحدثه بطلب الأكل والخروج ، فما هو إلا أن جاء شخص وقرع الباب عليه وقال : افتح لي ، قال : لا أفتح لك ، فرمىٰ له مالاً كثيراً ثم سار ولم يره ، وعاش بهذا المال طيلة حياته .

والرجل المكسورة : هي التي لا تذهب بها إلىٰ أرباب الأغنياء تاركاً باب المولىٰ عزّ وجلّ.

لأنك إذا وصلت إلىٰ أبواب الحكام والمال كنت ذليلاً ، وليعطوك لا بد لهم من أن يستعملوك لصالحهم ، وهنا تُضَيِّعُ الدين من أجل الدنيا .

والدين الصحيح : هو الذي لا ينقص من آدابه شيء .

فيومياً إلىٰ الأمام ، يومياً يزداد حباً وقرباً وشوقاً ، فيكون مع الحب المستمر ، ومع العشق الكبير غير المحدود .

واليقين الصحيح : هو ما لا يعتريه شك .

ولو مات وذهب ورأىٰ أنكر ونكير ، والجنة والنار والملائكة ، لَما ازداد شعرة واحدة بيقينه . أعينك أصدق من الله تعالىٰ ؟ تخسأ هذه العين التي ستصل إلىٰ هذا الحد .

فالموت هو انتقال من بيت ضيق إلىٰ بيت واسع ، وانتقال من هموم وأوجاع إلىٰ حياة تامة صحيحة .

عند الموت ستجد مشايخك وعلىٰ رأسهم سيدنا رسول الله ﷺ ، فتمشي معهم إلىٰ رَوْح وريحان وجنة نعيم ، وإلىٰ حظيرة القدس الإلهية إن شاء الله تعالىٰ ، وبعدها تعيش مع هذه الثلة الطيبة المؤمنة .

وعالم البرزخ عالم كبير ، فالبرزخ بالنسبة للدنيا كبطن أمك بالنسبة للدنيا ، والبرزخ للمحشر نفس الشيء ، والمحشر بالنسبة للجنة أيضاً نفس الشيء ، ولا تستغرب من هذا الكلام .

فلا أريدك أن تكون شاكاً في يقينك ، بل كن في يقين تام وإيمان كامل . وإذا جلست بين مشايخك تأتي بعقلك وتلفه بخرقة ناعمة رقيقة وتضعه في الثلاجة . إذا جلست مع مشايخك كنت في قمة التسليم والقناعة والرضا لتكون معهم ، وإلا من الصعب أن ترشف من كأسهم أو أن تعيش معهم .

❁ وقال قدس سره :

"إن الصوفي هو من جعل الدنيا والآخرة وراء ظهره ، وأقبل بكليته على مولاه تبارك وتعالى قولاً وعملاً" .

❁ وقال قدس سره :

"إن البيعة على ثلاثة أقسام : بيعة للتوسل بالشيخ وبالمشايخ الكرام ، وبيعة للتوبة عن المعاصي والذنوب العظام ، وبيعة لكسب النسبة والوصول إلى مرتبة الرجال الفخام" .

وهذه لا بد منها للوصول إلى الله تعالى .

وعن طريق المشايخ الكرام تنطلق إلى الله تعالى ، فالإنسان لا يستطيع أن ينطلق بدون دليل ، لذا أرسل الله لنا الرسل والأنبياء .

❁ وقال قدس سره :

"إن الناس على أربعة أقسام : عديم المروءة ، وصاحب المروءة ، وصاحب الجود ، والفرد" .

فعديم المروءة هو طالب الدنيا ، وصاحب المروءة هو طالب العقبىٰ (الآخرة) ، وصاحب الجود هو طالب العقبىٰ والمولىٰ تعالىٰ ، والفرد هو طالب المولىٰ فقط ، ودرجة الفردية درجة رفيعة جداً تعادل درجة الغوثية .

❁ وقال قدس سره :

"إن الأولياء علىٰ ثلاثة أقسام : أرباب الكشف والعرفان ، أرباب الإدراك والوجدان ، وأرباب الجهل والنكران" .

فأرباب الكشف والعرفان لهم درجات رفيعة ، وأرباب الإدراك والوجدان درجاتهم أعلىٰ ، وأما أرباب الجهل والنكران فهم يجهلون الأحوال الحاصلة لهم والعرفان ويمشون بالعناية .

❁ وقال :

"إن العقل النوراني هو الذي يدل علىٰ المقصود من غير دلالة أحد ، والعقل الظلماني هو الذي يسلك الطريق بمصباح هداية المرشد" .

وأقول : صاحب العقل النوراني يمشي أحياناً بمصباحه ومصباح شيخه ، وأحياناً يكون مصباحه أقوىٰ من مصباح شيخه .

والعملية ليست بعملية عقل وحده ، ولو كانت بالعقل لكانت اليابان أول مَن عَبَدَ الله ، فعقولهم أوصلتهم إلىٰ هذه الصناعة الحديثة وبعدها عبدوا الأصنام . كذلك العقل وحده لا يستطيع أن يصل إلىٰ الله تعالىٰ ، ولو استطاع لما أرسل الله إلينا النبيين عليهم الصلاة والسلام ، إنما ذرة من التوفيق خير من ملء الدنيا من العقول .

❁ وقال قدس سره :

"ينبغي للسالك والطالب أن لا يغفل عن المطلوب لحة واحدة" .

❁ وقال :

"إن علامة زوال العين أن لا يقدر السالك على أن يقول : أنا" .

والمقصود بالعين هنا علامة الفناء ، فعلامة أن تفنى بالله أن لا تستطيع أن تقول : أنا ، بل تقول : الفقير أو الخادم .

وفاته :

توفي قدس سره يوم السبت الثاني والعشرين من صفر سنة أربعين ومائتين وألف من الهجرة بعد الإشراق مباشرة ، وهو قاعد على هيئة الاحتباء مستغرقاً في جمال المولى .

وما أجملها من موتة ! قبضه مَلَك الموت وهو في قمة الاستغراق بالحضرة الإلهية .

ولقد دفن بجوار شيخه الشهيد قدس الله سريهما ونفعنا ببركتهما .

ثم انتقل سر هذه الطريقة العلية بعده إلى خليفته الشيخ خالد النقشبندي ذي الجناحين قدس الله سرهما الشريف .



٣٠ - سيدنا الشيخ أبو بهاء الدين خالد البغدادي الدمشقي العثماني النقشبندي ذو الجناحين

كان جبلاً عالياً من العلم والمعرفة ، كان شعلة من الإيمان ، حمل الراية من شيخه ليتمم الطريق الذي سلكه آباؤه في العلم ، في الشريعة والحقيقة ، لكنه كان قوياً بحملها ونِعْمَ الحامل ، لهذا يعتبر المجدد الثاني لطريقتنا النقشبندية . أما المجدد الأول كما أسلفنا فهو الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي العمري .

نسبه ومولده :

هو سيدنا خالد بن أحمد بن حسين الشهرزوري السلفي الشافعي النقشبندي المجددي القادري السهروردي الكبروي الجستي العثماني ، نسبة إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأمه هي سيدة من آل بيت رسول الله ﷺ .

ولد سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف من الهجرة في قصبة قرة داغ ، وهي على بعد خمسة أميال من السليمانية في العراق .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

نشأ شيخنا قدس سره حيث وُلد في حجر والده الجليل ، وقرأ القرآن الكريم ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

قرأ في البداية كتاب المحرر ، ومتن الزنجاني في الصرف .

ثم رحل في طلب العلم عدة رحلات إلى البلاد البعيدة كمصر ،

والتقىٰ هناك مع الشيخ الباجوري رضي الله عنه . ورحل إلىٰ بلاد نائية وحصَّل فيها علىٰ كثير من العلوم الشرعية وآلاتها .

كما قرأ المنطق ، والصرف ، والنحو ، وعلم الكلام ، حتىٰ أصبح بحراً في العلوم الشرعية ، وكان أعلم أهل زمانه .

وتعلم أيضاً علم الهيئة ، والهندسة ، والفلك ، وما يلتحق بها من أكابر عصره ووقته .

قال الشيخ عن نفسه :

ألهمني الله تبارك وتعالىٰ وجذبني إلىٰ بيته الحرام لأداء فريضة الحج ، فسرت من السليمانية إلىٰ بلاد الشام ، ومنها إلىٰ بلاد الحجاز إلىٰ المدينة المنورة زادها الله شرفاً ، وكنت أتمنىٰ أن ألتقي مع عبد صالح ليوجهني ويعلمني ، ويدلني علىٰ أمور روحية .

فالتقيت مع شيخ جليل يمني في المدينة ، فجلست معه واسترشدت منه . وبعد أن قدّم لي النصائح الكثيرة في كثير من الأمور قال لي : يا أخي ، إنك إذا أتيت مكة فسترىٰ بها بعض المخالفات ، فلا تنكرن علىٰ أحد ، قد تظن أنه يخالف وهو في الحقيقة ليس مخالفاً . ثم تركني الشيخ اليمني ، ولم أره بعد ذلك .

ثم انطلقت إلىٰ مكة لأداء مناسك الحج ، فكنت أطوف حول الكعبة وإذ رأيت رجلاً بلحية سوداء مُسنداً ظهره للكعبة ووجهه إليّ ، فاعترضت عليه بباطني كيف يعطي ظهره للكعبة ووجهه للناس ، والكعبة قبلة المسلمين وهي كعبة الله ؟ فناداني ذلك الرجل وقال لي : لماذا تعترض عليّ ؟ أما علمتَ أن حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة ؟ هذه

الكعبة بناها سيدنا آدم عليه السلام ، أمَا إنني أنظـر إلىٰ الهيكـل الـذي بنـاه الله ، فهيكلك أعظم عند الله من الكعبة . ثم قال : أما تذكرتَ قول العبد الصالح في المدينة الذي قال لك : لا تعترض علىٰ أحد في مكة ؟ فألجمت عندمـا سمعت منه أسراراً لا يعلمها أحـد ، فعلمـت أنـه ولي كبـير مـن أوليـاء الله تعالىٰ ، فقلت له : انصحني يا سيدي ، فقال : فتوحـك هنـاك وليس هنـا ، وأشار إلىٰ بلاد الهند . ثم اختفىٰ هذا الشيخ ولم أره .

فقمت بأعباء الحج ثم رجعت إلىٰ السليمانية ، وهناك جلسـت أُعَلِّـم غير أنني كنت مشدوداً لجهات أخرىٰ ، وكنت أجد جاذباً يجذبني إلىٰ بلاد الهند ، فحملت متاعي وانطلقت إلىٰ بلاد فارس سـائراً علىٰ قدمي أطلب الحقيقة ، أطلب الفتوح الذي أشار إليه ذلك العبد الصالح .

فوصلـت إلىٰ طـهران والتقيـت بعلمائـها ، ثـم سـرت إلىٰ أفغانسـتان ، ثم إلىٰ بلاد بسطام وزرت ضريح سيدي أبي يزيد البسطامي قدس سره ، ثم انطلقت من بلد إلىٰ بلد حتىٰ وصلت بلاداً بعيدة جداً عن بلادي ، كل ذلك طالباً للحقيقة .

وفي بلد هناك التقيت مع أخ شيخي ، ونمت عنده تلك الليلـة ، وكـان هـذا الشيخ وليـاً كذلـك . فرأيـت في المنـام أن الشـيخ الـذي بـت عنـده قـد عضـني من خدي ولكن لم يؤثر بي ، وأراد أن يجذبني فلم يستطع . فقمت في الصبـاح وأخبرته بذلك ، فقال : فتوحك ليس عندنا إنما عند أخينا ، فسر إلىٰ دلهي .

فسرت إلىٰ دلهي وأَخَذَتْ معي الطريق عاماً كـاملاً ، وعندمـا وصلـت تصدقت بجميع أموالي وبجميع ما عنـدي ، ثـم أُشـير إليّ أنْ أدخـل علىٰ الشيخ عبدالله الدهلوي قدس سره ، فإذا هـو الـذي كـان مسـتدبراً للكعبـة ورأيته يوجه المريدين ، وهـو الـذي أشـار إليّ بالذهـاب إلىٰ بـلاد الهنـد .

فعندما رأيته أتيت وقَبّلت يديه ورجليه ، وبايعته مبايعة صادقة ، ثم أخذت بعد ذلك الطريقة النقشبندية بعمومها وخصوصها ، ومفهومها ومنصوصها ، واشتغلت في زاويته بالمجاهدة .

وبقي شيخنا قدس سره يجاهد نفسه بصدق أحد عشر شهراً ، وعلىٰ إثر ذلك شهد له شيخه بالوصول إلىٰ كمال الولاية ، ويكفيه هذا المسير الشاق .

وكان كلما دخل إلىٰ بلد التف حوله العلماء ، غير أنه كان يقول : ما أتيت من أجل هذا ، أتيت لآخذ الحقيقة .

ولو وضعنا هنا إشارة لقلنا : إنه طالب حقيقة ، طالب الله ، طالب النور ، الذي يتحمل ويضحي بكل شيء من أجل ذلك .

ولقد أجازه شيخه بالإرشاد والنفع ، وخلّفه الخلافة العامة بالطرائق الخمس : القادرية ، والسهروردية ، والكبروية ، والجستية ، والنقشبندية . كما أجازه بجميع ما تجوز له روايته من حديث وتفسير وأوراد وتصوف .

علماً أن الشيخ خالداً كان طيلة وجوده عند شيخه يجلس عند النعال يقوم بصفها ، فكان يجاهد نفسه ويهذبها ، وهو المهندس المعماري والعالم الفلكي الكبير .

ولقد بقي قدس سره عند شيخه سنة لا يعرف غير شغله بالأذكار ولا يختلط بالناس ، بل كان يغلق باب حجرته علىٰ نفسه في غير أوقات الخدمة ، ويشتغل بمراقبة الله والإكثار من الذكر . وكان علماء الهند يريدون مخالطته أثناء وجوده بالهند ، بل يتوسلون إليه ببعض المشايخ المقربين لديه ، غير أنه يعتذر ويقول : أنا ما جئت للهند من أجل مخالطة الناس ، بل فراراً عن الاستئناس بالناس .

ولما تمت خدمته لشيخه على هذا المنوال ، شرّفه شيخه فأجازه مطلقاً ، ثم خلّفه الخلافة التامة بإشارة روحانية من السادة مشايخ النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية ، حيث قال له : أنا لم أُجزك بذلك مِن قِبَل نفسي ، بل فعلت ذلك بطلب من مشايخي .

ولقد شهد له شيخه بعد ذلك بالوصول إلى كمال الولاية ، وإتمام السلوك ، والفناء والبقاء التامين .

ثم أمره أمراً مؤكداً بالرجوع إلى أهله ووطنه ، والاشتغال بإرشاد المسترشدين وتربية الطلاب . وخصّه بتوجهات ، وبشّره ببشارات عظيمة تحققت كلها بعد ذلك .

فرجع الشيخ خالد قدس سره إلى وطنه بأنواع الفتوحات ، وأصناف الكرامات والكمالات ، سنة ست وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية الشريفة .

فكان قبلة للعلم في الشريعة من فقه ، وحديث ، وعلم آلات . ربّى طلاب العلم ، وكان مرجعاً لحل المشاكل الاجتماعية .

بعض صفاته الجسدية وأخلاقه :

كان قدس سره طويل القامة ، ضخم الرأس ، أبيض اللون ، أحمر الخدين ، أسود الشعر والعينين ، أقنى الأنف ، مديد الحاجبين ، طويل الذراعين ، عريض ما بين المنكبين ، كثير شعر الجسد .

كان يحب أن يلبس فاخر الثياب ، ويعتبر التصوف ليس بالثوب ، إنما بالزهد في القلب .

كان لا يدع الطيلسان ولا العصا ، وكانت عليه هيبة ووقار تخالطه رحمة .

كان لا يظهر لأحد إلا لدرس ، أو ذكر ، أو عبادة ، أو عيادة مريض ، أو لضيف من أهل العلم ولا سيما إن كان من المنسوبين ، إذ كان يبالغ في تعظيم أهل البيت قدس سره ، ويحترمهم كثيراً .

وما كان يزور المشايخ في بيوتهم ، أما مَن أتاه فيستقبله .

وكان ذا نكتة وينبسط كثيراً مع مريديه ، فكان يحب البسمة والكلمة الطيبة كعادة مشايخنا .

جانب من حياته وما لاقاه من خصومه :

بقي الشيخ خالد قدس سره دائباً على نشر علوم الشريعة ، والسير بالطالبين إلى الحقيقة ، حتى سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة . ثم رحل بعدها إلى بغداد ، وجلس يرشد الناس فيها خمسة أشهر ، ثم رجع إلى وطنه .

وفي هذه الآونة مدحه أدباء عصره بالقصائد العربية والفارسية ، ونعتوه بالعلم والفضل ، وبأنه كبير العلم والوارث المحمدي .

ثم رحل إلى دمشق واستوطن بها ، وحصل له فيها القبول التام ، حتى صار إقبال العموم عليه ، وخضوع الحقير والجليل لديه ، وشَدُّ الرحال من الأقطار النائية إليه . وارتفع صيته ارتفاع الشمس في رابعة النهار ، ولزم خدمته الكثير من الأبرار ، بل التحقوا بخدمته إلى درجة المقربين الأخيار ، وافتخرت بشرف الانتساب إليه أعيان العلماء كالشيخ المحقق العلامة محمد أمين بن عابدين صاحب [حاشية ابن عابدين للمذهب الحنفي] ،

وخاتمة المفسرين الشيخ الألوسي صاحب [تفسير روح المعاني الكبير] .

وإن سبب خروجه من وطنه إلىٰ بغداد ، أن بعض أعدائه ومواطنيه من مشايخ البلاد وشوا به عند حاكم البلد كردستان ، ونعتوه بالفسق والضلال ، وطلبوا منه أن يقتله . مما أدىٰ إلىٰ أن ترك السليمانية سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف من الهجرة ورجع إلىٰ بغداد ، فنزل في المدرسة الأحشائية الأصفهانية ، فعمّرها بالعلوم والأذكار والأوراد .

وحصل له في بغداد كذلك أن قام الحاسدون وأذاعوا بأنه فاسق ، وطلبوا من الوالي أن يقتله . وألّف فيه الشيخ معروف البرزنجي رسالة وبعث بها إلىٰ والي بغداد يومها سعيد باشا يحرضه فيها علىٰ إهانته وإخراجه من بغداد ، وضلّله فيها وكفّره . ومما قاله في رسالته : [إن الأكراد كلهم اتبعوه ، وملأ ببدعته الآفاق ، وإنه يدّعي التصوف والتصريف في الكائنات ، ويدّعي علم الغيب . إنه ذهب إلىٰ الهند فتعلم السحر والشعوذة من السحرة الجوكية ، ومن نصارىٰ الإنجليز ديناً ظهر عندهم] . ثم حرض الباشا علىٰ تمزيق دعوته وطريقته وشعوذته كما يدّعي إلىٰ غير ذلك .

مما أدىٰ إلىٰ أن رحل شيخنا إلىٰ وطنه السليمانية وكان حاكمها قد تغيّر ، فبنىٰ له الحاكم الجديد زاوية كبيرة ومسجداً ، ورتّب له ما يكفي نفقتها . فأقبل عليه المريدون وطلبة العلم من مختلف البلاد ، فجلس يدرس الناس ويرشدهم ، ويدلهم علىٰ ربهم سبحانه وتعالى بالإشارة والعبارة .

وقد انتفع به خلق كثيرون من الأكراد ، وأهل إربل ، وكركوك ، والموصل ، والعمادية ، والجزيرة ، وعنتاب ، وحلب ، والشام ، والروم ، ومكة ، والمدينة ، والبصرة ، وبغداد . فكانوا يقبلون عليه ويأخذون العلوم بأنواعها .

ثم تـرك بلـده مسـقط رأسـه ورجـع إلىٰ بغـداد بوشـاية ثانيـة ، فـنـزل في المدرسة الأحشائية نفسها وقد جُدِّدَتْ له ، فنشر فيها العلم ، وانقاد لـه العلماء ، وشاع فضله .

وبعد ذلك أرسل خلفاءه إلىٰ بلدان العالم الإسـلامي ، ومنـهم الشـيخ أحمد الخطيب الإربيلي وقد أرسله إلىٰ دمشق ليكـون خليفتـه هنـاك بعـد أن كمل عند شيخه . فذهـب قـاصداً رب العـالمين ، فـالتف عليـه العلمـاء والعوام ، وأخذ عنه الـوزراء والأمـراء ومشـايخ الشـام الكثـير مـن العلـوم في مجال الشريعة والحقيقـة ، ومنـهم مفـتي دمشـق آنـذاك الشـيخ حسـين المرادي الذي كتب إلىٰ الشيخ خـالد يشـير إليـه بقـدوم دمشـق ، فانشـرح صدره لذلك ، ولما كان محارَباً في بغداد عزم علىٰ الخروج إلىٰ دمشق .

وكان يوم الرحيل من بغداد يوماً مشهوداً ، قام بتوديعه أكابر علمائها وأوليائها وصلحائها ، فوُدِّع توديعاً لم يشهده غيره . كما كـان في اسـتقباله قدس سره في دمشق الكثير من أهلها بالإعزاز والإكبار .

ولقد نزل أول وصوله إلىٰ دمشـق في جـامع المعلـق ، وهـرع لزيارتـه العلماء والأمراء والحكام .

ثم نزل في الجامع الأموي في خلوة بني الغزّي ، الذيـن زوّجـوه منـهم بعد ذلك شقيقة الشيخ إسمـاعيل الغـزي السـيدة عائشـة . وكـان شـيخنا لم يُحضر أهله معه ، فأحضرهـم من بغـداد ، واشـترىٰ داراً فخمـة في حـي القنوات ، وجعل قسماً منها مسجداً .

ولقد نشر الشيخ خالد في دمشق العلم والفضيلـة ، وأشـاد معـالم الطريقـة النقشبندية . فجعل يربّي السالكين ، وصارت له المنزلة العظيمة عند أهلها .

وقد رحل إليه الأعلام من مختلف البلاد ، وأرسل الرسل للأقطار ، حتىٰ ذاع صيته وعمَّ جميع الأقطار حتىٰ العاصمة آنذاك استنبول . كما وزع خلفاءه في جميع نواحي دمشق ، وعلىٰ جميع مساجدها ؛ ليربوا المريدين والسالكين .

وكان هو يقرأ صباحاً من كل يوم شرح المنهاج في الفقه الشافعي ، وكان يجمع بين أقوال الرملي وابن حجر والخطيب الشربيني .

ثم ذهب قدس سره لزيارة القدس الشريف ومدينة الخليل في سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين وألف من الهجرة ، ثم ذهب في نفس العام إلىٰ الحج ، ثم عاد إلىٰ دمشق .

وفي دمشق حصل له ما حصل في بغداد ، حيث قام حساده وتكلموا عليه ، ومنهم تلميذه عبدالوهاب السوسي الذي ربّاه وعلمه الشريعة وأعطاه الطريقة ، ثم أرسله خليفة له إلىٰ استنبول لنشر الطريقة النقشبندية . وفي استنبول أقبل عليه جمهور العلماء والوزراء وأصحاب الأموال ، فاغتر بالمال والشهرة ، ومالت نفسه إلىٰ الدنيا . ولما علم الشيخ خالد بذلك عزله واستخلف غيره ، ثم أرسل إليه وأحضره إلىٰ دمشق واستتابه . لكنه كان حاقداً ، فأظهر التوبة وأضمر المكر ، ثم ما لبث أنْ أرسل إلىٰ أتباعه في استنبول مراسلات زائفة ، تكلم فيها علىٰ الشيخ خالد بأكاذيب كثيرة ، منها أنه يدعي رؤية الجان . وألّف بعد أن رحل إلىٰ المدينة رسالة تكلم فيها علىٰ أخلاق الشيخ خالد وعرضه ، ونعته بالسحر والشعوذة ، حتىٰ أوصله للتكفير . ثم بعث الرسالة إلىٰ دمشق مع بعض الأكراد العوام ، واطلع عليها الشيخ خالد ، فجرّده

من الطريقة ، وأمر فشُهّر به في المدينة ، وأذاع أتباعه أنه مطرود من الطريقة ، ثم عُزِّرَ ثم أُحضر إلىٰ الشيخ ، فوعظه وعفا عنه وأكرمه .

وفي هذا المجال ألف ابن عابدين رسالة رد فيها علىٰ المفترين ، وسماها [سل الحسام الهندي لنصرة مولانا الشيخ خالد النقشبندي] . كما أن الشيخ قدس سره كتب ثلاثة كتب إلىٰ إخوانه في المدينة بحقيقة ذلك .

وفي الحقيقة كلما ارتفعت مرتبة المرء كلما كثر خصومه وحساده . وهذه سنة الكون ، فما من صاحب مرتبة رفيعة عرفناه أو قرأنا عنه إلا وتكلم عليه قرناؤه .

يقول سيدنا الشافعي رضي الله عنه :

تمنىٰ أناس أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

وسيرة سيد الأنبياء سيدنا محمد ﷺ معلومة لدىٰ الجميع ، كيف عانىٰ مع قومه الذين نعتوه سابقاً بالصادق الأمين ، ثم كيف نعتوه بالكذب والجنون ، ولم يتركوا صفة رذيلة إلا نعتوه بها .

وهكذا الأولياء الكبار في زمانهم وأهل الحقيقة ، هم رجال الله الذين اختارهم ليدافعوا عن جوهر الشريعة والحقيقة ، ليكونوا بركة الأزمنة . وكلما كمل الإنسان منهم أكثر ، كلما تعرض للابتلاءات والاختبارات أكثر وهم يتحملون ذلك ، وهذه الابتلاءات إنما لتذهب بذنوبهم .

لذا فإن شيخنا كان يعاني من هذا كثيراً من الذين يحاولون قطع الطريق ، ولكن أنّىٰ للنملة أن تحطم الجبل برأسها ؟! وأنّىٰ كذلك للخنفساء أن تسابق الخيل الأصايل ؟!

فشيخنا كان أمة وحده في كل المجالات ، كان يتمم سيرة الرجال الذين

عاهدوا أن يكونوا علىٰ طريق النبي ﷺ ، وقد ألبسهم الله تعالىٰ ثوب الكرامة والهيبة والوقار ، ومن هنا كانوا منتصرين علىٰ غيرهم بفضل الله تعالىٰ .

بعض كراماته :

كانت كرامات الشيخ خالد أكثر من أن تعد ، ولكن نأتي بيسير منها لنعيش مع نفحاته وبركاته قدس سره :

يروىٰ أنه كان يسير في الطريق العام فرأىٰ نصرانياً ، فنظر إليه الشيخ نظرة صحيحة ، فصاح النصراني صيحة عالية وكأن صاعقة وقعت عليه ، ثم تبع الشيخ حتىٰ وصل إلىٰ الزاوية وأعلن إسلامه حالاً ، ثم سلك الطريق علىٰ يديه قدس سره حتىٰ صار من أهل الولاية والحضور .

وهذه الناحية لا تكون إلا للكبار من الرجال . وطبعاً هنا عَلِمَ بِعِلْمِ الله تعالىٰ أن هذا النصراني سيكون من أهل الإيمان ، وأن إسلامه سيكون علىٰ يديه ، فنفذ الأوامر .

ويروىٰ أن رجلاً من كبار أعدائه المنكرين اجتمع عليه بعض الجهلة ، فعمل بهم حلقة كحلقة الختم استهزاء بالشيخ خالد وبالطريقة النقشبندية ، وجلس يقلد الشيخ ويستهزئ به ، فجُنَّ من وقته وخلع ثيابه وخرج هائماً علىٰ وجهه ، وكان بعدها يمشي في الطرقات ويصيح . لم يترك أهله وسيلة من الأطباء وغيرهم لعلاجه لكن دون جدوىٰ ، وفي النهاية لم يجدوا غير باب الشيخ ، فأتوه متضرعين وقالوا له : نرجوك يا سيدي أن تسامحه ليعود إلىٰ طبيعته . وكان شيخنا ذا قلب كبير ، فقال لبعض خلفائه بالتوجه إليه ، فوقع في خاطره أنه هل يفيق أم لا ؟ وشكَّ في قلبه ،

فكاشفه الشيخ وقال له : توجه إليه ولا تشك في ذلك ، افعل ما أقول وانظر ما يكون . فأغمض المريد عينيه وراقب وتوجه وذاك واقف يرقص ، فعاد واستيقظ من جنونه وشفي في الحال كأن لم يكن به شيء من الآفات . فكان هذا درساً له ، فقام وقبّل يدي الشيخ ورجليه ، وقال : كنت جاهلاً ضالاً فهداني الله بك . ثم جلس على باب الشيخ وأقسم أن يكون خادماً للنعال ، فكان يخدم المريدين متأدباً حتى وصل إلى درجة رفيعة .

ومن كراماته كذلك أنَّ الذي يجالسه ويتابعه ويلزم الأدب معه ظاهراً وباطناً ينتفع من لحظه حالاً ، ويفوز بالجوهر المكنون في لفظه ، ويجد تأثيراً في الحال ، ويزهد قلبه عن حب الدنيا والجاه والمال ، ويرغب عن الأهل والعيال .

وهذه الخاصية لا توجد إلا عند الكمل من الرجال ، حيث قلب الشيخ هو محط نظر رب العزة ﷻ ، فإذا نظر الله تعالى لقلب الشيخ ورأى حب فلان في قلبه ، أكرمه وجعله من أهل الولاية .

ومنها أيضاً اعتقاد أكابر علماء عصره فيه وانقيادهم له ، فيكونون بعد ذلك من جملة مريديه وخدامه .

ومنها كذلك أنه خلف من بعده أربعة مريدين ، وذكر أسماءهم مرتبين حيث قال : يجلس في مجلسي هذا بعدي فلان ثم فلان ثم فلان ثم فلان ، فمات كلهم في الطاعون متعاقباً على الترتيب الذي ذكره الشيخ قدس سره .

وذلك كفعل النبي ﷺ في غزوة مؤتة حينما عيّن فقال : يحمل الراية زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فسيف الله المسلول .

رسالة الشيخ خالد إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم :

لقد أرسل شيخنا قدس سره رسالة إلىٰ حضرة سيد الأنبياء والمرسلين وحبيب رب العالمين سيدنا محمد النبي الأمي ﷺ قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

المعروض من العبد المذنب الظالم لنفسه ، المتناسي عما يجري عليه في غده وما اقترفه في أمسه ، خالد .

إلىٰ سُدة مركز دائرة السعود ، وسبب إيجاد كل موجود ، وصاحب المقام المحمود ، وينبوع الكرم والجود ، سيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، قائد الغر المحجلين ، النبي الهاشمي الأبطحي اليثربي العربي القريشي ، عليه وعلىٰ آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليمات ، عدد معلومات الله في كل بكرة وعشي .

وبعد ،

إن العبد الفقير المسكين المجرم الحقير المستكين لا زال يترقىٰ في العثرات يوماً بعد يوم ، ويحمل أوزار الرعايا والبرايا قوماً بعد قوم[1] ، فلا يوفق لترك الكل حتىٰ يطوي البيد إلىٰ هاتيك الحضرة العلية بالرأس دون الأقدام[2] ، ولا يؤيد

(١) تدل هذه المقالة أنه كان صاحب الوقت والغوث ، وصاحب المسؤولية فيحمل عن الكل .

(٢) أي لو كنتُ فارغاً لأتيتك يا رسول الله علىٰ رأسي لا علىٰ قدمي .

باتباع شريعتكم الغراء وإحياء سنتكم السنية البيضاء بالتمام[1] ، ولا يستعد لترك الظلم وبسط بساط العدل ليستريح بسببه الأنام ، ويرضىٰ عنه ربنا المهيمن العلام ، ويُسر به ذاك الجناب عليه وعلىٰ آله وصحبه الصلاة والسلام .

ظلمتُ سنة من أحيىٰ الظلام إلىٰ

أن اشتكت قدماه الضر من ورم

فواحسرتاه علىٰ ما فرطت في جنب الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فإلىٰ من أشكو سوء حالي سوىٰ ذاك الجناب ، ولديّ مَن أبث ما أنا فيه من الاضطراب ، وأنت خليفة الله علىٰ عباده ، وهادي الأنام إلىٰ سبيله ، ومغيث كل متحير ، وقائده إلىٰ إرشاده ، وغوث كل مضطر ، وموصله إلىٰ مراده .

فالمرجو إما التخلص من هذه الورطات ، والتوجه مع الإخلاص إلىٰ أرض الحجاز[2] . وإما الإمداد بالعدل والإنصاف ، وخفض الجناح والانتصار ، وترك البدع والاعتساف . وإلا فها أنا منكوس الرأس بين يدي ربي يوم القيامة ؛ لأنني لم أؤد الأمانة التي عليّ ، ومتيقن بالندم حين لا تنفع الندامة .

وصلىٰ الله عليكم وعلىٰ إخوانكم النبيين ، وعلىٰ آلكم وصحبكم أجمعين ، بداء كل كلام ، وختام كل كلام .

---

(١) أي نقتدي بكم لكن ليس كاملاً .

(٢) أي هناك إشارة خفية هي الإتيان إليك يا رسول الله وترك المسؤولية ، فآتي عندك متخلياً عن نفسي وذاتي والورطات .

ثم طوىٰ الشيخ خالد الرسالة ووجّهها إلىٰ النبي ﷺ ، ووصلت حالاً . فقام النبي ﷺ وعالجها ، وكانت المقابلة بأن أعطاه الثانية ، أي أكرمه الله ورفع من شأنه ، وأخذ عنه وجاءه المدد .

رسالة الشيخ خالد في معنى الرابطة الشريفة :

لقد كتب شيخنا قدس سره رسالة إلىٰ خلفائه في دار الخلافة استنبول في معنىٰ الرابطة الشريفة ، حيث أرسل إليه خلفاؤه يشكون إليه كثرة المعارضين للرابطة النقشبندية ، فرد عليهم برسالة ينصر بها الشريعة والحقيقة ، ويرد بها علىٰ أهل الزيغ ومن كانت علىٰ قلوبهم الحجب ، وغلبت عليهم شقوتهم فأبعدتهم عن الرؤية الصحيحة .

وهي مطولة هذبت منها ما استطعت ، وأحببت أن أذكرها لتكون قوة لك أيها المريد أمام إبليس ، وأمام من يريد أن ينكر عليك الرابطة ويُمَوِّه الحقيقة .

فيقول شيخنا في رسالته :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفىٰ ، وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ .

من العبد الفقير المستهام خالد النقشبندي ، المتمسك باتباع سنة خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام .

إلىٰ الإخوان المخلصين الكرام من سكان دار الخلافة العظمىٰ .

السلام التام والتحية والإكرام .

أما بعد ،

فقد وردت مكاتيبكم الدالة على صحة ذواتكم فأورثت المسرة ، حيث دلت على ثباتكم في الطريق مع كثرة مزاحمة المنكرين ، فحمدت الله تعالى على ذلك المرة بعد المرة .

ولقد قرع سمع هذا المسكين أن بعض الغافلين عن أسرار حق اليقين يَعُدّون الرابطة بدعة في الطريقة ، ويزعمون أنها شيء ليس له أصل ولا حقيقة .

كلا ، إنها لأصل عظيم من أصول طريقتنا النقشبندية العلية ، بل هي أعظم أسباب الوصول بعد التمسك التام بالكتاب العزيز وسنة الرسول ﷺ .

لهذا فإن مِن بعض مشايخنا في السلسلة وساداتنا مَن كان يقتصر في السلوك والتسليك عليها ، ومنهم مَن كان يأمر بغيرها أيضاً مع تنصيصه على أنها أقرب الطرق إلى الفناء في الشيخ الذي هو مقدمة الفناء في الله تعالى ، ومنهم من أثبتها بنص قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] .

فقال سيدي عبيد الله الأحرار قدس سره تفسيراً للآية السابقة ما حاصله : إن الكينونة مع الصادقين المأمور بها في كلام رب العالمين هي الكينونة معهم صورة ومعنى .

ثم فسر الكينونة المعنوية بالرابطة ، بأن ترى شيخك وتغمض عينيك ، وأنْ تتصوّر بأنّ مِن قلبه ومِن جبهته ومِن كله يخرج النور إلى قلبك .

فهذه الكينونة التي أرادها الله تعالىٰ أن نكون مع الصادقين ، فالمريد عندما يراقب شيخه فإنه يكون معه[1] .

وقال صاحب الرشحات : فكأنهم لم يتصوروا معنىٰ الرابطة اصطلاحاً ، وإلا لَما وسعهم إنكارها . إذ هي في الطريقة عبارة عن استمداد المريد من روحانية شيخه الكامل الفاني في الله تعالىٰ ، وكثرة رعاية صورته ليتأدب ويستفيض منه في الغيبة كالحضور ، ويتم له باستحضارها الحضور والنور ، وينزجر بسببها عن سفاسف الأمور . وهو أمر لا يُتَصَوَّر جحوده إلا ممن كتب الله تعالىٰ في جبهته الخسران ، وأتم والعياذ بالله بالمقت والحرمان . لأنه إن كان ممن يعتقد بالأولياء فقد صرّحوا بحسنها وعظيم نفعها ، بل اتفقوا عليها كما لا يخفىٰ علىٰ من تتبع كلماتهم القدسية ، واستنشق نفحاتهم الأنسية .

وقد صرح بالتصرف وإمداد الروحانيين جماهير المفسرين ، وأئمة الشريعة علىٰ المذاهب الأربعة والفقهاء ، في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف : ٢٤] .

فقد فُسِّرَ البرهان بأن سيدنا يوسف عليه السلام سمع صوتاً : (إياك وإياها) فلم يكترث له ، فسمعه الثانية فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً : (أعرض عنها) فلم ينجع فيه ، حتىٰ مُثِّلَ له سيدنا يعقوب عليه السلام عاضاً علىٰ أنملته ، وقيل : ضرب بيده علىٰ صدره .

(١) وأضيف : وعندما نذكر سيرة السلف فمعناها أن نتصورهم بأنهم معنا وأننا معهم ، نضع تاريخ أجدادنا ونضع أعمالهم أمامنا لنأخذ منهم ، وهذه هي المراقبة . وهذا السرد هو الرابطة التي أخذها السادة النقشبندية أساساً في تسليك المريد .

وقال الشريف أحمد بن محمد الحموي في كتابه (نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالىٰ والكرامة بعد الانتقال) ما خلاصته : إن الأولياء يظهرون بصور متعددة بسبب غلبة روحانيتهم علىٰ جسمانيتهم ، فالكثير سمعناهم يقولون: إنهم رأوا النبي ﷺ بغير صورته العادية .

وحُمل علىٰ هذا المعنىٰ ما في بعض روايات الحديث الصحيح ، ما ورد أن بعض أهل الجنة ينادىٰ من جميع أبواب الجنة ، كما ورد عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأل النبي ﷺ : وهل يُدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم[1] .

وقالوا : إن الروح إذا كانت طيبة كُليةً كروح الكاملين قد تظهر في سبعين ألف صورة . هذا في دار الدنيا وفي البرزخ أَوْلىٰ ؛ لأن الروح فيه أغلب وأشد استقلالاً بسبب المفارقة عن البدن .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي : وأَحْضِرْ في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم ، وقل : السلام عليك أيها النبي . وليصدق أملك في أنه يبلغه ، وأنه يرد عليك بما هو أوفىٰ منه .

وهذه هي المراقبة ، فعند الصلاة عليك أن تخاطب من هو معك ، أن تضع صورته بقلبك هذه الساعة كأنك تراه ، وعندها تزداد خشوعاً وحضوراً .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي .

وقال ابن حجر الهيتمي -وهو من أئمة المذهب الشافعي- في (شرح العُباب) في بيان معاني كلمات التشهد ما نصه : وخوطب ﷺ كأنه إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ يُكشف له عن المصلين من أمته حتىٰ يكون كالحاضر معهم ، ليشهد لهم بأفضل أعمالهم ، وليكون تذكر حضوره سبباً لمزيد الخشوع والخضوع ، وهذه هي المراقبة .

ويروىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأىٰ النبي ﷺ في النوم ، فدخل علىٰ بعض أمهات المؤمنين - قيل : هي السيدة عائشة ، وقيل : خالته ميمونة - فأخبرها بالرؤيا ، فأخرجت له مرآة النبي ﷺ التي كان ينظر بها ، فنظر فيها فرأىٰ صورة النبي ﷺ ولم ير صورة نفسه[١] .

وهذا هو الفناء في الرابطة في اصطلاح القوم . ولا يقال : ليس الكلام في صورة النبي ﷺ ؛ لأنا نقول : إن هذا ليس من خصائص الأنبياء ، بل كل ما هو كذلك فهو مشترك بين الأنبياء والأولياء ، ولا شك في هذا عند أهله .

وقال الإمام السيوطي : الكرامات أنواع . . . وعَدَّها إلىٰ أن قال : الثاني والعشرون : التطور بأطوار مختلفة ، وهو الذي تسميه الصوفية بعالم المثال ، وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال ، واستأنسوا له بقوله تعالىٰ : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم : ١٧] .

---

(١) ذكره ابن حجر في كتابه فتح الباري .

والنصوص بهذا المعنىٰ أكثر مما تحصىٰ ، وفيه دلالة ظاهرة علىٰ نوع تصرف للأولياء بعد الموت .

وقد ألَّف كثير من المحققين في ذلك رسائل واضحة المسالك ، فليحذر الموفق عن إنكاره فإنه من المهالك .

ولكن ألجأني هذه الردود أمران :

الأول : الذب عن الطريقة التي هي عروة الوصول ، وسلم رضوان الله تعالىٰ ، واتباع الرسول ﷺ ، والتي أصولها التمسك بعقائد أهل السنة الذين هم الفرقة الناجية .

الثاني : التحذير عن تمويه الغافلين وتزويرهم ، لئلا يؤدي إلىٰ إنكار هذه الطائفة وتكديرهم .

وهذا الفقير يوصيكم بجميع ما تقدم من الآداب ، ويخبركم بأنه يبرأ إلىٰ الله تعالىٰ مِن كل مَن يخالف الكتاب والسنة ، ولم يتبع هدي النبي ﷺ والأصحاب .

ولقد تكلم الشيخ كثيراً ، وأتىٰ بأدلة أكثر من جميع أقوال أئمة المذاهب الأربعة ، وأئمة الشريعة والحقيقة ، وأهل الولاية .

وبهذا رَدَّ علىٰ خلفائه ، وأُخذت الرسالة وطبعت ووزعت في استنبول ؛ لذا تجد أكثر أتباع الطريقة النقشبندية الخالدية في تركيا .

ولقد انتشرت كذلك كثيراً في قبرص ، وبولونيا ، وطاشقند ، وبخارىٰ . . . وغيرها .

وقد كان للشيخ رحمه الله تعالىٰ أكثر من سبعمائة ألف تلميذ ومريد .

عقيدة الشيخ خالد :

كان شيخنا أشعري المذهب والعقيدة ، عاش بها ومات عليها ليقول لخلفائه : هذه عقيدتنا التي نؤمن بها ، والتي نلقى الله ونحن نعتقدها .

وقد قالها وكتبها قبل أن يموت ملخصاً فيها عقيدة أهل السنة والجماعة والحق ، وسأجعلها بين يديك أخي القارئ لتكون على معرفة بعقيدة الرجال . فقال :

أُشهد الله تعالى وأُشهد ملائكته وأنبياءه ، وجميع من حضر أو غاب روحانياً وجسماً من الإنس والجن والمَلَك ، مع سائر ما خلقه الله تعالى مما هو معلوم ومما لا يعلمه غيره ، على أني أشهد شهادة جازمة متواطئاً فيها القلب واللسان ، بأن الله الذي خلق العالم بعد ما لم يكن هو إله واحد واجب الوجود لذاته ، متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ، متفرد باستحقاق العبودية على العالم بل العالمين ، إذ هو مالكهم حقيقة لأنه الذي أوجدهم من العدم ، ومنفرد بالألوهية والقدم والبقاء ، وبالخلق والقدرة سبحانه .

ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض ، وكذلك صفاته لا يقوم بها حادث ، ولا يحل في شيء ، ولا يتحد بغيره . مقدس عن التجسم وتوابعه ، وعن الجهات والأقطار ، مرئي في الدارين بالقلوب ، وفي الآخرة بالأبصار .

كان ولم يكن معه شيء ، لا بداية لوجوده ، أحدث العالم باختياره ، ولم يحصل له بسببه كمال ، ولم يتجدد له تعالى بإيجاده اسم ولا صفة ، بل لم يزل بأسمائه وصفات ذاته ، لا شبيه له بالذات والصفة والفعل .

حيٌ ، قيومٌ ، خالق كل شيء علواً وسفلاً ، براً وبحراً ، جسماً وجوهراً وعرضاً ، حتىٰ أفعال العباد الاختيارية .

عليمٌ بكل شيء من الموجودات والمعدومات ، ومن الكليات والجزئيات ، عالم الغيب والشهادة ، بل لا غيب في حضرته فالكل شهادة ، يعلم خائنة الأعين وهواجس الضمير ، كيف لا وهو خالقها ؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

لا يخرج عن علمه مثقال ذرة من المعلومات ، ولا يخرج عن سمعه ذرة من المسموعات ، يسمع كلام النفس في النفس ، وصوت المماسّة الخفية عند اللمس ، لا يطلع عن إبصاره شيء من المبصرات ، يرىٰ سبحانه دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء علىٰ المسح الأسود . ويبصر أصغر الأشياء في سواد الدأداء خلف ألف حجاب ، سواءٌ لديه الأقرب والأبعد .

يتكلم لا عن صوت مُقَدَّم أو سكوت مُتَوَهَّم ، بكلام أزلي مقدس كسائر صفاته ، كَلَّم به موسىٰ ، وأنزله علىٰ الرسل ، وسمّاه قرآناً وزبوراً وإنجيلاً وتوراة وصحفاً .

حياته ليست بالروح والجسد والأركان .

وعلمه قديم منزه عن التفكير ، وسَبْقِ جهل ، وتطرق نسيان .

وإرادته مقدسة عن الاضطراب ، وعن القلب والجَنان .

وقدرته مبرأة عن توسط الآلات ، وتأييد الأعوان .

وسمعه بريء عن توهم الأَصْمَخَة والآذان .

وبصره لا يُتخيل له الحدقة والأجفان .

وكلامه ليس من فم ولهاة ولسان .

فسبحانه وتعالىٰ رب كريم ، عظيم السلطان ، عميم الإحسان ، جسيم الامتنان ، لا يقع شيء من غير إرادته ، ولا يكون في ملكه إلا ما شاء من خير وشر ، والكفر والمعصية بإرادته دون أمره ورضاه ومحبته[1] .

وإنه تعالىٰ عَلِمَ في الأزل جميع الوقائع الآتية من أفعال العباد وغيرها وما يجازون عليه ، وكتبها بأشخاصها وأحصاها ، فلا يجري شيء إلا علىٰ طبق ما سبق في علمه تبارك اسمه وعز سلطانه .

هذه هي العقيدة الأشعرية الصحيحة النقية الصافية من الشوائب .

والتي من أجلها تعرّض أسيادنا ومشايخنا الكبار لفتن كبيرة .

فيبين أن الله تعالىٰ موجود بذاته ليس بحاجة إلىٰ أحد ، وهو منزه عن النقائص ، أوجد هذا العالم لا لاحتياجه إليه وهو القائل : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

منفرد بالإيجاد والإعدام ، ليس له شريك ، وليس له ولد ، وليس له زوجة ، ليس له أول ، وليس له نهاية ، وهو الذي لا يُسأل عما يفعل .

لا يشغله إبصاره عن سمعه ، ولا يشغله سمعه عن إبصاره ، له

---

(١) هنا أظهر أن هناك فرقاً بين الرضا والإرادة ، فالله خالق الخير والشر ، وإنما نقول تأدباً : الخير من الله ، والشر من أنفسنا .

الفعل المطلق ، والصفات العلية تبارك اسمه وعز سلطانه ، بل لم يزل بأسمائه وصفات ذاته لا شبيه له بالذات والصفة والفعل .

كلامه ليس بحرف ولا بجسم ولا بلون ، كلامه قديم كقدم علمه وقدرته وإرادته .

وفاته :

لقد صبر قدس سره على كيد أعدائه كما صبر على مصائب الدنيا ، فقد توفي له في الطاعون سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف من الهجرة ولدان في الخامسة والسادسة من عمريهما ، بل كان هو الذي يسلي مَن جاء يعزيه .

وكان قدس سره قد وعد مريديه بزيارة بيت المقدس وذلك في شوال سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف من الهجرة ، فلما ظهر الطاعون سألوه إنجاز الوعد ، فقال : ما نحن فيه من مصابرة الطاعون خير ثواباً مما ترغبون . ثم قال : ما جئنا للشام إلا لنموت في هذه الأرض المقدسة ، وهذه الشهادة إنْ تَمَّتْ فهي السعادة الأبدية .

وعندما اشتد الطاعون في البلاد ألّف صيغة في الصلاة على النبي ﷺ تسمى بالصيغة الشفائية ، وهي : [اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد بعدد كل داء ودواء ، وبارك وسلم عليه تسليماً كثيراً] ، وأمر بتوزيعها فوزعت .

ثم بعد ذلك أحب أن يكون فداءً للشام وأهل الشام ، فأصيب بالطاعون وذهب به إلى الله تعالى .

كان قدس سره بعد وفاة ولديه قد أحس بدنو أجله ، فأحضر بعض خلفائه كالشيخ إسماعيل الغزي ، وأشهده أنه أقام على سجادة الإرشاد . وجعل خليفته من بعده الشيخ إسماعيل الأناري ، وبعده الشيخ محمد الناصح ، وبعده الشيخ عبدالفاتح العَقري . ثم أمر بإقامة من هو بعدهم .

ثم أوصىٰ بأملاكه إلىٰ الأماكن التي ذكرها في رسالته وهي موسعة جداً .

ثم جمع خلفاءه وأعاد عليهم الوصية ، وأمرهم باتباع السنة والتمسك بالطريق ، وبالاتفاق والاتحاد .

ثم جمع أهله يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف من الهجرة ، وأوصاهن واستبرأ ذمته من حق لهن عليه . وبقين معه حتىٰ مضت ساعات من الليل ، فقام وتوضأ وصلىٰ ركعات ، ثم قال : إني طُعنت الآن فلا يدخل عليّ أحد إلا مرة . ثم اضطجع علىٰ هيئة السنة ، ولم يُسمع منه تأوه ولا توجع .

وقد جاء لزيارته تلميذه الشيخ محمد أمين بن عابدين ، فقال : يا سيدي ، إني رأيت في المنام أن سيدنا عثمان ميت ، وأنا واقف أصلي عليه . فقال له الشيخ : أنا من أولاده ، وأموت وتصلي عليَّ .

ولما كانت صبيحة الخميس ، دخل عليه خلفاؤه وسلموا ، فأشار إليهم أن يُقِلّوا من الكلام .

وبقي كذلك حتىٰ ليلة الجمعة الرابع عشرة من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف من الهجرة ، حين سمع مؤذن المغرب يقول : الله أكبر ، ففتح عينيه وقال : الله حق ، الله حق . ثم قال : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا

ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر] . ثم لحق بربه سبحانه وتعالىٰ عن عمر بلغ الخمسين عاماً سوىٰ شهر ونصف .

ولقد حُمِلَ إلىٰ مدرسته في دمشق ، ثم من هناك إلىٰ جامع يَلبُغا في المرجة . وحضر الناس للصلاة عليه أفواجاً ، ولم يسعهم المسجد بالرغم من كبره . وقد أمَّ الناس في الصلاة عليه ابن عابدين كما رأىٰ ذلك .

ثم حُمل قدس سره إلىٰ سفح جبل قاسيون وأعيدت الصلاة عليه ، ودفن هناك حيث كان قد أمر وعين لهم مكان قبره وأماكن قبور خلفائه من بعده .

وفي الحقيقة كانت وفاته رحمه الله تعالىٰ نكبة كبيرة لأهل الشام يومها ، حيث كان الأب الروحي والموجه الكامل ، فحزن عليه الناس شديد الحزن .

ووقف يومها ابن عابدين تلميذه المشهور ورثاه بقصيدة مطولة قال فيها :

أيُّ ركن من الشريعة مالَ ... فرأيناه قد أمال الجبالا
مذ رُزِئنا بأوحد العصر علماً ... وبهاءً وبهجةً وكمالا
واجتهاداً وطاعةً وصفاءً ... وسخاء وعفة ونوالا
هو بحر العلوم شرقاً وغرباً ... ويميناً وقِبلة وشِمالا
فإذا عَنَّ مُشْكِلٌ كَلَّ عنه ... كُلُّ شهم يحِلُّ عنه الشِكالا
مذ تجلىٰ سناه فينا أرانا ... كل بدر وقت الكمال هلالا
وسقىٰ أهلَ عصره كأس قرب ... وحساهم منه الرحيقَ الزلالا
هو قطب عليه دارت رَحىٰ العز ... وهو الفرد والفريد قالاً وحالا
هو شيخ السلوك مَن نال هدياً ... مِن سناه فقد تزكىٰ فِعالا

ولعثمان ذي الحياء وذي النور ... ين أضحى انتسابه إجلالا

وبه ازدان ديننا وطريقُ ... النقشبندي زاد منه جمالا

ما رأينا كعلمه وتقاه ... ولِجَدْواه ما رأينا مثالا

دَمِث الخلق لم يُكدِّرْ صفاه ... جاهلٌ رام منه شيئاً محالا

كثرت حاسدوه فازداد هدياً ... مذ أشاعوا الرَّدىٰ وزادوا ضلالا

ورَمَوْه بالإفك ظلماً وراموا ... ذُلَّه مذ رَأَوْه فاق خصالا

فتغاضىٰ عن القبيح وأبدىٰ ... ما به زاد رفعة وجلالا

أيظن الحسودُ يطفيء نوراً ... قد أراد الإله أن يتلالا

دأبه نشر حكمة وعلوم ... كم به متعبد تَقَرَّبَ حالا

كعداد النجوم أتباعُهُ في كل ... قطر به صَفَوْا أعمالا

كم له من خليفةٍ زاد قرباً ... وامتطىٰ في التقىٰ مقاماً تعالىٰ

كم به مسجدٌ أعيد سناه ... واكتسىٰ من جماله سِربالا

ولَكَمْ عال عاجزاً وفقيراً ... فقضىٰ مِن نواله آمالا

ولَكَمْ شاد سُنة قد تداعت ... وشفىٰ باللسان داءً عُضالا

ولَكَمْ حاز خصلة قد تسامت ... دونها النجم في علاه مَنالا

ومزايا إذا أردتَ عِداد القَلِّ منها ... فلست تحصي الرمالا

قد أجاب الإلهَ لما دعاه ... لِدار النعيم رام انتقالا

فبكته العيون دمعاً غزيراً ... فكأن العيون أضحت ثكالا

خالد القطب لم يزل فهداه ... خالدٌ في الأنام ليس مُزالا

فعليه من المهيمن رُحْمىٰ كل ... حين علىٰ ثراه توالىٰ

ما سرىٰ في الضمير ذكر خفي ... وارتضاه سبحانه وتعالىٰ

وبعد وفاته بثلاثة أيام أتىٰ كتاب الخليفة بنفيه من دمشق

إلى السليمانية ، وهذا يدل على أن حساده كانوا يعملون ليل نهار بالوشاية إلى الخليفة . أرسلوا الرسالة ولكن بعد فوات الأوان ، فيومها اضطر والي دمشق أن ينفي أزواجه وأولاده لفترة من الزمن ، ثم رجعوا إلى دمشق بعد أن ذهبت الزوبعة العالية .

ثم انتقل سر الطريقة العلية بعد سيدنا الشيخ خالد البغدادي على الترتيب إلى :

٣١- سيدنا الشيخ إبراهيم النوراني .

٣٢- سيدنا الشيخ خالد الجزري .

٣٣- سيدنا الشيخ صالح السبكي .

٣٤- سيدنا الشيخ حسن النوراني .

٣٥- سيدنا الشيخ قاسم الهادي .

٣٦- سيدنا الشيخ عيسى أبي شمس الدين الكردي .

قدس الله تعالى أسرارهم العلية ، ونفعنا ببركتهم ، وجعلنا دائماً مَوصولين بهم .



٣٦ - سيدنا الشيخ عيسى أبو شمس الدين الكردي

نسبه ومولده :

هو أبو شمس الدين عيسىٰ بن طلحة بن عمر بن عاشور بن حسن الكردي . ينتسب أبوه لقبيلة بُوطان من أشهر عائلات وعشائر الأكراد في بلدة شَوْز التابعة لديار بكر في بلاد العراق من الناحية الكردية .

ولد قدس سره سنة سبع وأربعين ومائتين وألف من الهجرة في بلدة ترحُم ، وهي أيضاً تتبع في الولاية لديار بكر في العراق .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

نشأ شيخنا قدس سره بين أبوين صالحين يرتضع حليب التقىٰ ، ويأخذ من ماعون الإيمان حتىٰ العاشرة من عمره .

ثم رحل في طلب العلم إلىٰ جهات ديار بكر ، فقرأ مدة فيها العلوم والمتون والشروح ، وبقي كذلك حتىٰ بلغ الحلم سنة أربع وستين ومائتين وألف من الهجرة .

ثم سافر إلىٰ الحجاز بنية الحج لبيت الله الحرام ، ولكنه لم يحج تلك السنة لمرض أصابه في المدينة المنورة زادها الله شرفاً ، فبقي فيها حتىٰ شفي بعون الله تبارك وتعالىٰ .

ثم انطلق بعد ذلك إلىٰ مصر ، واجتمع بكثير من علمائها ، كشيخ الأزهر الباجوري رحمه الله تعالىٰ ومَن في طبقته . وجلس فترة يتعلم ، ثم بعدها قصد الشام .

فمكث بالشام حيناً في المراقبة في قبة مولانا خالد ذي الجناحين[1] ، ثم رجع إلىٰ بلاده ديار بكر ، فأخذ هناك العلم عن مشايخ عدة من أشهرهم الشيخ قاسم الهادي الذي أجازه في اثني عشر علماً . مع العلم أن الشيخ حسن النوراني هو شيخ سيدنا قدس الله سريهما ، وقد أخذ عنه أولاً الطريق واختلىٰ عنده . ولما مات الشيخ حسن النوراني سنة أربع وثمانين ومائتين وألف من الهجرة الشريفة ، خلفه الشيخ قاسم مدرساً في المدرسة التي كانت تنسب إليه في بلدة آق تيه ، ثم بايع شيخُنا الشيخَ قاسم وأتم السلوك علىٰ يديه في الطريق ، ثم أجازه في تربية المريدين ، وهي مرتبة رفيعة عند أهل الطريق .

وبعد وفاة الشيخ قاسم انتقل الشيخ عيسىٰ إلىٰ بلاد بشيري من نواحي بلاد الأكراد مرشداً ومعلماً في الشريعة والحقيقة .

وبعد الحرب العالمية الأولىٰ سنة أربع وتسعين ومائتين وألف من الهجرة ، رحل بأهله مهاجراً إلىٰ بلاد الشام .

ولقد حج الشيخ عيسىٰ سنة خمس وتسعين ومائتين وألف من الهجرة ، وبعدها رجع إلىٰ بلاد الشام . وجلس في دمشق يبث علم الشريعة والحقيقة ، ويقرب الناس والخلق إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ . ولا زال كذلك حتىٰ كثر مريدوه وكثر المنتفعون به ، وأصبح كبار علماء دمشق ينتسبون إليه .

ثم بعدها زار القدس الشريف ، ثم المدينة المنورة سنة ثمان وعشرين

---

(١) هي قبة تقع شمال دمشق بلحف جبل قاسيون فوق حي الأكراد .

وثلاثمائة وألف من الهجرة ، ثم رجع إلىٰ دمشق وأتم طريقه الذي سلكه في الوعظ والإرشاد ، وتقريب المريدين إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ .

ولقد كان شيخنا قدس سره كغيره من الموفقين ، بذل عمره وحياته في طريق الله ، مع قمة التواضع بتوفيقه تعالىٰ .

وكلمة التوفيق معناها لغة : هو التلاؤم بين شيئين ، أو التقارب بين أمرين . وشرعاً : هو أمر يخلقه الله تعالىٰ في قلب عبد من عباده . أي بتعبير آخر هو أن يخلق الله الطاعة في قلب عبده بحيث يرىٰ نفسه أنه بحاجة إلىٰ القرب إلىٰ الله تعالىٰ .

وأقول : التوفيق فوق العقل بكثير ، وها نحن نرىٰ ما وصل إليه أصحاب العقول ، منهم من اخترع الذرة ومع ذلك لا يحسن الوضوء ، فماذا نفعهم العقل ؟!

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

وإذا الكريم مضىٰ وولىٰ عمره ... كفل الثناء له بعمر ثان

وإذا صفىٰ لك من زمانك واحد ... فهو المراد وعش بذاك الواحد

أجل ، وُفق شيخنا ليكون وارثاً محمدياً ، وهذه مرتبة لا تكون إلا لإنسان موفق .

بعض أوصافه وأخلاقه :

كان قدس سره طويل القامة ، واسع العينين ، كث اللحية ، أقنىٰ الأنف ، واسع الخطوة ، حاد الذهن ، حاضر الجواب ، قوي الحافظة ، شديد الهيبة .

كان كلامه مفصلاً معرباً في الغالب ، يعتمد علىٰ اللغة العربية الفصحىٰ .

كان قوي الحجة والدليل ، شديد التأثير على الآخرين ، إذا تكلم أطرق مريدوه وكأنما على رؤوسهم الطير من مهابته واحترامه ، بل كان مريدوه في قمة الأدب بحضرته .

تواضعه :

كان قدس سره في قمة التواضع والخلق الكريم ، وكان يعتبر أن التواضع لا بد منه لكل سالك وولي ، ولكل من يريد الوصول إلى الله تعالى ، فكان يربي طلابه ومريديه على هذا التواضع .

ومن ذلك أنه كان يجالس الفقراء ويجاملهم ، ولا يكون كذلك مع الأغنياء . وكان يقول لهم :

"لكل شيخ عادة ، وعادتي أن أطلب الدعاء منكم ؛ لأن قلوبكم منكسرة ، ودعاءكم مجاب" .

❁ وكان يقول كذلك :

"إن التواضع يُعز صاحبه ويرفعه" .

❁ وقال لخلفائه :

"لا ترغبوا في كثرة المريدين وكثرة الشهرة ، فإن الشهرة آفة إلا من عصمه الله . وخافوا دائماً أن يشار إليكم بالأصابع ؛ لأن الذي يشار إليه بالبنان يُعَرَّضُ لأمور وفتن" .

وكان يقرأ الحديث الشريف : « بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا إلا من عصم الله »[1] .

---

(١) رواه الترمذي عن أنس ، والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعبه عن أبي هريرة . ورواه الطبراني في الكبير بلفظ : [كفى بالمرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع] .

❁ وقال أيضاً :

"عليكم بالتواضع ، فإن من تواضع لله رفعه . ولا ترغبوا في القعود في الصدور ، فإن كثيراً ممن يقعد في العتبة أحبُ إليّ من القاعدين بقربي" .

❁ وقال قدس سره :

"ينبغي للمريد أن لا يعتمد على غير الله ﷻ برزقه ، فيكون في قمة التوكل ، وأن لا يحتقر أحداً بل يرى نفسه أحقر الورى دائماً" .

فالتواضع هو أمر طبيعي في الإنسان ، أن يعرف الإنسان أصله ونهايته ، فمتى عرفتَ أصلك يا ابن آدم ونهايتك وصلت إلى لب الحقيقة . الأصل تراب والنهاية تراب ، فلو حفرنا قبر رجل مضى على وفاته مائة عام ، لوجدنا صاحبه عبارة عن تراب ناعم ، أي رجع اللحم والعظم إلى أصله التراب .

قال أبو العلاء المعري :

خفف الوطء فما أظن أديم ... الأرض إلا من هذه الأجساد
سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد

فهوِّن عليك أيها التراب ، لا ترتفِعَنَّ على أصلك ، فهذه الأرض هي أمك ، مهما ارتفعتَ سترجعُ إليها ، وستضمك وتعانقك . وهذا وَعْدٌ من الله تعالى ، فعندما أمر مَلَكاً أن يأخذ قبضة من الأرض عاهدها أن يعيدها إليها .

وطريق السلوك يحتاج إلى الفقر لله ، إلى التذلل ، وإلى الجلوس مع الفقراء والمساكين . فكبير من كبار الأولياء الذي نشير إليه بالبنان ، وصل إلى الغوثية بتواضعه مع كلب أجرب ، عالجه وأكرمه ، داواه وأطعمه ، فوصل إلى الله تعالى بذلك .

ويروى أن مومساً رأت في الصحراء كلباً يلهث عطشاً ، فنزلت البئر وأخرجت له الماء وسقته ، فشكر الله ، فتاب الله عليها بسبب الكلب .

وورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً »[1] .

وكذلك قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الهدهد عندما أمر بإحضاره في حراسة مشددة من النسور والعقبان لأنه تأخر عن الصف . فلما أُحضر الهدهد نزل ووقف أمام سيدنا سليمان ، فأرخى جناحيه وطأطأ رأسه ، وأنزل ذيله للأرض وقال : يا نبي الله ، وقفتي هذه تذكرني بوقوفك بين يدي الله ، الآن أنت الملك وحولك من الجن والإنس والسباع والقوة وأنا ضعيف بين يديك ، كموقفك غداً أمام ربك الذي هو أقوى منك . فبكى سليمان وخاف ، وعفا عن الهدهد الذي كان يريد أن يذبحه .

لهذا كان مشايخنا يأمرون بالتواضع ويقولون : يا ولدي ، إذا قصدتَ الله وأتيت إلينا ، فاترك جاهك ومالك وكل ما يرفع من شأنك ، دعه على الباب وادخل إلينا متجرداً . حيث التواضع هو أول قدم يضعه المريد في طريق السلوك إلى الله تعالى .

ولقد علمتُ أن بعض مشايخنا كان لهم بعض المريدين من الملوك

---

(١) حديث متفق عليه رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجة والبيهقي وابن حبان وغيرهم بروايات مختلفة عن أبي هريرة ، وبمثل معناه عن ابن عمر ولفظه : [عُذِّبَت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض] .

وأبنائهم ، وكانوا في مجالسهم في قمة التواضع ، يقومون بسقاية الماء ، وبصف النعال ، وخدمة الإخوان . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنهم فقدوا نفوسهم وكبرياءهم ، وكل ذلك في سبيل الوصول إلى الحضرة الإلهية .

حلمه ورأفته :

كان شيخنا قدس سره لا ينتقم لنفسه ، فإذا بلغه أن رجلاً أظهر له العداوة قال : سلمته إلى الله تعالى ، ونِعْمَ التسليم .

وكان يقول : ما قصم ظهور العارفين مثل قول النبي ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها »[1] .

وكان شديد الرأفة بالمسلمين عامة ، وبمريديه وأهله خاصة ، يتألم لآلامهم ، ويتوجع لأوجاعهم .

وكان يمازح المريد كثيراً ليزيل الحجاب حتى لا يهاب الشيخ ، فيكون معه على الطريق .

ورعه وصلابته في الحق :

كان قدس سره ظاهره كباطنه ، وباطنه كظاهره . لا يمدح رجلاً بعينه إلا نادراً وللضرورة .

وكان لا يأكل من مال الزكاة ؛ وذلك لأنه يعتقد أن نسبه يتصل

(١) حديث متفق على صحته وتلقته الأمة بالقبول ، رواه الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود ، ومن طريقه خرّجه الشيخان في صحيحيهما واللفظ للبخاري . كما رواه الترمذي في سننه وابن ماجة والبيهقي والبزار وأحمد من وجوه متعددة .

بالنبي ﷺ ، حيث كان أبوه من قرية جميع أهلها من أهل البيت ، ثم ارتحل وجلس في بلاد الأكراد .

وكان قدس سره حافظاً لوقته ، وقّافاً مع الشرع ، سيفاً قاطعاً على المتصوفين الذين يخالفون الشرع ، بل يوقفهم عند حدهم ويحاربهم ، وهم الآن في زماننا أكثر .

وفي الحقيقة أقول : إني لا أخاف على الناس من الصوفي الصادق ، إنما أخاف على الناس من المتصوف الذي يأتي لنا بثوب الصوفية وقلبه قلب ذئب . لا أخاف من الصوفي المخلص لأنه يريد الآخرة ، والذي يريد الآخرة لا يتجرأ أن يغش الناس ونفسه ، إنما ذاك الذي يوهم الناس أنه صاحب مدد وولاية ويدعي التصوف فهذا الذي يضر ؛ لأنه يريد الوصول إلى مركز دنيوي عن طريق التدجيل ، والذي ينضم إليه إما الأغبياء غير الموفقين أو المنتفعون منه ، فهؤلاء ساروا لمصلحتهم ولكنهم غشوا غيرهم .

فاحذر المدعين وإياك أن تلتفت إليهم ، ولو رأيت إنساناً يمشي على وجه الماء أو الهواء وهو مخالف للسنة والشرع فقل : إنه مستدرج .

وأقول كما قال وفعل مفتي مكة ابن حجر الهيتمي صاحب (التحفة) ، والقصة كما وردت أن مجذوباً كان يقف أمام الكعبة المشرفة عارياً تماماً وهو يضحك ، فكان كل من أنكر عليه يضرب حالاً - فيفلج ، أو يصبح أعمى ، أو أخرس . . . - ، فخاف الناس منه . فلما علم ابن حجر جاء إليه وأخذ بيديه ، وأجبره على ستر عورته ثم مشى . وفي الليل رأى في المنام سيدنا الرسول ﷺ يقول له : يا ابن حجر ، أما علمتَ أنه ولدي ؟ قال ابن حجر : علمتُ يا رسول الله بأنه ولدك وأنا طبقت شريعتك .

وفي اليوم الثاني جاء ابن حجر ورأىٰ المجذوب علىٰ نفس الحالة وقال له : أما جاءك جدي في الليلة الماضية ؟ فقال ابن حجر : جاءني وتكلم معي فأجبته بما سمعتَ . وأجبره علىٰ ستر العورة بالقوة ، ولم يلتفت إليه . فرأىٰ في الليلة الثانية رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن حجر ، إنه ولدي . فقال : وأنا أطبق شريعتك يا رسول الله .

فجاءه في اليوم الثالث فوجده علىٰ نفس الحالة وقال له : ألم يأتك جدي البارحة ؟ قال : بلىٰ وأجبته بما سمعت ، وستر عورته رغماً عنه .

وفي الليلة الرابعة جاءه النبي ﷺ وقال : يا ابن حجر ، إنه ولدي . قال : وأنا أطبق شريعتك ، فابتسم له رسول الله ﷺ ، وأقرّه وأعلمه أنه مختبر وقد نجح .

فسئل ابن حجر : لماذا كان الآخرون يُضربون وهو لم يُضرب ؟ فقال : إنهم كانوا يفعلون ذلك للظهور ، ليقال عنهم : إنهم آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر .

وأذكر في دمشق أنّا كنا نرىٰ القاضي ابن عابدين يمشي عارياً والثلج يندف والعرق يتصبب منه ، حيث ما رئي بعد جذبه إلا عارياً . وقد مر ابن عابدين في يوم علىٰ باب الجابية ، فصاح في وجه رجل معه أربع قدر فول ، ثم أخذ العصا وضرب القدرة ، فكسرها وأراق ما فيها . فجاء الناس واعترضوا عليه ، فلما أريق الفول إذ بحية كبيرة في قاع القدر وكان سمها في هذا القدر ، وكانت هذه كرامة لابن عابدين .

فهؤلاء أهل الجذب وصلوا لدرجة فقدوا عقولهم وأصبحوا في غيبوبة ، وهم غير مكلفين شرعاً ، ولكن علينا أن نوقفهم عند حدود الله

مهما ظهر منهم من أمور خارقة للعادة .

زهده في الدنيا :

كان الشيخ عيسى زاهداً في الدنيا ، لا يعبأ بها أتت أم ذهبت ، ولم يُوَرِّثْ بعده مالاً قليلاً ولا كثيراً .

* وكان يقول :

"إني اخترت الفقر والقلة على الغنى بموافقتي للشرع ، والوقوف عند حدوده" .

* وقال :

"لو أردتُ أن تمتلئ عتبتي هذه – وأشار إلى عتبة داره – ذهباً لفعلت" .

أي ما كان الفقر إلزاماً له ، إنما اختاره وكان يهواه ؛ لأنه لا يريد أن يتحاسب على درهم أو دينار .

هناك بعض الرجال يختارون الغنى لينفقوا ذلك في طاعة الله ، وهناك من يختارون الفقر حتى لا يحملوا المسؤولية أمام الله ، أخذاً من الحديث الشريف : « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام »[1] .

وهذه مشارب الرجال ، فلكل واحد منهم مشرب ، وله تأويله الصحيح . فسيدنا الشيخ خالد كانت يده مليئة وورث الكثير كما مر

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث صحيح . كما رواه الترمذي عن جابر وحسّنه ، والطبراني وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً] .

معنا ؛ لأنه عرف بأن أهل زمانه يحبون المادة ويحبون الذي يكون بهذه الصفة ، وقد كان له في زمانه أعداء كثر .

فماذا نقول في زماننا والأعداء يحاولون أن ينعتوا عدوهم بدون ورع ، وبدون الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ ؟ فهنا لا بد من اختيار الغنىٰ حتىٰ لا نكون بحاجة إلىٰ من يحاول قطع الطريق .

كان المريدون سابقاً يأتون بأموالهم ويضعونها أمام الشيخ ، وصلوا إلىٰ ذروة التسليم والإيمان ، وهم يعتقدون أن الفضل للشيخ لقبوله ذلك . أما في زماننا فالموازين تغيرت ، والمادة أقبلت علىٰ الناس بأكملها وهم يلهثون ويتسابقون علىٰ طلبها . فلو وُجد شيخ فقير ووُجد مريد يُنفق عليه ، فإنه سيرىٰ نفسه أفضل من الشيخ ، وله الفضل عليه لضعف إيمانه ، ومن الصعب أن يسلك معه الناس .

لهذا لا بد للشيخ أن يكون في زماننا هذا مكتفياً عنهم بفضل الله وبرحمته ؛ ليكون غنياً عن هؤلاء قطاع الطرق . ولقد عرف للأسف أعداء الإسلام كيف يحاربون دعاة الأمة ويعادونهم من هذا الباب ، باب التفقير وقلة اليد .

ملازمته للسنة الشريفة :

كان قدس سره يلازم السنة الشريفة في كل أمور حياته فعلاً وقولاً وعملاً ، ويعلمها لطلابه عملياً ، فيجذب أنظارهم بوضوح إلىٰ ما يعمل من سنن فيتبعونه ، كما كان يفعل النبي ﷺ مع أصحابه .

فالعملي له تأثير أقوىٰ من القولي ، والمريد إذا أحب الشيخ يقوم

بمـا يقـوم بـه ، ويـهوىٰ أنفاسـه فيتنفـس كمـا يتنفـس . وهـذا هـو المريـد الصادق ، وهذا هو الحب الذي يوصله .

❁ وكان قدس سره يقول :

"احفظوا طريقـتي هـذه ، فكـل مـن خـالف منكـم الشـريعة فأنـا بـريء منه ، لا أنتسب إليه ولا ينتسب إلي" .

❁ وقال كذلك :

"لا تختلفوا بعـدي ، وكونـوا إخوانـاً متحـابين في الله تعـالىٰ . فمـن زاغ عـن السـنة والشـرع واتبـع هـواه ، فأنـا بـريء منـه وهـو بـريء مـني ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم" .

ولا أخفيـك سـراً أيـها القـارئ هـي ناحيـة دقيقـة ، وإنـي أخافـها علىٰ المريدين بعدي ، فأقول لهم :

أحب منكم أيها المريدون أن تكونوا إخواناً علىٰ اختـلاف جُبلـة كـل واحد منكم . عليكم بالحفاظ علىٰ وحـدة الجماعـة وبقائـها ، وأن يتحمـل كل واحد منكم الآخر ، وأن يتواضـع الكبـير للصغـير ، والغـني للفقـير ، وأن تكونوا مع بعضكم كالجسد الواحد .

خذ من نفسك عبرة وطبقها علـىٰ إخوانـك ، قـد تختلـف مـع أخيـك في بعض الأمور إنما في الأمور الأساسية أنتما سواء ، سواء في حبكمـا لله تعالىٰ وللرسول ﷺ ، سواء في حبكما للقـرآن الكريـم وللسـنة الشـريفة ، سواء في حبكما للشيخ وللطريقة والحقيقة .

أذكر أنـي كنـت في بدايـة طلـب العلـم قـد اختلفـت مـع زميـل لي ، ولم يكن ذاك الاختلاف عميقاً جداً إنما كان : هل نلعـق الإنـاء بـالإصبع

أم بالخبز ؟ وكنت مصراً على أن لعق الإناء سنة ولو كان بالخبز ، ولا يعد ذلك ازدراء للخبز . وبقي الاختلاف طويلاً ، ثم بعد ثلاث سنوات انتهى الخلاف بيننا على أن اللعق سنة بأي شيء .

فالمقصود التفاني والتسامح مع بعضكم إذا كان المقصود ليلى ، وإياكم والاختلاف فإن ذلك لصا إبليس وأعداء الإسلام ، فطالما أن كل واحد منكم في مكان واحد فأنتم بحاجة إلى بعضكم البعض ، حتى لو لم يبق في هذا البلد سوى اثنين فعليهما أن يجتمعا في الأوقات ويقرآ كتاباً أذن لهما الشيخ به .

خشوعه وعبادته :

كان شيخنا قدس الله سره حاضراً مع ربه في جميع أحواله كلها ، حتى قال لأحد خلفائه في الطريق سيدنا أبي الخير الميداني : (إن قلتُ لك إنه تبارك وتعالى لا يغيب عني طرفة عين فصدّق) .

يروى أنه كان في استنبول يصلي وحصل زلزال شديد عام أحد عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة الشريفة ، وأخذ الناس يفرون من شدة الخوف وهو لم يلتفت ولم يبارح صلاته ، مما يدل على كثرة حضوره مع ربه وصلته به تبارك وتعالى .

وكان قدس سره كثير الأوراد ، وله عدة مرائي تدل على منزلته العالية الرفيعة عند الله تبارك وتعالى .

وكان يأمر مريديه على مداومة الذكر الخفي ، ويقول :

"إنه مِن أعمال الروح ، ولا ينقطع حتى ولا بالنوم والموت" .

أي أن تذكر عند النوم وتبقى مراقباً حتى تنام وأنت على هذه الحالة

وتموت ، فتكون في ضيافته ومع حضرته .

وكان قدس الله سره يقيم الختم الشريف يوم الجمعة ، ويجتمع فيه أكثر من خمسمائة شخص .

سعة علمه :

كان رحمه الله تعالىٰ ذا قدم راسخ في الفقه الشافعي ، يستظهر أكثر مسائله منه ، فهو فقيه شافعي كغالب الأكراد .

وكان كثير المطالعة ، يحفظ بعض المتون عن ظهر قلب ، مدققاً للعبارة ، يحب النوادر والغرائب في كل شيء ، ويحب المسائل التي فيها توسعة علىٰ المسلمين .

ولقد تبحر في علم التوحيد وكان له باع طويل في ذلك ، فكان يدرس العقيدة الأشعرية ، وقد قال :

"لو ألفت في علم التوحيد لرفعت الخلاف بين أئمته" .

كما أن باعه كان طويلاً في علم التصوف ، حيث اشتغل فيه علماً وعملاً وذوقاً وتربية ، وكان يمزجه مع الشريعة المصونة المحروسة .

وله قدس سره مؤلفات منها (رسالة في جواز تعدد الجمعة للحاجة فقط) .

وكان الشيخ قدس سره يحب أهل العلم وطلاب العلم ، ويقدرهم حق قدرهم ويقدمهم . ولقد أجاز كثيرين منهم بلا تسليك أو بتسليك قليل قائلاً :

"العلم هو طريق مستقل" .

فأخذ عنه الطريقة علماء كثر من ديار بكر ، ومن حلب الشهباء كالشيخ

عبدالقادر لبنية والشيخ مصطفىٰ لبنية ، ومن يافا ، وجوبر ، ومن علماء قازان ، ومن أهالي أسكوب ، ومن دمشق ، ومن غير ذلك من جميع الأقطار .

ولقد لزمه مريدون كثيرون ، وأخذوا عنه الطريقة النقشبندية . وكان من عادته عند قبول مريد جديد أن يأمره بالاغتسال والتوبة وقبل ذلك بالاستخارة ، ثم يبايعه علىٰ الالتزام في أصول الطريق .

وكان قدس سره يخاف علىٰ المريدين كثيراً ، لهذا كان ينهاهم عن الخوض في كتب التصوف التي لا يوافق ظاهرها الشرع الحنيف ، والكتب التي قد تؤدي إلىٰ البلابل النفسية ودخول إبليس والوساوس . فمثلاً قال : لا تقرؤوا كتب محيي الدين بن العربي ؛ لأنها تحتاج إلىٰ تأويل وتفسير لتُفهم .

وبالمناسبة أقول : إياك وتناول الكتب المحظورة . نحن لسنا بحاجة للتوراة والزبور . . . ، هي كتب محرفة لا نلتفت إليها ، نحن لسنا بحاجة لكتب الفلاسفة والمناطقة لأنها مفسدة ، لسنا بحاجة إلىٰ كتب المخالفين الخارجين عن نطاق المذاهب الأربعة ، فقرآننا يكفينا .

لا أحب لمن ينعت بالحسينية أو باليعقوبية أن يلتفت إلىٰ كتب المخالفين : ككتب المعتزلة ، والزيدية ، والشيعة ، والسلفية ، والوهابية ، والإخوان المسلمين . . . وغيرها ؛ لأنه يأتي لنفسه بالسم .

فلا تقرأ في الكتب التي يوجد فيها نغزات ؛ لأنها تضرك وتشوش عليك أفكارك . واعتمد دائماً في الفتوىٰ علىٰ الكتب المعتمدة عند أهل المذاهب الأربعة ، وخذ ذلك من فم حي عالم ورع ، وسِرْ لتلقىٰ الله عز وجل علىٰ ذلك .

بعض كراماته :

هي أكثر من أن تذكر ، ومنها :

أن مريديه كانوا يشمون منه رائحة المسك في غالب أوقاته .

ويروىٰ أن رجلاً فقيراً جاء إلىٰ الشيخ يترجاه أن يكلم أخاه الغني ؛ ليحسن إليه ببعض المال لينفق علىٰ عياله ، فقال له الشيخ قبل أن يتكلم بأي كلمة : إن الأغنياء قد قست قلوبهم ، فلا يدفعون من مالهم شيئاً إلا أن يجبروا علىٰ دفع مظلمة . فكاشفه الشيخ قبل أن يحدثه بالموضوع .

ويروىٰ أن رجلاً دخل علىٰ الشيخ وأمامه وردتان ، فقال الرجل في قلبه وكان من أهل الطريق : لو كان الشيخ من أهل القلوب والمكاشفة لأعطاني هذه الوردة ، مشيراً بقلبه إلىٰ إحداهما . فأعطاه الشيخ تلك الوردة بعينها ، فقال له المريد : فداك أبي وأمي ، هذه التي كنت أريدها . فابتسم الشيخ .

ويروىٰ أن بعضهم قد كان أرمد العينين ، فطلب من الشيخ أن يدعو له بالشفاء من ذلك ، فقال له الشيخ : أنت تتناول الأمور المحرمة فأنت تستحق العمىٰ ، فعمي الرجل بعد ذلك .

ويروىٰ أن الشيخ مصطفىٰ الخيمي والشيخ سليم النطفجي اتفقا علىٰ أن ينقطعا لطلب العلم والآخرة فقط في جامع من جوامع دمشق ، وكان ذلك فيما بينهما ولم يطلع علىٰ ذلك أحد أبداً . ثم ذهبا إلىٰ الشيخ عيسىٰ قدس سره وكان يصلي ، فلما انتهىٰ من صلاته التفت إليهما قائلاً : يا مصطفىٰ ، لا تترك أسباب الرزق واشتغل بالدنيا والآخرة معاً ، فالآخرة تحتاج إلىٰ جسر والدنيا هي جسرها .

ويروىٰ أن بعض طلاب الشيخ سليم خلف - وهو حمصي - أرادوا السفر إلىٰ الشام ، فاستأذنوا شيخهم فأوصاهم أن يشتروا له عصا من دمشق . فجاءوا دمشق وقضوا حاجاتهم ، ثم زاروا الشيخ صاحب هذه الترجمة وقد نسوا الموضوع تماماً . فأخرج لهم الشيخ عصا من عنده وقال لهم : هذه العصا التي أوصاكم بشرائها شيخكم ، فقدِّموها هدية مني إليه .

ومن كراماته كذلك يقول بعض مريديه : أحببت السفر إلىٰ المدينة المنورة فاستأذنت الشيخ بذلك ، فوجدت علىٰ وجهه بعض التردد وكأنه يستنكر سفري ، فقلت له : إن أردتَ أن لا أذهب فسمعاً وطاعة علماً أني لم أعزم بعد ، فقال لي : إني أختار لك أن تؤخر هذا السفر إلىٰ وقت آخر لأمر سيكون . ففعلت ، وما هي إلا أيام حتىٰ مرض الشيخ وحصلت وفاته ، فكأن الشيخ أحب أن أحضر جنازته ، وكم كانت مؤثرة .

ويقول أحد أحباب الشيخ : ما خدمتُ أحداً من تلاميذ الشيخ ومريديه إلا وأكرمني الله تعالىٰ بذلك إكراماً كثيراً ، وكوفئت ببركة الشيخ .

من كلامه ومآثره :

❁ كان شيخنا قدس سره يقرأ دائماً قوله ﷺ :

"ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب"[1] .

---

(١) حديث متفق علىٰ صحته أخرجه أصحاب الكتب الستة : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن النعمان بن بشير . وقد جعلوا هذا الحديث ثلث الإسلام ، حيث روىٰ الحافظ السيوطي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال : أصول الإسلام علىٰ ثلاثة أحاديث ، وعدّ هذا منها .

وهنا يشير إلى لزوم ذكر القلب إلى أن يشعر الذاكر أن جميع ذرات وجوده تذكر . كما يشير إلى أهمية ومكانة القلب ، حيث إنه محط نظر الرب تبارك وتعالى ، فإذا صلح صلحت الجوارح كلها .

فليكن قلبك دائماً نابضاً بذكر الله ، شاعراً بالحضور مع الله . ومع كثرة ذكر القلب تتجاوب الأعضاء والأجزاء التي حول القلب ، ثم تتبع هذه الرفعة وترتفع حتى تنتقل إلى العين ، والأذن ، والأنف . . . وإلى الجوارح كلها ، فتذكر بنفس ذكر لسان القلب (الله) .

والذكر يحتاج إلى الصفاء ، أي الخلوة عند الذكر . وكلما ازداد صفاء القلب لمع ونقت مرآته ، فإذا نقت مرآة القلب ظهر فيها الملك والملكوت . وهذه المرآة تثقلها الحجب أي الران ، والران هذا يأتي عن طريق التشويشات والمخالفات ، فتكون راناً فوق ران ، ولإزالتها تحتاج لوقت قد يكون طويلاً .

ومن هنا كان لا بد من المحافظة على القلب ، وعلى حفظ البصر حيث هو نافذة القلب .

❁ وقال قدس سره :

"إذا أوصى أحدهم بثلث ماله لأعقل الناس فإنها تصرف إلى الزهاد" .

❁ وقال قدس سره :

"إن الرجل لا يصير صوفياً بقراءة كتب التصوف" .

وأضيف : كما أن الطبيب لا يصير طبيباً بقراءة كتب الطب . فالكتاب لا يكفي بل الالتزام بالعمل ، بأن تندمج الصوفية بدمه وروحه .

❁ وقال قدس سره :

"**من علامات المرشد الصادق إذا جالسته أن ينبض قلبك بذكر الله من غير اختيارك**" .

فكلما رأيت الشيخ تذكرت الله .

❁ وقال قدس سره :

"**إن الحضور مع الذكر كالحضور مع الله ﷻ**" .

لأن الذاكر يذكر الله ﷻ ، يقول الله ﷻ في حديث قدسي : «أنا مع عبدي إذا هو ذكرني»[1] .

فالذاكر عليه أن يتصور تماماً بأنه مع الحضرة وبدون كيف .

❁ وقال :

"**إن كثرة الخواطر لا تمنع الذكر ، كالشجرة التي يكون أصلها في الماء لا تمنع جريانه**" .

يعني شيخنا بذلك أن هناك كثيراً من الخواطر الدنيوية والأخروية تأتي للمريد أثناء الذكر ، وهي من عدة مصادر : إبليس والنفس ومصادر أخرىٰ ؛ لتشغل عن الله وعن المعنىٰ الذي يذكره ، وعن الحقيقة والنور . ومع هذا من فضل الله ورحمته فإن هذه الخواطر لا تمنع ثواب الذكر ، ولا تمنع تأثير الذكر في القلب .

وهنا لا بد للمريد أن يتابع الطريق لتمام السلوك ؛ لأن المرء

---

(١) حديث صحيح الإسناد خرّجه ابن ماجة عن أبي هريرة ، ورواه البخاري بلفظ : [حيثما ذكرني] ، وأحمد في مسنده ، وصحّحه ابن حبان والحاكم .

خصوصاً في البداية يجد هذه الخطرات كثيراً ولا يستطيع التخلص منها ، فلا يترك المريد الذكر .

❁ وقال قدس سره :

"ذكر اللسان وإن كان فيه ثواب لكنه قليل الجدوىٰ بالنسبة لذكر القلب ؛ لأن القلب هو الأساس ، فنطلب منك أن تذكر بالقلب واللسان" .

وهذه ناحية أحب أن يعرفها المريد ، وهنا الفرق بين النقشبندي وبين غيره من الطوائف الأخرىٰ . فالطوائف الأخرىٰ يعتبرون اللسان هو الأساس ، لهذا يقومون ويذكرون بألسنتهم وبأصوات مرتفعة ، ويعتبرون بأن هذه هي التي تحرك الأشجان . أما النقشبندي فإن القلب عنده هو الأساس ، وإن الذكر الخفي هو ذكر القلب ، ثم بعد ذكر القلب تذكر جميع الجوارح ، فإن فعلتَ كنت في حضرة كاملة أغنتك عن هذا الهيجان الكبير .

ومن هنا يفسرون قول النقشبندي قدس سره : (الذكر بالقلب ، والجوارح ترد صداه) . فالقلب يذكر ، وجميع أعضاء البدن تجيب صداه .

فهذا القلب كالإنسان بالوادي ، فإذا صاح وقال : الله ، فإنه يجد صوت الصدىٰ من كل الجهات . وهكذا القلب هو في وادي البدن والجسد ، فإذا نادىٰ فإن الأعضاء كلها تجيبه .

❁ وقال قدس سره :

"إن ظلم الحكام في المدن يطفئ نور الذكر ، ومن ثم خرج أكثر المشايخ من المدن إلىٰ القرىٰ" .

فوجود ظلم الحاكم والحضارة الزائفة هو ما يحجب النور ويكون سبباً لنزول أشياء كثيرة من السماء ؛ لهذا سمعنا أن فلاناً كان يتعبد في الجبل ،

وفلاناً في الصحراء . . . . ، أي في أماكن بعيدة عن نزول الغضب . وقد يكون الظلم كثيفاً فيحجب النور تماماً .

كذا المعاصي فإنها تحجب القلب عن المعرفة وعن الدراية ، وتجعله لا يفرق بين الليل والنهار . قال تعالىٰ :﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، فضباب آثار المعاصي والذنوب هو الذي يطفئ النور .

والشيخ هنا يحاول أن يصفي شاشة المريد ، وأن يزيل عنها الضباب والمنغصات . فقلبك يحتاج إلىٰ كثرة الصفاء ، وإلىٰ الابتعاد عن أمور الدنيا لتبقىٰ مع الله ، وكلما صفىٰ أكثر كلما رأىٰ أكثر .

أنت أحياناً في بعض الأوقات قد تأتيك أنوار وتذهب ، قد تكون نقطة صغيرة ثم تصبح كالدرهم ، وأحياناً تكبر حسب ما تتفتح المعالم أمامك ، فكلما انجلت ترىٰ أكثر ، كالضبابة إذا سارت ترىٰ الشمس مضيئة علىٰ الدنيا .

وأقول : إن كثرة الأعباء التي عليك والمشاكل والخلافات تمنعك كذلك من النور . فلا تحملن هماً ولا تخافن من شيء سوىٰ الله تعالىٰ ، اكسب الفلس دون أن تفكر وأن تشغل نفسك ، اجعل قلبك دائم الصفاء ، وروحك دائمة النقاء ، ولا تكونن في هذه الدنيا أعمىٰ بل كن ببصر وبصيرة .

❁ وقال قدس سره :

"ما رأيت دواء للجنون والصرع أحسن من الذكر" .

❁ وقال :

"إن الفناء في الشيخ مقدمة للفناء في الله تعالىٰ" .

وهـذه في الحقيقـة نقطـة حساسـة ، لتفنـىٰ في الله لا بـد لـك قبلـها من أن تفنىٰ بشيخك ، وهذه هي الناحية التي يعـترض عليـها أبنـاء الدنيـا والذين لم يذوقوا .

وأعني بالفناء أن تكون كالعجين بـين يـدي العجـان ، وكـالميت بـين يـدي المغسـل ، وكالنبتـة بـين يـدي الـزّرّاع ، فـهو يهذبـها ويقوّمـها وهـي لا تمانـع .

والذي يوصلك إلىٰ مقام الفناء هو كثرة حبك لشيخك وتسليمك لـه ، فطالب نفسك بالتقدم كل يوم إلىٰ الأمام .

سمعنا كثيراً ممن قالوا : نحن سلمنا ، وكان لسان حالهم يقول خـلاف ذلـك ، مـا كـان ذلـك التسـليم التـام الكـامل ، إنمـا التسـليم هـو اتبـاع بدون نهاية .

ورضي الله عن سيدنا عمر بن الخطاب حيث قال : لا زلت أستغفر الله حتـىٰ الآن ، وأشـار بذلـك إلىٰ يـوم صلـح الحديبيـة عندمـا وقفـت نفسـه أمام التسليم .

ومتىٰ وصلت إلىٰ الفناء في الشيخ فأنت الآن في بدايـة الفنـاء في الله ؛ لأن الفنـاء في الشـيخ هـو الفنـاء بـالنبيﷺ ، ومنـها تدخـل في درجـة الفناء في الله تعالىٰ .

❁ وقال قدس سره :

إن شـيخاً وقـع في مـرض المـوت ففـداه مريـدٌ لـه بعمـره ، فوقـع المريـد في الفـراش ونـهض الشـيخ وكأنـه لم يصـب بشـيء . فنظـر المريـدون إلىٰ المريد الذي وقع فوجدوه يكثر النظر إلىٰ وجه الشيخ ، فظنوه أنـه نـدم

علىٰ ما فعل ، فسألوه : أندمتَ ؟ قال : لا ، ولكن أحب أن أودع الحياة بالنظر إلىٰ شيخي ، فأنا مصر علىٰ أن أكون فداء له . وهذا هو المريد الذي فني بشيخه .

ولقد حصل بين سيدنا آدم وسيدنا داود عليهما السلام مثل ذلك ، فعن أبي هريرةﷺ عن النبيﷺ قال : « لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلىٰ يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم علىٰ آدم فقال : أي رب ، مَن هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأىٰ رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي رب ، مَن هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له : داود ، فقال : رب ، كم جعلت عمره ؟ قال : ستين عاماً ، قال : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة . فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت ، قال : أوَ لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أوَ لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته »[1] .

❁ وقال قدس سره :

"المريد لا يفلح بين شيخين كما لا تصلح مملكة بين ملكين ، وأجمة بين أسدين ، وامرأة بين زوجين" .

فالمشارب تختلف ، وهذا ما يجعلنا نغار علىٰ أولادنا ومريدينا ؛

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه . ورواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرةﷺ . كما رواه ابن سعد في طبقاته .

لأننا بنيناهم فلا نريد أن يُهدم هذا البناء .

فلا تلتفت لأن الالتفاتة الواحدة ترميك من السماء إلىٰ الأرض ، تجعلك تهوي إلىٰ مكان سحيق ، ثم يأتي الشيخ ويرفعك مرة ثانية وهكذا . وهذا الهَوْيُ يؤثر علىٰ روحك ، وعلىٰ قلبك ، وعلىٰ جسمك ، فإياك من ذلك .

❁ وقال قدس سره :

"أولاد الملوك ملوك" .

وكان يشير إلىٰ احترام أولاد الشيخ ، فالذي يحب الشيخ لا بد له من أن يحترم أولاد الشيخ ويحبهم .

فما بالك بحب الفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وبحب الحسن والحسين وذرية الحسن والحسين ؟ فنحبهم لأنهم من النطفة الطاهرة ، والعترة الطيبة .

لذا نرىٰ أن النبي ﷺ أنكر علىٰ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما جاءته فاطمة تهرول وتقول : يا أبتاه ، أتقبل أن يجعل لي عليٌ ضرةً بنت أبي لهب ؟ فصعد يومها النبي ﷺ المنبر وقال : لا تجتمع بنت محمد وبنت عدو الله في بيت واحد ، وهذا يدل علىٰ فرط الحب والدلال .

وعندما كان الحسن والحسين يتكلمان بكلام قاس أمام سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، كقول سيدنا الحسين وهو بسن مبكرة : انزل عن المنبر هو منبر جدي ، فكان سيدنا عمر ينزل عن المنبر ويُقَبِّلُه ويقول : حقاً إنه ليس منبر أبي ولا جدي ، هو منبر أبيك رسول الله ﷺ . ثم يحمله ويرقىٰ به المنبر ويكمل خطبته . هكذا كان لسان حال عمر .

وعندما فرض عمر الغنائم ووزعها ، كان يعطي لولده نصف ما يعطي للحسين ، فيقول ولده : يا أبتي ، هذا ابن علي وأنا ابن أمير المؤمنين ، ألا تجعلني كالحسن والحسين ؟ فقال : يا بني ، أين أنت منهما ؟ هذان ولدا رسول الله ﷺ وأنت ابن عمر ، أمهما الزهراء بنت رسول الله ﷺ وأمك فلانة .

وورد أن شيخاً من كبار علماء المسلمين كان يقرأ درساً وحوله الألوف من الناس ، وكان ولد صغير ابن أربع سنوات يلعب بالكرة مقابل المسجد ، فكلما مر الطفل من أمام المسجد ترك الشيخ الدرس ووقف ، وتكرر ذلك فسأله الطلاب عنه فقال : هذا الطفل من أهل بيت رسول الله ﷺ ، فعندما يمر كأن النبي ﷺ يمر أمامي ، فلا يليق لي أن أجلس والحال هذه .

❁ وقال قدس سره :

"زيارة الشيخ حج الفقراء" .

هي مقالة طيبة أحب أن يحفظها كل مريد .

❁ وقال قدس سره :

"إن المريد الصادق لا يمل ولو جلس مع الشيخ إلىٰ يوم القيامة" .

فكلما جلست مع الشيخ تشعر أنك بحاجة إلىٰ الجلوس أكثر ، ترىٰ الشيخ في سروره ، في غضبه ، في مرحه ، في يسره وعسره ، فتقتدي به دائماً ، ومهما كبرت تبقىٰ علىٰ أعتابه .

هناك مِن المريدين مَن أنفاس الشيخ عندهم هي الحياة ، وكلامه هو الغذاء لقلوبهم وأرواحهم ، كلامه يسري بدمهم إلىٰ جميع أنحاء جسمهم ، ويشعرون بنشوة يتجلون بها ، ولو أرادوا أن يقابلوها بملء الدنيا

من المال لَما وجدوا لها ثمناً . وهناك أناس أقل من ذلك .

فانظر إلىٰ نفسك هل أنت بهذه المرتبة ؟ فإن كنت فاشكر الله ، وإلا فادع الله أن يجعلك من أهلها ، واسأله أن يعرفك بها .

❁ وقال قدس الله سره :

"إذا داوم المريد علىٰ النفي والإثبات تقلعت اللطائف الخمسة من مكانها والتجأت إلىٰ القلب" .

❁ وقال قدس سره :

"إن الذنب مع الغفلة أشد ضرراً منه مع الذكر" .

فالذنب مع الغفلة معصيتان عند السادة النقشبندية ؛ لأن الذاكر قد يرده الصحو إلىٰ الحضور ، وإلىٰ الإقلاع عن المعصية وترك الذنب .

❁ وقال :

"إن لكل جماعة علامة يُعرفون بها ، فينبغي أن تكون علامتكم الذل والانكسار" .

فنحن علامتنا معشر النقشبندية الذل والخضوع لملك الملوك ، وعلامتنا نريد أن نراها عملياً .

ويعني بالذل ألا تقابل السيئة بالسيئة ، وأن لا تقابل القبيح بالقبيح . أي أن تكظم غيظك ، وتخفي أسرار إخوانك ، وأن تكون دائماً منكسراً لله ﷻ . فنحن نعلم أن خير العباد أنفع العباد للعباد ، وهذا الذي يجب أن تعرفه .

فشعارنا كما قال شيخنا الانكسار والليونة والطراوة والبسمة ؛ لأنها تعطي الرضا في جميع الأوقات .

❁ **وقال قدس سره :**

"أخذ الطريق سهل ، ولكن الكلام على الثبات" .

❁ **وقال قدس سره :**

"إني تعلمت المراقبة من الهرة ، وجدتها متوجهة بكليتها ترقب ثقب فأرة ، فنوديت من داخلي : لا تكن أقل همة من الهرة ، ولا أكن أقل مطلوباً من الفأرة" .

❁ **وقال :**

"أنا أعجب من أن المعارف الإلهية كلها في القلب والشهوات خارجة عنه ، فكيف تدخل الشهوات في القلب وتخرج المعارف إلى الخارج ؟!" .

فالأصل هو القلب فتنبع منه الحكم ، والشهوة خارجة عن ذلك .

❁ **وقال قدس سره :**

"إن هذه الطريقة كالكنز المدفون تحت الأرض ، وهذا الكنز ليس ببعيد ، ولكن الناس لا يعرفون كيفية الوصول إليه ، فنحن ندلهم على ذلك" .

إن الشيخ لا يستطيع أن يعطي ولا الغوث ولا القطب ، إنما الله فقط يعطي وهؤلاء عبارة عن موصلين وأدلاء ، قال النبي ﷺ : « والله المعطي وأنا القاسم »[1] .

فكل واحد يأخذ على حسب استعداده ، ولا بد للمريد أن يكون مُسَلِّماً بكله .

---

(١) خرّجه البخاري في صحيحه عن معاوية ، ومسلم كذلك .

۞ وقال قدس سره :

"اجتمعت في مجلس ضم جماعة من أصحاب الطريقة النقشبندية وغيرهم من باقي الطرق ، فالنقشبندي كالنار التي عليها رماد وغيرهم كاللهب ، وجدت النقشبندي جالساً إنما تراه بروحه وكله مع الحضرة الإلهية" .

فالنقشبندي هو بركان من الذكر والأنوار والتجليات ، وهذا الذي يفسره قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد : ١٧] .

لهذا سُمي النقشبندي كذلك لأنه يرى اسم الجلالة منقوشاً على قلبه بل على كل جزء من جوارحه ، فجميع جوارح النقشبندي تذكر الله تبارك وتعالى .

لهذا لو نظرت بعين الحقيقة إلى وجه الشيخ لرأيتَ كله يذكر ، ولشعرت بلمسة نورانية في كيانك ، وتأثرت بها جميع جوارحك .

۞ وقال قدس سره :

"إن الكلام الذي لا يراه المتكلم منه هو من البقاء" .

فكثيراً ما يتكلم المرء بكلام هو لا يعرفه ، فذاك من الحضرة الإلهية ، من عالم البقاء وأنت في عالم الفناء ، لهذا فهو يؤثر .

في بعض الأوقات تشعر أمامك بأنوار تبرق ، هذا النور ليس للعين ، إنما بصفاء القلب ترى هذا النور . أشبهه بالسماء وبيننا وبينه الضباب الكثيف ، فالضباب حاجب لذاك النور والشمس ، فإذا انكشف بانت الشمس . وهناك أناس لا تغيب عنهم الأنوار ، وتصبح طبيعية معهم أينما ساروا ، وهكذا .

۞ وقال :

"إن الأنوار القلبية التي تكون من القلب يغلب نورها على العين" .

فالمريد المبتدئ يظن أنه يرىٰ بعينه ، إنما الحقيقة هو أنه يرىٰ ببصيرته لا بعينه .

يروىٰ أنه قد أتي بشاب للشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره يقول إنه يرىٰ الحضرة الإلهية بعيني رأسه ، فقال الشيخ : إنه ملبّس عليه . ثم قال له : تعال يا بني فأغمض عينيك ، أترىٰ ؟ قال : نعم أرىٰ ، قال : أنتَ ترىٰ بقلبك لا بعيني رأسك ، فعين القلب أقوىٰ من عيني الرأس .

قال تعالىٰ : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] . فالقلوب مبصرة ، ومن عميت بصيرته في الدنيا عميت في الآخرة .

❁ وقال قدس سره :

"قد يسمع المريد أحياناً أصواتاً لا يسمعها من هو بقربه" .

فلو أنت وضعت يدك بيد فلان ، أتشعر بالألم الذي في جسمه ؟

الجواب : لا . كذلك أنت قد ترىٰ ما لا يراه غيرك ، وتسمع ما لا يسمعه .

وفي عالم الحس قد ترىٰ ما لا يرىٰ غيرك ، حيث هناك من نظره ٦/٦ وآخر ٦/٤ . وأيضاً ذاك في عالم الروح ، فقد يرىٰ ابن الطريقة نوراً ولا يراه مَن بقربه .

وفي السيرة النبوية ما يثبت ذلك . قال ابن إسحاق : ذُكر لي أنَّ أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر ، وفي يدها حجر تريد أن تضرب به النبي ﷺ . فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترىٰ إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟

فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو رأيته لضربته بهذا الحجر . ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني .

❁ وكان الشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول :

"علامة المحبة أن ينجذب به كل من رآه ويحبه" .

عنىٰ الشيخ بكلامه أن المربي الصادق له تأثير في الأرواح ، فتشعر بأن الكلام يسري بدمك وبعروقك وبكلك ، فيؤثر بكاملك .

الكثير من يتكلم علىٰ المنابر في أيامنا هذه ، ويخرج الإنسان يوم الجمعة من المسجد ولم يفهم شيئاً . وأحياناً يتكلم الشيخ الصادق بكلمة واحدة فتجد المريد يرددها سنة كاملة ؛ لأن كلام الشيخ خرج من القلب ، والكلام الذي يخرج من القلب هو الذي يؤثر في القلب .

❁ وقال قدس سره :

"إن اللجام بأيدي العلماء ، ولولا ذلك لادَّعىٰ الأولياء ما شاءوا" .

فدائماً الحجة والدليل بيد العلماء ، لهذا نقول : طريقنا لا يصلح له إلا العلم .

❁ وقال الشيخ عيسىٰ :

"الذكر ذكران : ذكر تذكره أنت بلسانك ، وذكر يُذكِّرُك بربك ﷻ" .

ذكر اللسان وحده لا يؤثر ، فكثير من الناس يذكرون بلسانهم وقلبهم يبيع ويشري . أما الذكر الثاني فإذا قلتَ : الله ، فكيانك كله يذكر ، وكل ذرة من ذراته تقول معه .

ذكر أحد الأولياء أنه زار الكعبة فرأىٰ رجلاً متعلقاً بأستارها وهو

يدعو ، فكاشفه فإذا قلبه يبيع ويشتري في السوق . ثم يقول : فذهبت إلىٰ عرفات فرأيت رجلاً يبيع ويشري وقلبه يذكر الله .

لذا نحن نُدخل المريد الخلوة ، وهي عزله عن الناس والدنيا ، وعن الولد والزوجة ، ثم بعدها عزله عن نفسه .

فإذا أغلقت الباب تلك خلوة ، وإذا أطفأت النور فتلك خلوة ثانية ، وإذا أغلقت عينيك فتلك الخلوة الثالثة ، وخلوة العين هي عدم رؤية السوىٰ .

❁ وقال قدس سره :

"إن الأكل الكثير يفسد محل الذكر" .

فالإنسان إذا أكل خرج بخار الطعام إلىٰ رأسه ، فيطلب بعدها النوم والخمول ، وذاك للمبتدئ . أما الكمل فلهم وضع خاص ، حيث لا يؤثر عليهم الطعام وهم في حضور تام .

فنقول كما قال نبينا الأعظم ﷺ : « بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبه »[1] .

❁ وقال قدس سره :

"إن المريد الصادق إذا وقعت السماء علىٰ الأرض لا تتحرك منه شعرة واحدة" .

بمعنىٰ لو جاءت الدنيا بأكملها وجاء أهله وأرادوا أن يبعدوه عن الطريق وعن الشيخ فلا يلتفت ، بل كل يوم يزداد حباً وقرباً .

---

(١) خرّجه ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن المقدام بن معديكرب ، وقال الترمذي : حديث حسن .

إبليس له قدرة تشكل رهيبة ، قد يأتي بكل الأشكال ليثنيك عن طريقك ، فهو الذي جاء يوم بدر بصورة سراقة بن مالك وأحضر معه خمسمائة شيطان بلباس عرب ، وقال للمشركين : أنا جار لكم . وعندما رأىٰ جبريل وميكائيل وإسرافيل وبدأت الملائكة يحصدون الرؤوس كما يحصد الفلاح بالمنجل ، قال لنفسه : قامت الساعة ، وكانت يده بيد أحدهم ، فأخذ يده من يده ورماه أرضاً ، ثم فر هارباً وقال : يا رب ، أسألك وعدك الذي وعدتني إياه .

وهكذا إبليس يبعث لك أناساً ليشغلوك ، فلا بد لك أن تكون علىٰ صحو دائم . إذا جاءك من أي باب أغلق ذاك الباب حالاً ، وإياك أن يجذبك إليه .

ولا بد للمريد من أن يأخذ كلام شيخه مفضلاً له عن غيره ، وقد ذكرت لك أن الفناء بالشيخ طريق للفناء بالله ، والفناء لا يكون إلا بعد التسليم الكامل .

❁ وقال قدس سره :

"إن منفعة المريد تأتي علىٰ قدر اعتقاده بالشيخ ، وإن الشيخ قد يُمَكن المريد الصادق من أن يرقىٰ بمدة قليلة إلىٰ مراتب عالية ، وإذا نقص اعتقاده نقص نفعه" .

فكلما اعتقد المريد بالشيخ أكثر كلما انتفع أكثر .

وإياك أن يشككك إبليس بالشيخ لأنه قاطع طريق ، قد يأتي ويذكرك بحالة معينة تكون قد فهمتها خطأ من الشيخ .

واعلم أنه يزداد اعتقاد المريد بالشيخ بعد مراتب ، وهي :

أن يعرفه ، فإذا عرفه أحبه ، وكلما ازدادت المعرفة ازداد حبه .

وقد تنعكس القاعدة : فيحب المريد شيخه كثيراً ، وهذه المحبة هي التي تعرفه بالشيخ أكثر . وإذا أحببت أكثر سلمت أكثر ، وكلما ازداد التسليم ازداد العطاء .

هناك الكثير ممن يقول : الشيخ لا يعطينا ، وينسون النظر إلىٰ أنفسهم ، بل منهم من يريد حاجته الخاصة ثم يطالب بما ليس له . فإذا أردت أن تكون منصفاً فاسأل نفسك : ماذا أعطيتُ أنا للشيخ ؟ هل أعطيتُ واحداً من مليون مما أعطاه الصحابة لرسول الله ﷺ ؟

قال أحدهم : يا سيدي ، أنا عندما أراقب في بعض الأوقات أرىٰ شيخي أمامي بصورة حمار . فقال له الشيخ : يا بني ، عليك إذا رأيت الشيخ بهذه الصورة أن تقص له أذنه . قال : سأفعل إن شاء الله . فراقب فرأىٰ الشيخ علىٰ تلك الحالة ، فقام وقص أذنه ، فإذا هو قد قص أذن نفسه .

ولا أعني بكلامي أن نخرج الشيخ عن حده ، حده هو إنسان يأكل ويشرب وينام ويتزوج ، إنما بإكرام من الله تعالىٰ وصل إلىٰ الله ويريد أن يوصلك . فلا نوصل الشيخ إلىٰ درجة النبي ، ولا إلىٰ درجة الملائكة ، وأقول ذلك لأرد علىٰ الطاعنين في هذا الكلام .

والمريد مهما أحب شيخه مع الحدود والضوابط التي وضعتها فهو قليل ، فالشيخ يبقىٰ بمستواه البشري . إنما درجة الولاية فيها تنازع بين الأولياء وبين العارفين ، الكل يتسابق والكل يسير ، بعضهم من يسير علىٰ قدميه ، ومنهم علىٰ فرس ، والآخر علىٰ متن طائرة . . . ، ولا أخفيك إذا قلت هنا : العناية لها دورها الكبير وتتدخل كثيراً .

أجل ، إن منفعة المريد على قدر اعتقاده بالشيخ ، وهذه العبارة مفتوحة ، يجب أن تعيدها على ذهنك مرة ومرتين . . وحتى بعد الموت ينتفع منه ، فكم رأينا من انتفع من شيخه بعد موته بالإشارات والعبارات حساً ومعنى .

فأنت إذا اتصلت مع عارف محمدي فإنك تأخذ وبدون حدود ، لأن العارف المحمدي مدلل على الحضرة وعند الملائكة ، وذلك ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

فشمر عن ساعد الجد في هذا المطلب ، وقف أمام هذه العبارة بصدق لتنال منها على قدر استعدادك .

وأقول كما قال المصطفى ﷺ للصحابي الذي سأله أن يشفع له وأن يكون معه في الجنة : « أعنّي على نفسك بكثرة السجود »[1] .

أي أعنّي على نفسك بكثرة التسليم والأدب ، وبقدر العطاء يكون الأخذ .

❁ وقال قدس سره :

"كن ذنباً ولا تكن رأساً ؛ لأن الضرب لا يجيء إلا على الرأس" .

عبارة الشيخ هنا تحمل معنى التواضع ، فالذي ينال المعالي الروحية هو الذي يتواضع لله تعالى .

وطالب الولاية لا يُولى ، فإذا عبدت يوماً لتكون ولياً فلن تصير .

اطلب أن تكون عبداً لله ، عبداً خاضعاً خاشعاً لربك .

وفي طريقك للحضرة الإلهية سوف تلاقي أشياء كثيرة ، فلا تلتفت إليها ؛

---

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائي وأبو داود والبزار والضحاك والطبراني في الكبير .

لأنك لو التفت إلى واحدة لسقطت من أعلى الأفق إلى أدنى الأرض . وكذا الولي الذي يسير في المقامات الرفيعة ، التي بين كل مقام ومقام لا أقول : كما بين السماء والأرض ، بل أعلى من ذلك .

❁ وقال قدس سره :

"الشيخ كالمصباح ، كل من كان حاضراً أمامه استفاد من نوره بقدر قربه من المصباح" .

وهذه العبارة الطيبة تدعو المريد ليكون دائماً قريباً من الشيخ أكثر .

❁ وقال :

"تقربوا من الشيخ كثيراً ولا تبتعدوا عنه ، فإن ابتعادكم لغير مصلحتكم" .

❁ وكان شيخنا قدس سره يقول دائماً :

"لا تغتروا بالكشف والأحوال والأنوار ، فإن العبرة بالاتباع والاستقامة على الشريعة" .

وهذه العبارة أكررها لكل مريد ، حيث الكثير في زماننا يطلب الكرامات ، ونحن معشر النقشبندية طريقنا لا يُلتفت فيه إلى الكرامات ، أو إلى الإبر المخدرة كما أعتبرها . إنما الكرامة الكبيرة هي الثبات مع الشيخ ، لا أقول : حتى الموت ، ولا حتى الجنة ، بل إلى ما لا نهاية .

لذلك تعوّد رجال هذه الطريقة أن يُرَقُّوا المريدين بدون التعرض للكرامات ؛ لأن المريد الذي يتعود على الكرامات يُربّى عليلاً وبحاجة إلى شحن مستمر ، كالذي يعيش على الإبر المخدرة يكون مدمناً لها . أما الذي يسير السير الصديقي فإنه لا يحتاج إلى ذكر الكرامات . فالاستقامة

والاتباع عندهم أفضل من أي كرامة ، وثبات المريد أقوىٰ .

وإن مشايخنا النقشبندية لا يعتبرون الكشف شيئاً ، فهو ليس بعبرة ولو صار معه أحوال وغيبوبة . وهم يحاولون إخفاء الكرامات ، إنما تظهر علىٰ أيديهم بدون طلب وعند الحاجة الماسة .

وهذه ناحية يحاول اليوم استغلالها الكثير من المدعين ، فمنهم مَن يَضرب بالشيش أو السكين في بطنه فتخرج من ظهره دون أذىٰ ، فيدّعي أنه ولي وأنها كرامة له وهو تارك للصلاة وشارب للدخان ! فهذه كانت كرامة للشيخ أحمد من قبل سبعمائة عام تقريباً وأصبحت اليوم عادة ، والكرامة عندنا هي شيء يخالف العادة .

❁ وقال قدس سره :

"الفقير الصادق هو الذي يخاف من الغنىٰ كما يخاف الغني من الفقر" .

الفقير الصادق يقول : لا أريد الغنىٰ ؛ لأني لست أهلاً لتحمل هذه المسؤولية والأمانة . هل أستطيع أن أصرفه في مصرفه ؟ هل أستطيع أن أؤدي زكاته ؟ حيث هناك أناس لا يخرج المال من أيديهم إلا بألف حساب . أما الموفق فيخرج الزكاة والمال من جيبه بكل سهولة كما تخرج ورق المحارم من جيبك ، ويعتقد أن الزكاة هي وسخ المال ، وإن إنساناً بيده وسخ أيشتهي أن يبقىٰ ذلك ؟

فكما ترىٰ الغني حريصاً علىٰ المال ، ترىٰ الفقير حريصاً علىٰ فقره راضياً مبسوطاً ، لكن كم من الفقراء من هذا النوع ؟

سيدنا محمد ﷺ أكان فقيراً اضطرارياً ؟ أما عرضت عليه بطحاء مكة وجبالها ذهباً فأباها وقال : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً ،

واحشرني في زمرة المساكين»[1] ؟ وصحابته رضوان الله تعالىٰ عليهم اتبعوا سنته ، وكانوا علىٰ نفس المنوال .

وأقول : الفقير الصحيح هو الذي تكون الدنيا بيده يضعها حيث يريد الله سبحانه وتعالى .

❁ وقال الشيخ قدس سره :

"الدنيا وجودها بلوىٰ ، وعدمها بلوىٰ ، والأحسن أن تأتي وتذهب" .

وجود الدنيا أو المقصود المال هو اختبار ، وعدمه اختبار ، والأحسن التسليم والتوكل .

يقول سيدنا علي كرم الله وجهه :

إني بليت بأربع ما سلطوا ... إلا لشدة بلوتي وبلائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوىٰ ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

فاتق الله واحذر البلوىٰ ، واعلم بأنك علىٰ الحالتين مسؤول ، فكن حذراً في يسرك وفي عسرك . عليك أن تعرف كيف تعامل البلاءين الفقر والغنىٰ ، إذا أتتك الدنيا كيف تعاملها ، وإذا أدبرت كيف تعاملها ، وإذا توسطت كيف تعاملها .

❁ وقال قدس سره :

"إني أعاملكم معاملة المريد لشيخه ، ولو عاملتكم معاملة الشيخ لمريده لما بقي عندي أحد" .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة والبيهقي في شعبه عن أبي سعيد الخدري ، وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح الإسناد . كما روي من طرق أخرىٰ فيها ضعف .

فحقوق الشيخ على المريد كثيرة ، ولو أراد الشيخ أن يعامل المريد كمريد فمن الصعب أن يجلس المريد أمام الشيخ في هذا الزمان .

الشيخ يتحمل أذى فلان وفلان ، وكلمات فلان واتهامات فلان ، يسيئون الظن بالشيخ ويقللون الأدب معه ، إلى غير ذلك من الأمور . إنما قلتها كثيراً لإخواني : أسقطت جميع حقوقي عنكم ، فالتلميذ أنا وأنتم شيوخي . ما رأيت نفسي يوماً من الأيام شيخاً ، بل أرى نفسي دائماً خادماً وتابعاً .

فكلمة الشيخ لها معنى عميق أحب أن تقف عندها ، وهو بهذه المقالة الطيبة يبين ناحيتين :

١- تواضع الشيخ للمريدين ليرفع من شأنهم .

٢- أن المريد لا يستطيع أن يصل إلى مستوى الشيخ في المكانة والدرجة والرفعة ، لهذا لا بد للشيخ من أن ينزل إلى مستواه ، والمقصود إيصال النور والحق إلى ذهن وقلب المريد .

والشيخ المربي الصادق العارف بالله إنما هو يقتدي برسول الله ﷺ وبصحابته ، ولكن هناك فارق كبير بين أبناء عصرنا من المريدين وبين الصحابة الكرام .

الصحابة رضوان الله عليهم هم الرعيل الأول الذين أُنزل القرآن بحضورهم ، وكانوا يأخذونه بشغف وبتفان مطلق ، وبعطاء مستمر وتسليم لا حدود له ، وبحب يتزايد كل يوم ، بل كل ساعة ، بل كل ثانية وبدون حدود . كانوا في كل يوم يترقون ويرتفعون حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه .

والمهمة التي كلف بها الشيخ هي ليست بمهمة بسيطة وخصوصاً في زماننا هذا وما نشاهد من الإغراءات والانحرافات من المال ، والهوىٰ ، والزوجة ، والنفس ، والمجتمع ، والنادي ، والسوق . . . فهنا يقف الشيخ ليخلص المريد من هذه الأعباء والأعداء ، فلا بد له من أن يتحمل وأن يكون مريداً لمريد .

❁ وقال قدس سره :

"إن الفرق بين المريد المضطرب والساكن كالواقف علىٰ الماء ، إذا أصابه الرشاش فإنه يضطرب ، والمنغمس فيه لا يضطرب" .

فالمريد هنا ينقسم إلىٰ :

١- مريد منغمس بالأنوار ، فهو يعيش بالأنوار صباح مساء وقلبه لا يستطيع أن يعيش بدون ذلك .

٢- ومريد آخر واقف علىٰ شاطئ البحر بعيداً ، فإذا جاء الموج قد يصيبه رذاذ من ذلك الموج فيشعر بانتعاش روحي .

وهناك فرق بين مريد يعيش بالأنوار صباح مساء ، وبين مريد تأتيه الأنوار في الشهر مرة ، أو في الأسبوع مرة .

❁ وقال قدس سره :

"الطريق نور سماوي ونظر إلهي يقذفه الله تعالىٰ في قلب من يشاء من عباده" .

فهناك أناس يسمعون بالطريق فيستهزئون ، ومنهم مَن يسمع الذكر ولا يلتفت إليه ، ومنهم مَن يسمع ولا يدري ما معنىٰ الطريق ، ومنهم مَن إذا أسمعته بالطريق فكأنك أحييته بعد موت ؛ لأن الطريق هو نور إلهي ،

هو دعوة رسمية سماوية موقعة من فوق العرش ، لا ينالها إلا مَن طلبته الحضرة الإلهية .

وأحب أن أضع أمامك هذا المثال : ملك دعا أناساً إلىٰ قصره لتناول الغداء ، فهل يستطيع أحد الدخول إلا إذا كانت له دعوة ؟ وهؤلاء أصحاب الطريق هم الذين دُعوا إلىٰ داخل القصر الكبير في قاعة عامة ، وهناك قاعة خاصة ، وخارج القصر هناك أناس يستهزئون ، منهم مَن يقول : هم سعداء ، ومنهم مَن يقول : هم أشقياء .

وهكذا فإن طريقتنا النقشبندية العلية هي دعوة موقعة من فوق السماوات السبع ، قد دُعي الموفق إليها . وهناك أناس يدعون إليها فيرفضون ، حيث لم يُكتب لهم من الأزل ذلك ؛ لأنهم ما كانوا أهلاً ليقدروا هذه النعمة وهذا الشرف العظيم . وكم بكيت وأبكي علىٰ أناس حرموا أنفسهم من هذا النور العظيم ، سواء بعهدنا أو بعهد مَن سبقنا مِن مشايخنا قدس الله أسرارهم .

قال تعالىٰ : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] .

وقالوا : « لله قوم إذا أرادوا أراد ، ولله قوم إذا أراد أرادوا » .

والطريق الذي نُعِدُّ إخواننا له إن شاء الله هو نور سماوي يعطيه الله تعالىٰ للموفقين من عباده ، لمن أراد لهم السعادة ، لمن أراد لهم التوفيق والوصل ، وليس مادة يقرأها الدكتور في جامعة أو في مكان معين ويمشي ، فالطريق أسمىٰ من ذلك بكثير .

وهكذا بعد أن يأخذوا هذه الجوهرة لا بد لهم من أن يحافظوا عليها جيداً ، وأن يرعوها ويتفقدوها كل يوم .

الوصل بالله تعالىٰ هو نعمة النعم ، ولكن بالشكر تدوم النعم ، ويكفرانها تذهب . قال النبي ﷺ : « أحسنوا جوار نعم الله لا تنفروها ، فقلما زالت عن قوم فعادت إليهم »[1] .

فأعيدوا حساباتكم ، وانظروا أين أنتم من هذه النعمة ، وأين أنتم من هذا العطاء الرباني . فمن كان من أهل الطريق الثابت المستقر فهو من أهل الجنة ، وكلما ازداد حبه ازدادت رفعته أكثر في الجنة .

❁ وقال قدس سره :

"إذا أراد الله تعالىٰ هداية عبد من عبيده جعل له واعظاً من قلبه" .

ما أجملها من مقالة وكم بها من المعاني ! الموفق من عباده واعظه معه باستمرار ، من الداخل يقول له : ابتعد ، هذا حرام وهذا مكروه . يقول له : إياك أن تقع يوماً في مخالفة مع الشيخ ؛ لأن الشيخ لا يريد إلا سعادتك وصالحك .

❁ وقال قدس سره :

"عليك بالمحبة ، والصدق ، والمواظبة ، واتباع الشريعة المطهرة ، والدوام علىٰ ذكر الله في القلب من غير فتور علىٰ أي حالة ، ليلاً ونهاراً ، قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، جنباً ومحدثاً ولو في الخلاء" .

---

(١) أخرجه أصحاب السنن الأربعة وابن عدي والبيهقي كلهم من حديث عثمان بن مطر عن ثابت عن أنس بن مالك وقالوا : ضعيف ، ويُعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال . وأخرجه البيهقي في الشعب من حديث الوليد بن محمد الموقري عن الزهري عن عروة عن عائشة وقال : ضعيف . ورواه عطاء بن إسماعيل المخزومي عن هشام عن أبيه عن عائشة وهو أيضاً ضعيف ، وسببه عنها قالت : [دخل عليّ رسول الله ﷺ فرأىٰ كسرة ملقاة ، فأخذها فمسحها وأكلها ، ثم ذكره] . وقال شيخ مشايخنا في كشف الالتباس : وهو حديث وارد علىٰ سبب وإن كان ضعيفاً فهو أيضاً ذو نسب ، فلا يليق الحكم بعد هذا عليه بالوضع . وفيه رد علىٰ ابن الجوزي حيث عدّه في الموضوعات ، وفي رواية لفظه : [أحسني يا عائشة] .

ولتفسير ذلك :

أولاً : عليك بالمحبة ، وهي أنواع ومراتب ومقامات . فعليك أن ترقىٰ وأن لا تستسلم لشهواتك ، الشهوة تدوم خمس دقائق أو أكثر ، أما شهوة الروح فإنها تدوم العمر كله .

وهناك فرق بين مَن يتلذذ بكله ، وبين مَن يتلذذ بجزء مِن جسمه ، فالذي يتلذذ بروحه فهو في لذة دائمة .

فكن سماوياً ولا تكن أرضياً ، كن إنساناً ملائكياً واشرب ولا تشبع .

وهكذا لا تشبع من الأنوار الإلهية ، وإن الله لا يمل حتىٰ تملوا وعطاؤه مستمر ، كلما طلبت أعطاك ، فسر واشرب وانطلق بدون حدود .

والمحبة هي التي تولد النور ، فهي مركبة تنقلك من عالم القال إلىٰ عالم الروح والطهر . وهي تكبر كما يكبر الطفل تماماً ، وعن طريقها تنال الدرجات الرفيعة والمقامات الراقية .

وأحب منك إذا قرأت أو سمعت مقالتي ، أن تغمض عينيك قليلاً لتفكر في معناها . فالمحبة لبِنة أساسية ، وهي اللبِنة الأولىٰ بهذا البناء الذي بدأناه .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وقال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١) .

---

(١) حديث صحيح الإسناد أخرجه مسلم عن أنس بن مالك ، ورواه البخاري والحاكم وأحمد والنسائي وابن حبان .

لهذا ركز الصادق المصدوق على المحبة كثيراً ، ومن المحبة حب وارث النبي ﷺ ، فهو الذي يوصلنا للنبي عليه الصلاة والسلام .

ثانياً : عليك بالصدق : فسلوكنا لا يناسبه الالتفات إنما الصدق ، فلا تلتفت إلى السوى لا بنظرك ، ولا بسمعك ، ولا بعقلك ، ولا بقلبك ، ولا بكل ذراتك ، بل كن بكلك مع الشيخ .

ولو لاحظت الإشارة البسيطة التي أشار إليها النبي ﷺ يوم غزوة مؤتة ، وبيّن فيها أن زيد بن حارثة في مكان رفيع في الجنة ، وأن جعفر بن أبي طالب أيضاً في مكان رفيع في الجنة ، وأن عبدالله بن رواحة في مكان في الجنة إلا أنه متأخر عنهما . فقيل : لماذا يا رسول الله ؟ قال : لأنه تقاعس في البداية ، التفت وحدثته نفسه فكان مؤخراً عن صاحبيه[1] .

هنا يبين النبي ﷺ بأنه إياك أن تلتفت لإبليس ، أو أن تناقشه بكلمة ألقاها في أذنك أو قلبك ، بل عليك حالاً أن تبرأ منها .

وهذه تسمى عندنا معشر النقشبندية بالالتفاتة . فالوقوف التفات ، والالتفات هو عدم الصدق ، وعدم الصدق في السلوك يتعب المريد كثيراً .

---

(١) هذا الحديث رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن محمد بن إسحاق ، ومختصره قال : حدثني عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه الذي أرضعه وكان في تلك الغزاة قال : لما قتل زيد وجعفر أخذ ابن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه وتردد بعض التردد . . . . ثم نزل فقاتل حتى قتل رضي الله تعالى عنه . قال : ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ فيما بلغني : أخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبدالله بعض ما يكرهون ، ثم قال : ثم أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً . ثم قال : لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبدالله ازوراراً عن سرير صاحبيه ، فقلت : عم هذا ؟ فقيل لي : مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد .

وهذه اللمسة بيّنها النبي ﷺ ليقول لنا : تنبهوا أيها المسلمون ، ليقول لأصحاب الشريعة والحقيقة والموفقين وأصحاب العقول : إياكم أن تلتفتوا في سيركم ، أنتم الآن في جهاد ، والجهاد الذي تسلكونه أقصى من جهاد المعركة بكثير .

فجهادنا لا ينتهي إلا بالعمر كله ، ووقتنا كله جهاد ، لهذا قال النبي ﷺ : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »(١) . الجهاد الأكبر هو جهاد النفس والهوى والشهوات ، وهذا هو الجهاد الطويل الذي كُتب علينا .

قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة : ٢١٤] . هؤلاء ما عاشوا في نعيم دائم بل زلزلوا ، ولفظة زلزلوا تعني اضطربوا ، لا في الجهاد بل في أمورهم الدنيوية الذاتية . ثم يأتيهم الجواب في آخر الآية : ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ، يأتيهم الجواب : فصبراً قليلاً فبعد العسر يسراً ، وبعد الضيق يأتي الفرج ، وكل أمر له وقت ، وفوق تقدير المخلوق تقدير الخالق العلي القدير .

ثالثاً : عليك بالمواظبة : فالكثير من الناس ساروا سنة وسنتين وأكثر ثم انقطعوا ، فمتى انقطعوا هدموا كل ما بنوه . عليك أن تقول : جعلتُ عمري لله تعالى ، وأنت إذا فعلتَ ذلك لا تكون قدمت شيئاً ، ولا تكون أعطيت شيئاً ، إنما هو في الأصل لله تعالى .

---

(١) رواه البيهقي بإسناد ضعيف عن جابر ، ورواه الخطيب في تاريخه ولفظه : [قال جابر : قدم النبي ﷺ من غزاة له فقال : قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : مجاهدة العبد هواه] . والمشهور على الألسنة [رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر] دون باقيه .

هذه هي المواظبة التي حثنا عليها مشايخنا ، وهي تحتاج دائماً إلى التلقين الروحي ، والتلقين الجسمي .

رابعاً : عليك باتباع الشريعة المطهرة : إذ أن هناك الكثير من المتسكعين ممن يدعي الصوفية والوصول والحقيقة ، وهؤلاء دفعتهم إلى ذلك شهواتهم وملذاتهم ، وإذا أردنا معرفتهم فإن الشريعة تكشفهم .

لهذا فإن الشيخ الصادق وقبل أن يلقن المريد الذكر ، يعطيه السلاح وهو التفقه ليدافع عن الذكر ، وهذا مذهبنا . لا بد للمريد أن يجلس أمام الشيخ ويقرأ كتاباً وكتابين ، لا أن يجلس في البيت ويقرأ ، فالعلم لا يؤخذ من الكتاب ، بل يؤخذ من فم حي شيخ عالم عارف ؛ ليؤثر بروحك وذراتك .

خامساً : عليك بالدوام على ذكر الله من غير فتور على أية حالة :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

ولنصل إلى هذه الدرجة من ذكر الله ، لا بد لمريدنا من أن يتقن بلسانه ، ثم بجوارحه ، ثم بقلبه حقاً .

هناك لك وقت للمراقبة تراقب فيه الحضرة الإلهية ، وهذا الوقت نعتبره نحن فرض . ولا نعني بعدها أن المراقبة قد انتهت ، بل يصل المريد إلى مرتبة تكون جميع أوقاته مراقبة ، وتصبح طبيعية دون تكلف ، حتى في أحرج الأوقات (وقت النوم أو عند قضاء الحاجة . .) . وهنا الذكر باللسان مكروه في الخلاء ، أما في القلب فهو مطلوب منك ، فكن في ذكر مستمر .

فإذا نطقت فكن لربك ذاكراً   لا تنسه واذكره في الحالات

❁ وقال قدس سره :

"مهما حصل لك شيء من الحالات والكشوفات لا تخبر به أحداً سوى شيخك ؛ لأن القلوب ليست متساوية ويحسد بعضهم بعضاً" .

هناك مع الأسف بعض إخواننا في الطرق الثانية يدخلون الخلوة ثلاثة أيام ، فإذا رأى بعض الأنوار ظن أنه وصل إلى الولاية . فنحن لا نريد ذلك ، مقصودنا الحضرة ، المقصود الربط بالذات والصفات ، فتبين لشيخك جميع حالاتك حتى يوجهك .

وأنت عندما تدخل الصلاة العادية تكون في خدمة الحق تبارك وتعالى ، إنما العارف هو في صلاة مستمرة . وأنت صلاتك منذ بايعت الشيخ مستمرة إلى أن تخرج من الدنيا ، تنتهي منها إذا جاءك حبيبنا عزرائيل .

وصلاتنا التي وضعتها أمامك كذلك لها مبطلات وشروط ، فإياك أن تخالف الشروط ، فإن فعلت والتزمت كنت في زفة يحسدك عليها الملائكة ، وكنت من جملة الأخيار ، ونفيت عنك الأغيار ، ولا أجاوز إذا قلت : كنت مع جعفر الطيار في مرتبة رفيعة ؛ لأنك بهذا دخلت جهاداً عظيماً .

❁ وقال قدس سره :

"طالب العلم إذا لم يقرأ الدرس يوماً صار بينه وبين الآخرة حجاب رقيق ، وإذا ترك في اليوم الثاني كثف هذا الحجاب ، وإذا تساهل في اليوم الثالث فإنه يخشى أن يترك الطلب بتاتاً ، وأن يحصل بينه وبين العلم سد كبير" .

وكذا المريد إذا ترك ورده يوماً حصل بينه وبين أنوار الذكر حجاب رقيق ، وإذا تركه في اليوم الثاني تكثف ذلك الحجاب ، فإذا تركه في اليوم الثالث حصل بينه وبين الذكر سد وحجاب غليظ ، ويُخشىٰ عليه أن ينقطع تماماً .

فكثير من الإخوان الذين أخذوا الطريق تهاونوا بالذكر مرة واحدة فأدت إلىٰ تركها البتة ، فإياك أن تعطي لنفسك ذلك وإلا خُشِيَ عليك .

أسأل الله أن يرفعك عن ذلك ، وألا يكون هناك حجاب بينك وبين قلبك ؛ لأنه إذا وُجد الحجاب كنت لا تسمع كما يسمع العارفون ، ولا ترىٰ كما يرىٰ العارفون ، ولا تفهم كما يفهمون ؛ لأنك عندئذ تسمع بأذنك الخارجية لا القلبية .

❁ وقال قدس سره :

"من علامة التجلي الذاتي الرائحة الزكية" .

فتشعر أيها المريد أن الله تعالىٰ تجلىٰ عليك برائحة زكية تعبق المكان كله ، وهذه الرائحة يشمها من نال هذا التجلي ، وقد يكون بقربه كثير من الناس ولا يشمون هذه الرائحة ، حيث هذا التجلي يأتي علىٰ قلب دون قلب ، يأتي علىٰ القلب المستعد لتحمل هذا التجلي .

❁ وقال قدس سره :

"لو صرف الإنسان جميع أوقاته بالاستغفار لكان أحسن" .

وذلك لأن في الاستغفار ذكر الله تعالىٰ ، والاعتراف بالقصور ، والدعاء .

الاستغفار هو غسيل القلب ، لذا نجد النبي ﷺ يقول : « والله إني

لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1] .

ونقول : هل للنبي ﷺ ذنوب أو حتى هفوات ؟ الجواب : لا ، لكن لكي يعلمنا بأن الاستغفار هو غسيل القلب . فما من نبي ولا رسول إلا وطُلب منه أن يكثر من الاستغفار ، وكان من أوراده .

ولقد ثبت عن العارفين أن الاستغفار مقدمة للسلوك وللدخول على الحضرة الإلهية ؛ لأن المستغفر معترف بالعجز والتقصير ، معترف بتقصيره بالهفوات ، ومَن مِنَّا مَن لا يهفو ؟ لهذا ترى جميع مشايخ الطرق بدون استثناء يطلبون من المريد أن يبدأ بالاستغفار .

والاستغفار هو قول : أستغفر الله ، أو أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه . وهناك أنواع أخرى من الاستغفار .

۞ وكان قدس سره يقول :

"لا يبلغ المريد مقام الكمال حتى يرى نفسه وماله وولده تحت يد الشيخ ، يتصرف فيه وفي ماله وبدون اعتراض" .

فلو جاءك إبليس وتكلم وقال لك : مَن الشيخ حتى تسلمه نفسك وكلك ؟ فحالاً اطرد تلك الأفكار وقل : أستغفر الله ، ولا تلتفت إليه .

وهذه اختبارات لك وهي كثيرة ، فإياك أن تقف عندها أجارني الله وإياك من الانتكاسات .

---

(١) روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة كلها أسانيدها حسنة . فرواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة واللفظ له ، ورواه مسلم بلفظ : [وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة] ، ورواه الترمذي عن أنس وقال : حديث حسن صحيح والطبراني في الأوسط بلفظ : [إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة] ، وفي رواية للبزار وأبي يعلى : [إني لأتوب] ، وإسناد [إني لأستغفر] أحسن .

❁ وكان يقول :

"لو كان القتل مباحاً لقلت لكم اقتلوا أنفسكم" .

❁ وقال :

"إن المرشد كالميزاب يكون سبباً لانصباب ماء المطر إلى الأرض مع أن المطر ليس منه" .

فكذلك الشيخ يكون سبباً لوصول الأنوار والفيوضات لقلوب المريدين ، وهذا أمر واقعي .

واعلم أن المريد بدون شيخ كاليد بدون جسد لا تنفع ولا قيمة لها ، بل تصبح مزعجة وضارة منتنة . المتصل بالشيخ تأتيه الحياة عن طريق الاتصالات النورانية ، كاليد التي في جسدك تأتيها الحياة عن طريق العروق والشرايين ، تستعين بها في جميع أمورك ، فإذا انفصلت فلن تنتفع بها ، حتى إن الإنسان يستقبح مسها . فإياك أن تكون كهذه اليد المبتورة .

❁ كما كان قدس سره يشبه المرشد بالنافذة التي تكون سبباً لدخول ضوء الشمس ، ثم يبالغ في عدم النظر إلى ظاهر المرشد قائلاً :

"لو كانت النافذة من سرجين من زبل فإنها لا تمنع من دخول الشمس إليك" .

وأنت لا يدخلك النور إلا عن طريق الشيخ ، فهو الذي يصلك بالكتاب والسنة ، ويصلك بالحضرة الإلهية ، فتمسك بهذه النافذة .

❁ وكان يمثل القلب الذاكر بالتراب إذا نزل عليه الماء ودخل فيه ، ويشبه القلب الغافل بالحجر .

وإنه تشبيه عميق وعظيم ، فهذا التراب إذا نزل عليه الماء يعطي ويخرج الأزهار والنباتات الطيبة ، وتتغير رائحته ، وكلما ارتوت أعطت

أكثر . وهكذا القلب الذاكر تتفتح عنه الأزهار والحكم والمواهب ، عطاء بلا حدود ، وكلما ذكر أكثر كلما تفتّح عن حكم وتجليات وبركات وأنوار أكثر . والقلب الغافل شبهه بالحجر ، فمهما نزل عليه من ماء يبقى حجراً لا ينبت ولا يعطي .

وهذه المقالة هي من قول النبيﷺ : «والذكر ينبت الإيمان في القلب كما يُنبت الماءُ البقلَ»[1] .

* وقد سئل شيخنا قدس سره : متى يؤدي المريد حق شيخه ؟ فقال :

"إذا خدمه خدمة صادقة وأعطاه كله" .

* وسئل قدس سره : لو أحياك الله ألف سنة ماذا تصنع ؟ فقال :

"أشتغل تسعمائة وتسعاً وتسعين عاماً بتصحيح النية ، وسنة بالعبادة" .

* وسئل قدس سره عن القلب أنه يتأثر بالإنشاد أكثر من تأثره بالقرآن ، والقرآن هو كلام الله الخالص ؟ فأجاب :

"إنه لا بد من أن يُعلم أن نور الإنشاد مخلوط ، وأن نور القرآن لطيف . فالقلب المخلوط الذي فيه الأكدار يناسبه النور المخلوط ، والقلب اللطيف يؤثر فيه النور اللطيف" .

فالإنشاد هو كلام بشر ، وقد أجابه جواب عارف .

---

(١) رواه ابن حجر العسقلاني في تلخيص الحبير عن ابن مسعود موقوفاً . ورواه البيهقي في سننه وابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاهي بلفظ الزرع بدل البقل ، ورواه الديلمي في الفردوس عن أنس مرفوعاً بلفظ : [والذي نفسي بيده إن القرآن والذكر لينبتان الإيمان في القلب كما ينبت الماء العشب] .

* وقال الشيخ قدس سره :

قال مريد لشيخه : إني أحس أن الكلام الذي تتكلم به ليس منك ، فأجابه الشيخ : إن الله تبارك وتعالىٰ قد أطلعك علىٰ هذا .

* ولقد أُثر عنه عدة نصائح لمريديه منها :

"أيها الخلفاء ، أنتم الأخوة ما لم تقع الدنيا بينكم ، فإذا وقعت أخشىٰ أن تفرقكم عن بعضكم البعض" .

* ويروىٰ أن مجذوباً من أهل الجذب القوي دخل علىٰ شيخنا وقال له : قدمي علىٰ رقبة من يقول : قدمي علىٰ رقبة كل ولي ، فقال له الشيخ : قدمي علىٰ رقبتك . فنظر المجذوب في عالم الحقيقة ، فوجد قدم الشيخ فوق رأسه فسكت . فكان المجذوب بعد ذلك إذا مر أمام الشيخ ركض وقبّله وقال : التوبة سيدي ، وما تكلم قط بكلمة تنافي الأدب مع الشيخ .

هو أراد أن يفوق أهل الصحو ، ولكن هيهات .

وشيخنا لم يقلها تكبراً إنما لبيان حقيقة ، ولكي لا ينتصر الباطل علىٰ الحقيقة .

* ويروىٰ أن الشيخ عيسىٰ كان في مجلس فيه بعض أعيان ومشايخ الدروز في الشام ، فقال بعض الجالسين لهم : أنتم تعتقدون أن الروح إذا خرجت من الإنسان بعد موته فإنها تدخل في إنسان آخر ، وهو ما يعرف عندكم بالتقمص . فأجاب الدرزي : هي خرجت علىٰ كل حال من الأول ، ولا بد لها من الذهاب إلىٰ محل آخر . فسكت الجميع وتركوا الجواب للشيخ ، فقال : يا حمّاد ، أتدري أين يذهب ضوء السراج إذا أطفئ ؟ قال : لا ، فقال : أتدري أين يذهب لحم السمين

إذا مرض وهزل ؟ قال : لا ، فقال : أتدري كيف يفترق الشـراب والطعـام في بطنك وقد نزلا من محل واحد ؟ قال : لا ، فقال : إذا كنـت لا تـدري ذلـك فكيـف تـدري أن الـروح إذا خرجـت مـن رجـل لا بـد أن تدخـل في رجل آخر ؟ فأطرق الدرزي رأسه ولم يطق ومَن معه الجواب أبداً .

وكـلام الشـيخ عيسىٰ قـدس سـره لا ينتـهي ، وقـد أجملـت في هـذه الرسالة ما وصل إلينا ، فاحفظه تُحفظ .

والموفق هو الذي يقف عند كل فقرة ويقول : أين أنا من هذا ؟

وفاته :

توفي قدس سره يوم الأربعاء السابع والعشرين مـن ربيـع الأول سـنة إحـدىٰ وثلاثـين وثلاثمائـة وألـف مـن الهجـرة النبويـة الشـريفة ، ودفـن في المقبرة المجاورة لضريح سيدنا الشـيخ خـالد النقشـبندي إلىٰ الشـمال منه وكان قد طلب ذلك قبل أن يمـوت ، فـهو علـىٰ أعتـاب الشـيخ خـالد ، وهذا من وفائه وحبه الدائم لشيخه .

أما خلفاؤه فهم كثر ، منهم : الشيخ إبراهيم الغلاييني ، والشيخ أبو الخـير الميداني ، والشيخ أمين الزملكاني وقد دفن كذلـك علىٰ أعتـاب الشـيخ خـالد قدس الله أسرارهـم العلية .



٣٧ - سيدنا الشيخ إبراهيم الغلاييني

هو رجل من رجال هذه السلسلة الطيبة ، باع نفسه ووقته وكل ما يملك لله تعالى .

نسبه ومولده :

أبوه هو محمد خير بن إبراهيم الحسني نسباً ، والغلاييني لقباً .

وقد ولد قدس سره في دمشق .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

ربي الشيخ إبراهيم بين أبوين صالحين يرضع منهما الإيمان والتقى حتى ترعرع ووصل سن التمييز ، وكان موفقاً بحب الأولياء والعلماء الصالحين .

حُبب إليه في مقتبل عمره طلب العلم الشرعي ، ولقد أكرمه الله تعالى بخيرة علماء زمانه علماً وعملاً وورعاً ومكانة في المجتمع ، ومن هنا تأثر بمشايخه كثيراً قدس الله أسرارهم ، ومنهم :

❁ **الشيخ المحدث محمد بدر الدين** : هو ابن الشيخ يوسف الحسني نسباً والمغربي أصلاً . كان محدث زمانه ، وكان ينعت في دمشق بالشيخ الأكبر . هو الذي أوقد الثورة السورية ضد فرنسا ، فهو الذي عبّأ الرجال ، وكان قائد الحملة الفرنسية يأتي إليه ويجلس عند ركبتيه في دار الحديث التي نشأ فيها الإمام محيي الدين النووي قدس سره .

❁ فقيه زمانه وحنيفة عصره **الشيخ محمد عطا الكسم** .

* المجاهد الكبير والمحدث النحرير **الشيخ أحمد محمد السنوسي** : وكان مفتي دمشق يومها .
* **الشيخ محمود العطار** .
* **الشيخ عبد القادر الإسكندراني** .
* **الشيخ سليم النطفجي** : والد زوجته .
* **الشيخ عيسىٰ أبو شمس الدين الكردي** .

ولقد بذل شيخنا صاحب هذه الترجمة قدس سره علىٰ نيل العلم أقصىٰ همته وحزمه وعزمه ، فاشتغل في بدايته بحفظ المتون فنال الفنون ؛ لأن مشايخنا كانوا يقولون : (حفظ المتون توصل الإنسان إلىٰ جميع الفنون) .

وحضر مجالس التوحيد والتفسير والتجويد والحديث والفقه ، حتىٰ أصبح جهبذاً بالعلوم الشرعية ، متفوقاً في علوم الآلات من نحو ، وصرف ، وبلاغة ، وبيان ، وبديع ، وعلم معان ، ومنطق ، وخط . . . إلىٰ غير ذلك .

وبعد أن فرغ من العلوم الشرعية ومن تحصيل ما يطلب منها حُبِّبَ إليه علم الحقيقة ، حيث لا بد لكل إنسان موفق من أن يجمع بين علم أهل الشريعة وعلم أهل الحقيقة كما أسلفنا .

فيومها وفقه الله تعالىٰ بأن التقىٰ بالشيخ عيسىٰ الكردي وأخذ عنه الطريقة النقشبندية ، وكان خادماً له يهيئ له جميع أسباب الراحة وساعات السرور .

ولقد اهتم شيخنا بعلم الحقيقة كما اهتم بعلم الشريعة ، فشمّر

عن ساعد الجد ، وتأدب بـآداب القـوم سـهراً وهـمـة ، ودأبـاً علـىٰ القـرب من الحضرة الإلهية .

ولا زال خادمـاً لشـيخه حتـىٰ أدخلـه الخلـوة أربعـين يومـاً ووصـل إلىٰ الجلوة ، ثم أجازه بكـل مـا أجـازه مشـايخه في الطريقـة النقشـبندية ، وأذن لـه بإقامـة الختـم الكبـير والصغـير ، والتوجـه للمريديـن ، وإعطـاء الطريقة ، وتهذيب السالكين .

ولا زال بتوفيق من الله تعالىٰ ينتقل من مرتبـة إلىٰ مرتبـة ، ومـن مقـام إلىٰ مقام ، ومن درجة إلىٰ درجة ، حتىٰ وصـل إلىٰ الفنـاء ، ثـم إلىٰ مـا هـو أعلىٰ إلىٰ درجة البقاء ، وكان العارف بالله تبارك وتعالىٰ .

ولقد أدركتُه فرداً ، وهذه اللفظة يعرفها الكبار مـن الأوليـاء والعلمـاء العارفين .

كما كُشف له من المعارف بعد ذلـك الشـيء الكثـير ، ومـن الحقـائق ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالىٰ ، حيث نال الفتوحات الرفيعة والمراتـب العالية .

بعض أوصافه ومناقبه :

كان قدس سره طويل القامة ، أبيض اللون ، أشقر اللحية في شبابه .

كان صبوح الوجه ، وضاء الجبين ، مَن نظر إليه فكأنما نظر إلىٰ قطعة من القمر ، وكأنه أمامي وهو يعطي ظهره للمحراب في المسـجد الكبـير ، وكأن وجهه كوكب دري .

كان مَلَكاً يسير علىٰ الأرض ، إذا نظـر الإنسـان في وجهـه تعلـم كمـا يتعلـم منـه إذا سمـع مـن مواعظـه ، وإذا جلـس أمامـه رأىٰ الرجـل الفقيـه

العالم ، يبتسم ويعاشر جماعته بالبسمة والكلمة الطيبة .

كان أباً رحيماً للكل ، مهاب الطلعة ، محترم المكانة ، حتىٰ عند الدروز والنصارىٰ وباقي الفئات غير المسلمة . فكان يشعر الكل كافرهم قبل مؤمنهم أنه مهيمن عملياً علىٰ المنطقة ، بل الكافر كان يقف أمامه محترماً ، علماً بأنه كان شديداً علىٰ الكفار يدعوهم إلىٰ الإسلام . وكم رأيتُ منهم من يطلب منه الدعاء للشفاء وللتبرك به ؟ وكم رأيتُ عدداً من النصارىٰ يقبلون يديه ويهرولون إليه ليتبركوا به ؟ لذا وبدون تصنع رأينا عند وفاته النصارىٰ يبكون عليه في جنازته .

وكان قدس سره كريم اليد ، ينفق جميع ما يدفعه له إخوانه ومريدوه قبل أن يخرج من مكانه علىٰ من هو أهل لذلك في جميع المجالات ، بل كان يبذل المال علىٰ أهل الفقر والفاقة والمساكين ولو أدىٰ إلىٰ الإجحاف علىٰ قوته وقوت عياله .

كان صبوراً علىٰ النوائب ، لا يتغير قلبه لشيء من الدنيا أقبل أم أدبر ، شعاره الرضا .

وكان شكوراً لله تبارك وتعالىٰ حامداً أنعمه ، وكان واثقاً بربه ، واثقاً برزقه كثقته بربه ، كثير التوكل والتفويض لمولاه في جميع الحالات ، شعاره دائماً : (وأفوض أمري إلىٰ الله) . فكان قد بلغ قمة التوكل ، لا يهتم لما يحتاجه بيته في الغد .

وكان يُسَر للمرض كما يُسَر للصحة ، فكلاهما من الله سبحانه .

وكان قدس سره يقظاً ذكياً ملهماً ، كثير التنفل والتهجد ، له وقت من ليله يصفو فيه مع ربه تعالىٰ لا سيما في الثلث الأخير منه ، وكان يعلمنا

بـأن القيـام مـن أفضـــل القربـــات عنـــد الله تعـــالىٰ بعـــد الفرائـــض ؛ لأنـــها بعيدة عن الرياء .

وكان يكثر من قول : إن الله يحب المتهجدين ، وإن الله يمتـدح هـؤلاء بقولـه تعـالىٰ : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات : ١٧] ، وقولـــه : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة : ١٦] .

كان جميـع أبناء الطرق يحترمون رأيه ويسمعون كلامـه بـل ويتـأثرون به ؛ لهذا كان إذا جلس نرىٰ غالب أوليـاء الشـام مـن كـل الديـار معـترفين بفضله ومكانته .

فأذكر يوماً وقد كنا في مجلس وطُلـب مـن الشـيخ أبـي الخـير أن يتكلـم فقال : إذا حضر نهر الله -قاصداً الشيخ إبراهيم الغلاييني- سمع نهر يـثرب ، مع العلم أن الشيخ أبا الخير كان يومها رئيس رابطة علماء سوريا .

وقد رأينـا الرئيـس شـكري القوتلـي يرسـل دائمـاً رسـله إلىٰ الشـيخ إبراهيم ويزوره . حتىٰ هؤلاء أصحاب الكشف والمجاذيب الكبار كأحمد الحارون كانوا أمامه أقل من مريدين ، وكانوا علىٰ أكمل وجه من الأدب .

وأذكر في الخمسينات بأن جماعة مـن الملحدين طـالبوا بتغيير الدسـتور السوري الذي كان يومها الإسلام ، فجاء جماعـة إلىٰ الشـيخ إبراهيـم رحمـه الله تعالىٰ وأخبروه بذلك ، وما كاد الخبر يصل إلىٰ مسمعه حتـىٰ هـب إلىٰ الجـامع الأموي معلناً علىٰ منبره أن الإسلام منذ بدء التاريخ الإسلامي كـان ديـن سـوريا وسـيبقىٰ ، وسـيُحَطَّمُ أعـداء الله . والجـامع الأمـوي يومـها ملـيء بالمكـبرين والمهللين الذين يقولون : لبيك لبيك يـا شـيخ . ثـم نـزل عـن المنـبر ، وانتـهت الصرخات المعارضة المغرضة المستأجرة ، والأصوات الإبليسية .

وكنت يوماً في مجلس في دمشق ، وهو يعقد في صبيحة يوم الأربعاء من كل أسبوع ، ويسمونه مجلس الصلاة على النبي . كان يجتمع فيه حوالي عشرين ألفاً أو أكثر يأتونه من حماة وحلب وحمص . . . ، ويجمع أكثر المشايخ من علماء وأولياء وصالحين ، ويجمع كل الطرق كالنقشبندية ، والقادرية ، والشاذلية . . . ، تُقرأ فيه البردة الشريفة والأسماء الحسنىٰ ، ثم يوزع بعدها ما وجد من طعام وحلوىٰ . وكان الاجتماع يومها في الجامع الأموي مقابل ضريح سيدنا يحيىٰ الحصور ، فبدأ المجلس في ذلك اليوم وقام الشاذلية وأداروا شيئاً من ذكرهم المعروف بحركات ورقص ، وكان في المجلس الشيخ أبو الخير الميداني والشيخ إبراهيم الغلاييني وعدد كبير من الأولياء . فعندما بدؤوا بذلك الذكر تركهم الشيخ إبراهيم علىٰ ما هم عليه وقد كنت قريباً منه ، ثم لم يَرُق للشيخ ذلك فقال : ما هذا أيها القوم ؟ إن الله تعالىٰ يحب المتأدبين معه ، والتقربُ إلىٰ الله تعالىٰ لا يكون بالرقص ، وما أُثر ذلك عن صحابة رسول الله ﷺ وعن سلفنا الصالح ، فالزموا الأدب .

فأتت هذه الكلمة بتواضعها في آذان جميع الحاضرين من كل البلاد والأقطار ، ومنهم السادة الشاذلية وشيخهم ومربيهم الشيخ محمد الهاشمي[1] . فما كانت إلا أن أثرت في قلوب الجميع ، ووقفوا يذكرون الله بدون حركات .

---

(١) هو رجل مغربي من كبار الأولياء ، أتىٰ دمشق وجعلها مسكنه ، وكان له عدد كبير من المريدين في جميع أنحاء سوريا وغيرها . وقد توفي في دمشق ، ودفن في مقبرة الدحداح رحمه الله تعالىٰ .

ولقد أتيت بهذه القصة لأبين بأن شيخنا كانت كلمته مسموعة لدىٰ جميع الفئات ، ولو قالها غيره لأدت إلىٰ فتنة كبيرة أنهت ذلك المجلس .

فشيخنا كان يمثل الطريقة النقشبندية ، إنما كان مستشاراً لجميع الطرق .

وكان قدس سره كثير التصريف مع بسمة دائمة علىٰ شفتيه ، وكم رأيت من ولي يأتيه ويعرض له مشكلته ويطلب التدخل حسياً أو معنوياً ؟ فيتوجه له الشيخ ويقضي له حاجته .

كان يحب أن يقوم بقضاء حوائج الناس بنفسه ، وإيصالهم إلىٰ حقوقهم ، وكان يدخل علىٰ الحكام بلا وجل ولا هيبة في مجال ذلك . وما قصده أحد إلا سار معه وترك جميع أشغاله ، وقضىٰ له حاجته .

كان يدعونا أن لا نرد أحداً ولو بالبسمة والكلمة الطيبة ؛ لأن جبر قلوب المعوذين له وقع كبير عند الله تعالىٰ وملائكته .

وكان قدس سره لا يغضب لنفسه ، إنما يغضب لله ﷻ إذا انتهكت حرمة من حرماته .

وكان لا يرائي ولا يداهن ، ولا تأخذه بالله لومة لائم مهما عظم الأمر .

وكان قدس سره ذا رتبة بمحبة ربه تبارك وتعالىٰ .

وكان يكثر من قراءة القرآن ، وكان صوته حسناً ونغمته جيدة . مَن سمع تلاوته خشع قلبه ؛ لأن قراءته تخرج من قلب عامر خاشع .

وكان قدس سره آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، لا يبالي في هذا المجال من أحد . يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر في جميع المجالات ، سواء في بيته ، أو في الطريق ، أو في الجامع .

ومع أمـره بـالمعروف لم يكـن فظـاً بـل كـان لطيفـاً ، والقصـد عنـده أن يوصل النصيحة إلىٰ المستمع لتكون مقبولة عنده .

وعلىٰ لغة الأطباء هناك طرق لكي يأخذ المريض الدواء المر ، ففي كثير من الأوقات يحتاج الطبيب لوضع هذا الدواء ببرشـامة ، بلـون أنيـق وجميل حتىٰ لا يشـعر المريـض بمرارتـه ، فيـأخذ مفعولـه بـدون عنـاء أو كره له .

كان مركزه قدس سره في قطنة ، وكان خطيب الجـامع الكبـير . ولقـد ولي قضـاء وادي العجـم لمـدة تزيـد علىٰ الخمسين عامـاً ، فكـان يـرد علىٰ جميع الأسئلة التي ترفع إليه ، ويحاول بقصارىٰ جـهده أن يوفـق بـين الطوائـف الإسـلامية لجمـع الكلمـة ووحـدة الصـف ، وأن يوقـف جميـع أصوات أعداء الإسلام في منطقته التي يليها وغيرها . فيـأخذ دور الشـرطي والحاكم ، ويحل المشاكل دون ضرب ولا سفك دماء ، ويقوم بأدوار كثيرة ببركة الإيمان الكامل .

وكان كثيراً ما يزور قرىٰ وادي العجم ، فإذا دخـل قريـة بـدأ بجامعـها فصلىٰ فيه تحية المسجد ، وكان يحث دائماً علىٰ صلاة الجماعة .

كما كان يُعين الأئمة والخطبـاء الأكفـاء في جميـع جوامـع ومسـاجد قرىٰ وادي العجم ، فكان يمتحن الخطيب قبـل تعيينـه ليعلـم إن كـان هـو أهلاً لذلك ، وكان يعتبر ذلك مسؤولية أمـام الله تعـالىٰ ؛ لأن الخطيـب إذا صلح صلحت البلد ، ولأن العوام في هذه القرىٰ كانوا يرجعون إلىٰ الإمـام في كل شيء ، لذا كان التركيز علىٰ الإمام المربي ، حيث هو الـذي يدلهـم علىٰ الطريق الصحيح .

وكان يطلب منهم أن يواظبوا ، وأن يكونوا ناصحين لأهل القرية في التدريس والإرشاد ، وجمع الكلمة وتوحيد الصف ، ويقول لهم : فإن عجزتم عن شيء فارفعوه إليّ .

وكان قدس سره إذا قدم على قرية هرع إليه أهلها من ذكور وإناث ، محبة به وتبركاً لما يعتقدون من ولايته . فإذا اجتمع عليه الناس استغل الوقت وقام بوعظهم وإرشادهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، ويأمرهم بأداء الفرائض واتباع السنن . وكان يرد على جميع المسائل التي ترفع إليه ، ويعالج جميع أمورهم بما يجد المصلحة التي تقتضيها .

وكان قدس سره القمة في علم الفرائض ، ما علمنا مَن هو أعلم منه في وقته . وكان على غاية من الإتقان ، بحيث ترفع إليه المسألة الصعبة المعضلة التي تستغرق الزمن الطويل فتحل عنده بدقائق كمسائل التركة والميراث ، فيهتم بترتيبها وتقسيمها وتوزيعها على ورثة الأموات الكثيرين الذين ماتوا ولم تقسم تركتهم في حياتهم ، ولو كانوا عشرة أموات أو أكثر .

وقد حج شيخنا أكثر من مرة ، وكان يصاحبه الكثير من مريديه .

كما كان الشيخ إبراهيم قدس سره يعتني بتربية المريدين التربية الصحيحة ، فقد تخرج على يديه الكثير من الذين أصبحوا بعد ذلك علماء زمانهم في جميع المجالات في الشريعة والحقيقة ، وكان دائماً يأمرهم بحفظ المتون حيث إنها قواعد العلوم .

ولقد مدحه الكثير من علماء دمشق وغيرها :

❁ يقول الشيخ بدر الدين عابدين أحد علماء دمشق الكبار :

عرفت هذا الشيخ الجليل منذ معرفتي لهذه الدنيا وكنت خادماً له .

عرفته عالماً ، فقيهاً ، ورعاً ، وقوراً ، هادئاً ، ذاكراً ، مراقباً ، سخياً ، عابداً ، صوّاماً ، قوّاماً ، ذكياً ، ملهماً ، ذا وجه صبوح وضاء ، دؤوباً على ذكر الله ، أسهل شيء عنده بذل ماله في سبيل إكرام أضيافه ، كثير التنفل ، متهجداً ، تالياً للقرآن ، ليس للشيطان عليه سبيل ، لا يغضب لنفسه بل لله إذا انتهكت محارمه ، ذا قوة في محبة الله ورسوله .

* وقال الشيخ حسن حبنكة على منبر جامع الميدان مثل ما ذكر الشيخ بدر الدين تماماً وأكثر ، ثم ذكر ما وصل إليه علمه من المزايا الكريمة والآداب السامية التي كان يتحلى بها قدس سره .

* وقال الشيخ أبو الخير الميداني : كان الشيخ عيسى يمدح الشيخ بالاستقامة ، فيقول : إن الشيخ إبراهيم الغلاييني من أهل العلم ، وله همة واستقامة ورياضة .

والشيخ عيسى هو شيخ الشيخين : الشيخ أبي الخير الميداني ، والشيخ إبراهيم الغلاييني .

بعض كراماته :

هي أكثر من أن تحصى ، ومنها نذكر :

كان قدس سره يحب السياحة والنزهة ، فيروى أنه كان في سفر من دمشق إلى بيروت وقد حانت صلاة الظهر وضاق وقتها ، وكان الباص الذي يركب فيه يجمع الدرزي والنصراني واليهودي ويغلبون فيه ، فلو طلب من السائق الوقوف للصلاة لم يجبه ، فتوجه إلى الله تعالى فوقف الباص وحده ، وقام السائق بإصلاح أو بتفحص ما ظن أن الباص قد وقف

من أجله ، ونزل الشيخ مع إخوانه فتوضؤوا وصلوا الفرض والسنة ، والسائق لا يعرف العطل ، وكان يشير إلى الباصات ليقفوا لمساعدته لكن ما من مجيب . ثم رقى الشيخ ومن معه الباص وقال لإخوانه : مروا السائق أن يسوق الباص ، فرد عليهم السائق : أما ترون ما نحن فيه ؟ وكان وقتَها الجوُّ حاراً ، فقال له الشيخ : اجلس على كرسيك وشغل باصك وامض بسلامة الله ، فقال السائق : اتركني لوحدي . ثم أصر على السائق ، فشغّل الباص وسار ، فتعجب أهل الباص لذلك ، لكنها لا تعمى الأبصار إنما تعمى القلوب التي في الصدور .

ومن ذلك أيضاً أني كنت أسير في الجامع الأموي يوماً بمعية الشيخ وزرنا سيدنا يحيى الحصور ، ثم سار الشيخ إلى الخارج وسرت خلفه وحال بيننا الباب الداخلي ، ثم تبعته فوجدته أمامي ، ثم التفتُّ إلى اليمين ثم نظرت إليه فلم أجده ، علماً أن صحن المسجد كان واسعاً جداً ولا حائل بيننا ، فكان قدس سره ذا خطوة واسعة .

من كلامه ومآثره :

❁ أذكر أني كنت يوماً في بيته في الميدان بحضور عدد كبير من علماء الشام يزيدون على الخمسين ، فقال لي أحد الحاضرين : أرى سِمة الولاية على وجهك ، فسمع الشيخ هذه المقالة فقال لي : يا ولدي ، لا تغتر بقوله ؛ لأن ذلك يوصلك إلى ما لا يحمد عقباه .

هكذا يكون المرشد موجهاً ، ولو كانت هذه الكلمة بدون وعظ الشيخ كانت قد توصل إلى ما لا يحمد عقباه .

❁ وقال لي يوماً :

"حفظت عن شيخي ثلاث كلمات تكتب على ظفر الإبهام ، لو عمل بها المريد لكانت كافية لأن توصله ، وهي كلمات قليلة بكتابتها ، قليلة بعددها ، إنما هي كثيرة بمعانيها وتطبيقها والوقوف عندها : اتبع ولا تبتدع ، اتضع ولا ترتفع ، من تورع لم يتسع" .

وفي الحقيقة كان لها التأثير الكبير على قلبي ، ولا زلت دائماً أقف عندها ؛ لأنها خرجت من فم وقلب عارف يريد أن يربي مريده .

أولاً : الاتباع : فهو الأساس في السلوك ، حيث هناك أناس يحاولون أن يأخذوا العلم من الكتاب ويدّعون أنهم يعرفون ، فهؤلاء ما اتبعوا . وغير المتبع لا يستنير قلبه ، ولا يصل إلى حضرة ربه تبارك وتعالى .

فالاتباع هو أعلى مراتب الولاية ، وما وصل ولي إلى مرتبة رفيعة إلا ببركة اتباعه لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم ببركة اتباعه لوراثه .

ثانياً : الاتضاع : وهو التواضع وعدم الترفع والتكبر .

وهذه صفات أصحاب رسول الله ﷺ ، وصفهم الله تعالى بأنهم أذلة ، وهكذا المؤمنون بعضهم مع بعض بدون نفوس ، ومن رأى نفسه خيراً من الكلب فالكلب خير منه .

فإياك أن ترى نفسك على أحد ، أو أن تحتقر إنساناً لشكله أو لهيكله أو لفعله ، فأنا لا أكره الذات ؛ لأني إذا كرهتها فإني كرهت صنع الله تعالى .

والتواضع هو الطريق الوحيد في سلوكنا ، ولا سلوك بدون تواضع .

ثالثاً : الورع : وهو أمر يزيد عن الفرض والسنة ، وهو أن يتورع الإنسان لدينه لا سيما في زماننا .

❁ وقال الشيخ رحمه الله :

"شجر الحور لَمّا ارتفع وعلا لم يثمر شيئاً ، واليقطين مد عروقه على الأرض واتضع فأثمر هذا الثمر النافع وتولت الأرض حمله" .

❁ وقال قدس سره :

"ينبغي للمريد أن لا يقع نظره على أحد يستحقره ، بل يرىٰ نفسه أحقر الورىٰ" .

❁ وقال :

"ينبغي للمريد أن يراقب ربه كأنه يراه ومعه وناظر إليه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه" .

وهذه الكلمة تفسير للحديث الشريف الصحيح : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

فيجب علىٰ المريد أن يتصف بها ، فإذا اتصف بها رأىٰ الله تعالىٰ بمرتبة رفيعة وهي مرتبة اليقين . فإن لم يستطع الوصول إلىٰ ذلك فليراقب بأن الله يراه ، وهنا لا بد من التأدب مع الله تعالىٰ في كل مكان .

وبدون تشبيه الإنسان الذي يشعر بأن الحاكم يراه تراه منضبطاً ، فكيف بمَن يراه ملك الملوك ؟ فهذا مِن باب أَوْلىٰ .

❁ وقال قدس سره :

"كان الشيخ عيسىٰ يأمرني بالجوع ، ويحثني علىٰ قيام الليل ، وعلىٰ العزلة خصوصاً عن الحكام إلا للضرورة" .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وتفرد به مسلم عن البخاري بإخراجه . كما خرّجه أحمد في مسنده ، ورواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم .

ولتفسير ذلك نقول :

أولاً : الجوع : فله فوائد كثيرة للمريد ، حيث المعدة إذا امتلأت ترىٰ الكسل والخمول .

ثانياً : قيام الليل : لأنه يورث أشياء منها : الإخلاص ، والقرب من حضرة الله تعالىٰ ، وكثرة الصفاء والتضرع والابتهال ، وكثرة البكاء الذي ينير الوجه والقلب .

ثالثاً : العزلة : فطلب الشيخ أن نبتعد عن الناس ؛ لأن الناس بأهوائهم وشهواتهم يريدون أن تكون معهم ومنهم ، فإذا اختلط المريد مع هؤلاء تعكر قلبه وصفوه ؛ لذا يشعر المريد بأن قلبه الذي يجده وهو أمام الشيخ يختلف عن الذي يكون فيه أمام الناس .

وركز شيخنا بقوله : (ولا سيما الحكام) ؛ لأن الحكام هم أكثر الناس غفلة ، وأكثر الناس ظلماً . أما إن كان لضرورة كطلب رزق وعمل فتسير ، فإذا انتهيت قم واستغفر الله تعالىٰ .

❁ وقال قدس سره :

"هذه الطريقة لا يعرف آدابها إلا أهل العلم" .

وأقول : طريقتنا النقشبندية لا يتأدب بآدابها إلا مَن وُفِّقَ لمقام العبودية .

وفاته :

يروىٰ أن شيخنا قدس سره صلىٰ صلاة الجمعة في الرابع عشر من شوال سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، الموافق لسنة تسع وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد ، في جامع مازي في الميدان .

وبعد انتهاء الصلاة بدا له زيارة العلامة الشيخ مكي الكتاني في داره في حي العمارة بدمشق . وبينما هما يتحدثان في أمور المسلمين والنهوض بهم مما حل بهم من ضعف وهوان ، إذ فاجأ شيخَنا رعشةٌ في بدنه ورعدة في جسمه ، مما سبّب أن قام الشيخ مكي رحمه الله وجزاه خيراً بنقله إلىٰ المشفىٰ المسمىٰ بمشفىٰ المجتهد في دمشق الكائن في حي الميدان . وهناك وُضع الشيخ إبراهيم في غرفة خاصة وانقطع عن الكلام تماماً ، علماً أن كبار الأطباء في هذا المشفىٰ قاموا بمهام فوق العادة كما رأينا ، جزاهم الله خيراً .

وللحق أقول : اهتم رئيس الجمهورية شكري القوتلي بنفسه بالشيخ عندما علم بما حدث له ، وبعث مندوباً خاصاً يمثله ويحمل سلامه وتحياته ، كما أمر رئاسة الصحة بالاهتمام والعناية التامة والسهر علىٰ راحة الشيخ مهما كانت غالية . فجزاه الله تبارك وتعالىٰ خير الجزاء علىٰ اهتمامه بأهل العلم والولاية والصلاح ، علماً أن الفقير كاتب هذه الأسطر رأىٰ شكري القوتلي بعد موته في المنام بحالة حسنة ، ففسرت ذلك بأن الله تبارك وتعالىٰ قد أكرمه بعد موته بحبه للأولياء والصالحين .

وبقي شيخنا قدس سره علىٰ حالته هذه في شبه غيبوبة من عصر يوم الجمعة إلىٰ قبيل صلاة فجر يوم الإثنين ، حيث لبّت روحه أمر ربها وهي في أشد الاشتياق لهذا اللقاء الكريم . وبذلك فارق الدار الفانية إلىٰ الدار الباقية ، دار الأبرار والمتقين عند مليك مقتدر .

ثم نقل الشيخ صباح يوم الإثنين السابع عشر من شوال إلىٰ دار ولده الأكبر محمد بدر الدين في حي الميدان ، ثم وُضع علىٰ سرير وكشف

عن وجهه الوضاء الصبوح ، وأُذن لمن شاء من المريدين والأحباب بتقبيل وجهه المنير ووداعه ، والتماس بركاته التي يعترف بها العدو والصديق .

واستمر الشيخ على هذه الحالة يستقبل الناس كعادته في حياته مبتسماً بوجهه الوضاء ، وكذا كنا نراه في وفاته وكأنه يرحب بهم مبتسماً .

وكم رأينا العلماء من دمشق وحلب وحمص وحماة ، ومن أكثر المحافظات السورية بل البلاد العربية ، ثم رأينا الوفود تتوافد من مختلف طبقات الناس من التجار والصناع والحرفيين وغيرهم .

وفي صباح يوم الإثنين نَعَتَت الإذاعة السورية وفاة الشيخ قدس سره ، كما نُعت على مآذن جميع جوامع دمشق ، فكان وقع نعيه على عارفيه ومحبيه أشد من وقوع الصواعق .

ولقد غسل وكفن قدس سره في بيت ولده المذكور آنفاً ، ثم حُمل على الأيدي والأكتاف من بيت ولده إلى الجامع الأموي ، علماً أن المسافة كانت تقدر بسبعة كيلومترات والناس يتزاحمون على حمله ، وسار الناس بهذه الجنازة إلى الجامع الأموي . وهناك صُلي على الشيخ قدس سره بعد صلاة العصر مباشرة من يوم الإثنين ، وقد غص الجامع بالمصلين من جميع الأقطار والبلاد ، من علماء ووجهاء ورجالات حكومة وأعضاء الرابطة الإسلامية ، وغير ذلك . وأرسل رئيس الجمهورية مندوباً عنه .

لقد نُظِّمَ الموكب ، فكانت أول الجنازة قد وصلت إلى مكان القبر الشريف ، وآخرها لا تزال في الجامع الأموي لم تجد مجالاً للخروج من شدة الزحام ، علماً أن المسافة ما بين المقبرة والجامع لا تقل عن ثلاثة كيلومترات . حيث خرجت من الجامع ، ثم انعطفت إلى اليسار إلى باب

الجابية ، ومنه إلىٰ حي الشاغور ، ثم إلىٰ مقبرة باب الصغير قرب معاوية بن أبي سفيان عند ضرائح آل بيت النبي ﷺ ، حيث ووري في مثواه الأخير .

كانت مسافة طويلة لا سيما علىٰ قوم يسيرون مع جنازة ، ولكن حبهم للشيخ ودرجته الرفيعة قدس سره أَنْسَتِ الناس كل مشقة ، بل الكل في غاية الاستغراق والجميع في بكاء مستمر ، ويا له من مشهد !

ولقد رثاه بعد الدفن مباشرة عدد من العلماء الكبار ، وعلىٰ رأسهم العلامة المفتي العام الشيخ أبو اليسر عابدين ، ورئيس رابطة علماء سوريا ومعه أعضاء الرابطة ، ومن يمثل الأوقاف آنذاك عبدالرحمن الطباع ، ونائب رئيس الجمهورية . فكان هؤلاء علىٰ غاية من الانتباه ، والألم يُرىٰ علىٰ وجوههم .

ثم كانت التعازي في الجامع الأموي لكثرة العدد والناس من كل مكان ، والذي كان يتقبل التعازي رابطة علماء دمشق بجميع أفرادها ، بالإضافة إلىٰ أبناء الشيخ وذويه ومريديه .

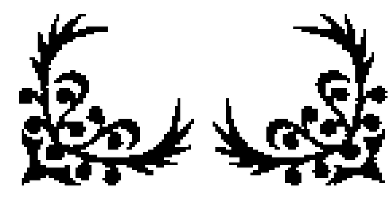
وكانت برقيات التعازي تنهال من عدة من البلاد والأقطار والأمصار ، وكانت كلها طافحة بالتعبير عن الحزن واللوعة والأسف علىٰ الفقيد قدس سره . ومن هذه البرقيات برقية من نائب رئيس الجمهورية المتحدة المشير عبدالحكيم عامر ، وبرقية من مفتي حلب الشيخ محمد بلنكو ، ومن مفتي حمص الشيخ توفيق الأتاسي ، ومن مفتي حماة الشيخ سعيد النعسان ، ومن غيرهم من جميع البلاد .

كما تناول خطباء الجمعة التي بعد وفاته مناقب الشيخ ، وما له من كرامات ومآثر حميدة .

وهكذا توارىٰ جسد الشيخ في قبره ، ولكن سيرته لا تزال معنا ، وها نحن نذكرها بعد أكثر من أربعة عقود .

نعم ، كان قدس سره الوارث المحمدي الصادق في جميع أموره من قول وفعل ، كما كان ركناً كبيراً مالئاً فراغاً عظيماً كأنه خليفة المسلمين في عصره ووقته .

وكانت سيرته دائماً عطرة تعطينا النشاط الروحي واليقظة الروحية . هي سيرة طويلة لا تنتهي ، إنما حياته مدرسة وجامعة يتعلم الإنسان منها أشياء كثيرة تنفعه في دنياه وآخرته .



٣٨ - سيدنا الشيخ أبو الخير الميداني

هو رئيس رابطة العلماء في عصره ، والقطب في بلده . هو الذي كان من رآه يقول : لقد رأيت السلف الصالح ، رأيت من يذكرني بأبي بكر وعمر ، وبالرجال الذين صحبوا رسول الله ﷺ .

نسبه ومولده :

هو محمد خير بن محمد بن حسين بن بكري الميداني ، المكنى بأبي الخير وكله خير .

ولد قدس سره سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف من الهجرة ، أي سنة خمس وسبعين وثمانمائة وألف من الميلاد .

ولد بين أبوين صالحين في حي الميدان ، وهو حي كبير من أحياء دمشق مشهور بأنه حي محافظ .

نشأته العلمية وانتسابه للطريقة :

كان الشيخ أبو الخير يدرس بالمدرسة الراشدية بدمشق وكان متفوقاً على أقرانه ، ثم لحق بمدرسة عنبر خلف الجامع الأموي ، وهي الآن موجودة كأنها متحف .

وكانت الدراسة يومها لا تتجاوز الصف التاسع ، فبعد أن أنهى الشيخ دراسته في مدرسة عنبر وكان أبوه قد مات ، أرادت أمه أن يكمل دراسته الحربية في استنبول ، غير أن الله تبارك وتعالى لم يرد ذلك .

ففي الحقيقة ذهب شيخنا إلى استنبول ليدرس الدراسة الحربية وليكون

ضابطاً في الجيش ، فطلب منه المسؤولون يومها في استنبول بعض الأوراق ، فغادر إلىٰ دمشق ليتمم أوراقه . وفي هذه الأثناء عَرَضَتْ لأمه مسألة شرعية ، فأرسلته إلىٰ الشيخ سليم المسوتي[1] وكان يعمل إماماً ومدرساً في جامع

---

(١) الشيخ سليم المسوتي كان العالم الكبير المتوكل العارف المشهور ، شيخ الأولياء في زمانه ، وبركة عصره وأوانه . فبعد أن تعلم الشريعة من مشايخه سلك طريق الحقيقة وتحقق ، فكان مشايخه الذين علّموه الشريعة بعد ذلك يأتون إليه ليتبركوا به ويقبلون يده .

وصل في عصره إلىٰ درجة المتوكلين ، فكان ينفق كل شيء يأتيه ، ولا يبيت مساء وعنده في يده شيء من المال ، فقط يترك أجرة الحمام حيث كان له أربع نسوة فيبيت كل ليلة عند واحدة ، وله خمسة وثلاثون ولداً . وكان المريدون يقدمون إليه ما يحتاج إليه من نفقات ، بالإضافة إلىٰ ما يلزمهم من زكاة وصدقات ؛ لتنفق عن طريقه إلىٰ الفقراء .

يروىٰ عنه أن تاجراً أعطاه مالاً كثيراً في صرة وقال : أراقبه أين يضعه . وبعد أن فرغ الشيخ من صلاة العشاء والدرس ، انطلق وانطلق التاجر خلفه ، فدخل الشيخ بيته ثم خرج ومعه الصرة وأعطاها للحارس الليلي . وعندما ذهب الشيخ ، أتىٰ التاجر وسأل الحارس عن قصته فقال : منذ شهور طلبت من الشيخ مال مهر لأتزوج به ، ثم فتح الحارس الصرة فإذا فيها المبلغ الذي طلبه .

وكذلك حصلت معه مرة أخرىٰ عندما أعطاه رجل مالاً ، فوضع المال بجيبه في الدرس ، فلما انتهىٰ قام وأعطىٰ المال لتاجر مشهور ، فقال صاحب المال : يعطي مالي لغني ! كان بودي أن يعطيه لفقير محتاج . فيقول صاحب المال : سرت خلف التاجر حتىٰ وصلت إلىٰ داره ، وقبل أن يدخل قلت له : أحب أن أسألك ، قال : سل ، فقلت : رأيت الشيخ قد أعطاك المال وأنت لا تستحقه . فأخذ التاجر بيدي وأدخلني البيت ، وإذ رأيت حبلاً موضوعاً في النافذة قد أعده مشنقة ، وقال : لقد خسرت جميع أموالي والديّانة يطالبونني كثيراً ، واستحييت أن أقابل أحداً ، فخطر ببالي أن أنتحر فقلت : أصلي ركعتين في جامع التوبة ثم أنتحر ، فأتاني هذا المال فكان كافياً لتسديد كل ديوني . فكانت كرامة للشيخ سليم .

ومن هنا نقول : يجب علىٰ المريد أن لا يعترض علىٰ الشيخ ، فالشيخ يتصرف بالمال بما يجده مناسباً وهو المسؤول .

وفي الحقيقة الشيخ سليم شيخ له كرامات كثيرة ، وقصص أكثر من أن تذكر .

=

التوبة في العُقيبة[1] ، وهـذا الجـامع علىٰ مـر زمانـه كـان يجمـع الأوليـاء والصالحين والعلماء .

مرة قرع الباب في رمضان قبل ضرب المدفع بخمس دقائق وزوجته كانت تطبخ القشة - وهـي أكلة شامية معروفة ومقدمة عند كثير من الناس ، عناصرها رؤوس الغنم مع الكراعين وشـيء من الأمعاء ، وتطبخ باللبن أو بـدون اللـبن - ، فـأعدَّت الطعـام ليـأكل الشـيخ وأولاده وكـان ناضجاً . فلما قرع الباب وقيل : فقير ، قال الشيخ : فقـير وجـد فقـيراً . فقـال الفقـير : عنـدي زوجة وعشرة أولاد صائمون ولا يوجد لدينا طعام ، فقلنا : ليس لنا إلا بـاب الشـيخ سـليم . فقال الشيخ : تعال ، وأدخله المطبخ سراً وأعطاه القدر ، وقال له : سر قبل أن تراك الزوجـة . وضُرب المدفع فدخلت الزوجة لتضع الطعام فلم تجده ، فقالت للشيخ سليم : أيـن الطعـام ؟ قال لها : الله أعلم ، قالت : يا رجل ، الأولاد صوام ، أهكذا يأمر الله ؟ وهي تتكلم وتشـاجر . ثم قرع الباب فقال لها : افتحي وخذي الصواني ، وإذ تلميذ أحضـر عشـر صـوان مـن الأوزي ومعه اللبن ، فعندما رأت المرأة ذلك سكتت فقال لها : أنظرتِ ؟ أطعمنا شيئاً بسيطاً فَعَوَّضَنا الله بالكثير والأطيب .

ويروىٰ كذلك أن فقيراً أتاه وهو علىٰ المنبر وطلب كسوة ، فجلـس تحـت المنـبر وخلـع جلابيتـه ولبس الجبة ، ثم أعطـىٰ الجلابيـة للفقـير . فلمـا ذهـب إلىٰ البيـت سـألته زوجتـه عـن الجلابيـة وشاجرته ، فقرع الباب وإذ أحدهم يهدي الشيخ عشر صايـات . فدخلـت الزوجـة علـىٰ الشـيخ ومعها تسع صايات ، فقال لها : أين العاشرة ؟ قالت : كيف عرفتَ؟ لقد أخفيتها لأخي . فقـال : الحسنة بتسع أم بعشر ؟ قالت : بعشر ، وأعطته إياها . فقال : أعطني واحدة وأنفقي التسعة .

وقصصه في هذا المجال كثيرة ، وقد رأيت الشيخ النبهاني رحمه الله تعـالىٰ الـذي ألـف كتـاب [كرامـات الأوليـاء] قـد ذكـر في كتابـه الشـيخ سـليم وأثنـىٰ عليـه كثـيراً ، وذكـر لـه الكثـير من الكرامات التي رآها هو بنفسه .

فشيخنا صاحب هذه الترجمة ، بدأ حياته عند الشيخ سليم بهذه الحالة والروح الإيمانية .

وأقول : هذه الأمور هي عناية وإكـرام مـن الله تعـالىٰ علـىٰ مـن يشـاء مـن خلقـه ومـن عبـاده ولا يُسأل عما يفعل ، يعطي من يشاء ، إنه هو الفعال لما يريد .

(١) كانت تعرف سابقاً بقرية أوزاع ، وهي قريـة تقـع شمـال دمشـق يمـر بطرفـها الجنوبـي نـهر بردىٰ ، وهي مباشرة خلف ما تسمىٰ الآن بالمناخلية . وكان بها رجال مؤمنون ، ومنهم الإمـام الأوزاعي المشهور تابع التابعي .

فذهب شيخنا أبو الخير ليسأل الشيخ سليم المسوتي عن مسألة أمه ، وأجابه الشيخ عنها . ثم سأله الشيخ سليم : أين أنت يا بني ؟ فقال : أمي تريد أن أدرس الحربية ، قال : لا ، عليك أن تدرس الشريعة الآن ، وأنا أرىٰ لك مستقبلاً ومنزلة رفيعة . فقال : إن أمي لا ترضىٰ . فذهب الشيخ بنفسه إلىٰ أمه وأقنعها بأن يدرس ولدها الشريعة بعد أن قال لها : إن ولدك هذا له مستقبل باهر ، ولا بد له أن يدرس الشريعة .

ويدرس لفظة لا تعني الذهاب إلىٰ المدرسة كلغة العصر ، بل تعني أن يذهب للشيخ ويتعلم منه الفقه والتفسير والقرآن والأصول .

فوافقت أمه ، ومن يومها أصبح صاحب ترجمتنا قدس سره تلميذاً عند الشيخ سليم المسوتي ، وكانت أمه تعده للذهاب لدرس الشيخ صباح مساء .

وإن اعتناء الشيخ سليم بسيدنا أبي الخير هو الذي حمله علىٰ تشمير سواعد الجد والنشاط الجسماني والروحي ، حتىٰ وصل إلىٰ ما وصل إليه وأصبح شيخ وقته والساحة .

فلقد لازم الشيخ أبو الخير الشيخ سليم قدس الله سريهما حتىٰ قال له الشيخ سليم : لم يبق عندي شيء إلا صار في صدرك . ثم التفت بعد ذلك إلىٰ العلماء الأعلام في عصره ، وأخذ العلم من نخبة عالية من علماء دمشق الجهابذة الكبار ، ممن شاع ذكرهم وطارت شهرتهم في الآفاق ، نذكر منهم :

* **الشيخ عطا الله الكسم** : هو مفتي الجمهورية السورية يومها ، وكان عالماً ورعاً تقياً .
* **الشيخ عبد الرحيم دبس وزيت** : ويسمونه الحافظ ، وهو والد الشيخ عبدالوهاب الحافظ .

* **الشيخ عبدالرحمن البرهاني** : هو والد الشيخ سعيد البرهاني الذي كان إماماً لجامع التوبة بعدها .
* **الشيخ سلطان الداغستاني** .
* **الحافظ الجامع العلامة شيخ القراء بلا منازع الشيخ محمد القطب** .
* **ترجمان الأولياء الأصولي النحوي الصوفي الرياضي الشيخ الكبير أمين سويد** : كان من كبار العلماء والأولياء في زمانه .
* **الشيخ الكبير عبدالحكيم الأفغاني** : هو الزاهد العظيم العلامة الشهير ذو التصانيف العديدة ، شارح كتاب [الهداية] الذي يقرؤه الأحناف و[الكنز] وغيرهما(١) .
* **سيدنا وشيخ شيوخنا العارف الكامل عيسىٰ أبا شمس الدين الكردي قدس سره** : الذي كان في عصره وزمانه شيخاً للطريقة النقشبندية ، والمرشد المربي العالم الزاهد الذي لا تأخذه في الله لومة لائم .

---

(١) كان علىٰ قدم الصحابة الكرام في مطعمه ، ومشربه ، وملبسه ، وتواضعه ، وزهده ، وإقباله علىٰ الله تبارك وتعالىٰ . كانت كراماته كثيرة وفضائله واسعة ، وكان متقشفاً في حياته يرفض أي شيء من الآخرين ، ويأكل الخبز مع الخل . أذكر قصة حصلت مع مريد عنده وكانت كرامة له ، فيقول المريد : كنت كل يوم آتي للشيخ عند الغداء بطعام ، والشيخ يقوم ويعطيه للتلاميذ ثم يأكل الخبز والخل . فأخذت علىٰ خاطري ، ولكنني كنت مصراً علىٰ ذلك ، فآتيه كل يوم بالطعام . وذات يوم أحضرت له الطعام ، فأعطاه للآخرين كعادته ، وكسّر هو الخبز اليابس بالخل ، ثم قال لي : تعال وكل معي . فكان لا بد للمريد أن يأكل مع الشيخ كما طلب منه ، فيقول : أكلت اللقمة الأولىٰ والثانية ... ، فإذا أنا آكل جميع ألوان الأطعمة في الخل . فالتفتَ إليَّ الشيخ مبتسماً وقال : يا بني ، أنفقنا الطعام وأبقىٰ الله لنا لذته وفوائده .

لقد أخذ عنه شيخنا الطريقة والعلم ، وكان موفقاً بخدمته ، فأخلص له وكان على أعتابه وأبوابه ، لا يرى لنفسه مكاناً سوى الباب على النعال ، ينظر إلى ما يحتاج الشيخ من الطعام والشراب فيؤمنه ، ينظر إلى ما فيه سرور الشيخ فيفعله ، ويقول : لا إرادة لي أمام إرادة شيخي . فكان كالعجين بين يدي شيخه ، نفسه وماله وكله بين يديه .

وكان يحب شيخه كثيراً ويتفانى من أجله ، ينظر إلى حركاته ويكتفي بإشاراته ، لا يحتاج إلى كلام إنما بإشاراته يقوم حالاً ويحقق له جميع آماله .

كان إذا رأى بسمة الشيخ رأى الدنيا قد أشرقت وظهر نورها ، وإذا رأى بوجه الشيخ اشمئزازاً ظن أن القيامة قد قامت ، يرضى لرضاه ويُسر لسروره ، يوالي أحبابه ويعادي أعداءه .

وهكذا كان طلاب العلم في عهده مع مشايخهم . ألم يكن الصحابة يحبون أحباب النبي ﷺ ويعادون أعداءه ؟ ألم يقاتلوا أبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم ؟ فكان شيخنا مقتدياً بالنخبة الأولى من هذه الأمة .

وإذا رأينا اليوم بعض من يخالف هذا النهج فإنما يكون قد خرج عن الطريق الصحيح ، وهو أن نحب النبي ﷺ وأحبابه وأن نكره أعداءه ، لا لماذا ؟ ولا كيف ؟ ولا بل ولعل .

وهكذا إذا سرنا مع الشيخ ، نحن معه أحببناه وأحببنا أحبابه وكرهنا أعداءه ، هذا إن اعتقدنا بالشيخ الكمال . وهذا ليس بكلام يقال بل رأيناه قد اتصف به مشايخنا قولاً وفعلاً ، وهذه صفة الحبيب ، وعلى هذا سلك رجال هذه الأمة .

ونعود إلى سيرة شيخنا ، فبعد أن وثق الشيخ عيسى بالشيخ

أبي الخير كثيراً زوّجه ابنته أم عادل سنة اثنتين وعشـرين وثلاثمائـة وألـف من الهجرة ، وكانت أيماً في التاسعة والعشرين من العمر .

وقد كان شيخنا قدس سره يحترم زوجته كثيراً ، وكانت عنده مـن أعـز الناس لأنها من بركة الشيخ . كـانت هـي تتصـرف بشـؤونه لِما كـان لهـا من الدراية والخبرة ومن الرأي الصائب ، فكـان هـو يطيعـها ، وإذا خالفـها في بعض الأوقات تشكوه لأبيها .

أذكر مرة أنني كنت في مظاهرة كبـيرة في دمشـق مـن أجـل الدسـتور في سوريا ، حيث قالوا سيضعون دسـتوراً غـير القـرآن ، وكـان معنـا عـدد من المتظاهرين بلغوا حوالي مـائتي ألـف ، وفيـهم غـالب مشـايخ الشـام . فانطلقنا وكان لا بد لنا أن نبدأ برئيس رابطة العلماء بسـيدنا أبـي الخـير ، فسارت المظاهرة إليه وعُرض عليه سببها ، فكان يُسمع زوجته كل مـا دار في هذا المجال . ومن هنا نعرف مكانتها عنده .

ولقد واظب عليه سيدنا أبو الخـير مـدة عشـر سـنين (١٣٢١ - ١٣٣١ من الهجرة) قدس الله العظيم سريهما ، وكان من جملة خلفائه بعده .

جانب من حياته ومناقبه :

كان سيدنا أبو الخـير مدرسـة تامـة في أخلاقـه ، مَـن جالسـه رأىٰ فيـه جميع الصفات الطيبــة . فكـان مثاليـاً في علمـه ، في عملـه ، في أخلاقـه ، في تواضعه وأدبه .

كـان خلقـه القـرآن وشمائلـه السـنة المطـهرة ، يجلـس مـع الكبـير

والصغير ، ويسمع مِن كل مَن أوقفه .

كان إذا خرج ومشىٰ معه المريدون وأتاه ولد صغير يتكلم معه ، فإنه يسمع منه حتىٰ إذا انتهىٰ واستطاع أن يقضي حاجته فعل ثم مشىٰ .

ذكر لي أحدهم اسمه رياض المالح يقول : كنت يوماً وأنا بسن الحادية عشرة وقد خرج الناس ووقفت مع الشيخ ، فقلت له : رأيت مناماً . . وهكذا وقف معي نصف ساعة يسمع لي ، ثم جاء تلميذ له اسمه الشيخ لطفي الفيومي وأخذ بيدي وقال لي : اترك الشيخ ، فضحك الشيخ وانطلق .

فكان يقف مع الولد والمرأة ، مع الكبير والصغير ، ولا يمل أبداً .

وهذه هي الأخلاق المحمدية الصحيحة (التواضع) ، به يرتفع الإنسان ، ومن تواضع لله رفعه .

وكان قدس سره في جميع أموره وأقواله وأفعاله وتصرفاته مرشداً ومعلماً ومربياً ، علماً أن الكثير ممن أحبوه ولازموه كانوا يتعلمون السنة من أحواله وأفعاله قبل أقواله .

وكان من رآه ذكر الله تعالىٰ ، وما اجتمع به أحد إلا انتفع من علمه وفضله ، حيث لم يخل مجلسه من تعليم وإرشاد ونصح .

وكان قدس سره مهاباً ، وقوراً ، ورعاً ، متواضعاً ، لا يرىٰ نفسه أهلاً لشيء ما .

وكان مرحاً كثيراً ، ذا بسمة وضحكة ، إذا جلس ذكر أشياء فيها إدخال السرور ، وفيها فكاهات كثيرة تثلج قلوب السامعين .

وكان كلما ذُكر النبي ﷺ رأيت علىٰ وجهه علامات تدل علىٰ أنه محب للنبي عليه الصلاة والسلام . وإذا ذُكر جهاده ﷺ تأخذه رجفة ويحمر وجهه وكأنه في ساحة الحرب ، فكان يعيش مع الغزوة تماماً .

وكان قدس سره كريماً كرماً لا يوصف ، ما عُهد أن أحداً طلب منه شيئاً وردّه أبداً إنْ كان موجوداً لديه .

وما حَجَبَ أحداً من الدخول عليه ليلاً ولا نهاراً ، حتى في أوقات راحته . وقد روينا عنه أنه كان يغضب إذا قيل له : جاء فلان وسأل عنك فقلنا: إنك نائم ورجع . وكثيراً ما كان يقول : ما كنت نائماً ، لِمَ لَمْ تُعلموني بذلك ؟ لعل له حاجة . وكان كثيراً ما يقول : إن الله تبارك وتعالى خلقني للناس لا لنفسي .

وقد خرج يوماً عن مكتبته التي كانت أعز شيء عنده مرتين ليوزع الكتب على طلاب العلم ؛ وذلك زهداً في الدنيا ، ومؤاثرة لطلاب العلم على نفسه .

وكان الشيخ قدس سره صواماً ، قوّاماً ، بكاء من خشية الله تعالى ، زاهداً فيما في أيدي الآخرين ، مقبلاً على العلم والتعليم والإرشاد والنصح لكل مسلم عرفه أم لم يعرفه ، في جميع وقته كان المعلم الناصح الذي يدل على الله تبارك وتعالى .

وكان يرضى لله تعالى ، ولا يغضب إلا لله ، أو لفوات درس ، أو منفعة أخروية معنوية . وإذا انتهكت حرمة من حرمات الله نراه يغضب ويتألم ويبكي ، وإن استطاع أن يزيل المنكر أزاله بيده وإلا فبلسانه ، وإذا لم يستطع يرجع ويقول : اللهم إن هذا منكر لا نرضى به ، ولا نستطيع أن نزيله .

نُقل لسيدنا أبي الخير عن طريق رئاسة الجمهورية بأن شيخاً في عهده كان يمر على الشوارع ويبلغ الدعوة ، ويقف أمام أبواب دور السينما في الساعات المناسبة عند خروج الناس ، فيذكرهم بالله ويدعوهم

إلىٰ المسجد ، وأُخبر الشيخ أبو الخير بأن هذا الشيخ قد مُنع مراراً من قبل رجال الأمن والشرطة ، وهو مصر علىٰ ما هو عليه بعد توقيفه مراراً بالنظارة . وطُلب من الشيخ أبي الخير أن يمنعه من ذلك ، فبكىٰ يومها الشيخ أبو الخير وقال : ليت شعري أأمنع إنساناً يقول : لا إله إلا الله ؟ كان من الأَوْلىٰ أن يقف أبو الخير أمام هذه الجماهير ويذكرهم بما يذكرهم به هذا الشيخ . أيقف أبو الخير ويمنعه من كلمة الحق التي أخلص بها ووقف يقول للناس : ارجعوا للمساجد ، وهو لا ينتمي لسياسة ولا لفئة أوجماعة سياسية ؟ فلا وألف لا ، لا نقول له : قف ، بل نقول له : استمر ، فوالله الذي يقوم به هذا الشيخ لَيعجز عنه الشيخ أبو الخير .

هكذا كانت صفات الشيخ صاحب ترجمتنا ، كان ينادي بأعلىٰ صوته : أنْ يا قوم قفوا أمام المعصية وقفوا أمام المنكر ؛ ليحمي الله البلاد والعباد بذلك .

وكان قدس سره كثير البر بمشايخه مع غزارة علمه في جميع العلوم الشرعية والفقهية وعلوم الحديث . وقد وصل بره بشيخه أن كان يخدم من ينتمي إليه ، ويقول : أنا عبد مملوك لسيدي ، ما رأيت نفسي أمامه حراً أبداً ، فلا أملك من نفسي وأمري شيئاً أمامه .

وكان رحيماً بالناس ، رحيماً بطلابه ومريديه ، حتىٰ إنه كان أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم بهم . إذ كان يتفقد جميع أحوالهم ، ويساعد المحتاج منهم ، ويعود المريض ، وكان يقدم لهم الهدايا في المناسبات كالزواج ، والحج ، والولادة . . . ؛ وذلك لتأليف القلوب .

كما كان شيخنا قدس سره قد وصل قمة الوفاء لجميع من أدلىٰ له بمعروف أو إحسان ، أو قدّم له كأساً من الماء .

وهذه الناحية لا بد لنا أن نقف عندها لنستفيد منها ، فمن أخلاق المسلم أن يكون وفياً . لذلك لا نحب لك أن تكون قريباً من الكافر ، ولا أن تقبل حسنة الكافر ؛ لأننا نخشىٰ من أن يدخل حبه قلبك ، وإذا دخل حب الكافر قلب المؤمن خرج حب الله تعالىٰ .

وهذه الصفة هي خلق من أخلاق السلف الصالح ، لا يوالون أعداء الله بل يوالون أحباب الله . وفاؤهم لا ينقطع لمن أحسن إليهم ولو بالقليل ، ولو بكأس ماء .

وهكذا صفات المسلم ، لا أن نرىٰ إنساناً يأكل من زادك ويشرب من مائك ويعيش عندك الشهور ثم يطعن بك ، فهذه ليست بصفات المؤمن الصادق لا أقول : الكامل بل المبتدئ .

فقف عند هذه النقطة طويلاً وانظر أين أنت منها ، وإياك أن توالي أعداء الله وأعداء الشيخ .

وكان قدس سره - بدون مبالغة في عباراتي - البحر الخضم الذي لا يُدْرَك ساحله ، والميدان الفسيح الذي لا يُعرف أوله من آخره ، والروض الأنيق الذي تتفتح أزهاره ، معطاء إما بيده ، أو بلسانه ، أو بإشاراته ، أو ببسمته العريضة علىٰ الأقل .

وكان قد وهب نفسه للعلم ، وحبس نفسه عليه في مجال الشريعة والحقيقة ، لا يشغله شاغل ، ولا يصده صاد عما هو عليه . وله في ذلك حوادث كثيرة وذكريات فيها عبر وعظات ، ما سمعنا أنه انشغل عن العلم والدرس بشيء من أمور الدنيا . إذا تأخر عن الدرس لسبب من الأسباب وكانت صدفة تراه معكراً طوال النهار وكأن الدنيا بحذافيرها فاتته ،

ويعتبر نفسه قد تأخر عن مركبة الإيمان أو قصّر بدفعها إلىٰ الأمام .

ومع الأسف اليوم يترك طلاب العلم الدروس شهوراً وأكثر وكأن الأمور عادية ، يعتقدون أنهم يكتفون وحدهم بدون أن يرجعوا للشيخ ، فإذا فتحوا الكتاب فهموا عباراته ، ولا يعرفون بأن العلم نور ، ولا بد لهذا النور من أن يؤخذ عن الشيخ تلقيناً من فمه وليس من الكتاب .

فكان شيخنا حريصاً علىٰ درسه ، حريصاً علىٰ الجماعة ، تتآلف القلوب وتجتمع علىٰ حب الله وحب الرسول وحب الإسلام . وكان يضحي من أجل ذلك كثيراً ، ويتحمل في هذا المجال من الآخرين .

كان كل يوم يستيقظ قبل الفجر بساعة ونصف ، فيصلي صلاة التسابيح وما استطاع من النوافل ، ثم يمكث مستقبل القبلة يستغفر الله حتىٰ يطلع الفجر ، فيصلي جماعة في جامع التوبة ، ثم يقرأ الأوراد المعهودة وبعدها جزءاً من القرآن الكريم ، ثم يبدأ بإلقاء الدرس إلىٰ ما بعد طلوع الشمس ، فيصلي الضحىٰ ثم يقرأ دروساً خاصة بالطلاب في الحديث ، ومصطلح الحديث ، والتفسير ، والأصول ، والفقه ، والمنطق ، مع جميع تفرعات اللغة العربية وآدابها ومعجماتها ، بالإضافة إلىٰ علم التصوف ، والأخلاق ، والسيرة النبوية الشريفة إلىٰ غير ذلك . حتىٰ إذا دخل وقت الظهر صلىٰ الظهر مع نوافله ، ثم يذهب إلىٰ البيت للغداء والقيلولة ، وأحياناً يقرأ درساً بعد الظهر ، وله درس كذلك بعد العصر وبعد العشاء أيضاً .

وكان قدس سره يذوب تماماً أمام شيخه مع أنه برق أكثر منه في البلد ، وكان علماً ومرجعاً للعلماء والفضلاء .

وكان قدس سره مشهوداً له بحسن الإلقاء ، وبالأسلوب الفذ السلس في تعليم الآخرين وتفهيمهم . فكان يؤثر على القلوب ، ويَشعر مَن جالسه أنه مأخوذ به ومتجاوب معه ؛ لأن السامع والتلميذ يسمع من إنسان يفعل ما يقول ويترجم قوله بعمله ، فيأخذ الكلام من لسانه وعينه وحركاته وجميع تصرفاته .

وكان شيخنا يتقن اللغة التركية ، والفارسية ، والكردية ، والفرنسية ، وكان يُلِمُّ قليلاً باللغة الإنجليزية . كما رأيناه في بعض الأوقات يتطرق في دروسه لمباحث طبية وفلكية ، وكان يفسر المنامات ، وكان قوياً في الرياضيات والجبر والفيزياء .

وكان قدس سره يعمل على إنماء الروح الإسلامية في النفوس والقلوب في شتى المجالات .

كما كان يحاول أن ينشر أسرار الكتاب المجيد ، وسائر ما جاءت به الشريعة السمحة الغراء بين طبقات الأمة ؛ ليُخَرِّجَ علماء أجلاء يخلصون العمل لله تعالى ، ويقومون بالدعوة إليه ، ويشرحون للناس أسرار دينهم الحنيف . وذلك لتشعر هذه الأمة بوحدتها الكاملة وعزتها الشاملة ، ولتقوم ولتهب إلى سيرتها الأولى علواً ورقياً ومجداً وتقدماً .

من كلامه ومآثره :

❁ كان قدس سره يقول :

"إن الأحوال التي تأتي عفواً تذهب عفواً إنْ لم يحافظ صاحب الحال عليها" .

وهـذا وضـع أحـب أن تقـف عنـده كثيراً ، وبوقوفـك عنـده تسـتفيد من هذه النفحات .

فالحال لا يستقر بصاحبه بل يأتي ويذهب ، يأتي بنفحة من النفحات ثم يذهب بهذه النفحة إذا لم ينتبه إليها صاحب الحال ولم يستقر عندهـا ، فعليه أن يحافظ عليها لينتقـل مـن الحـال إلىٰ المقـام . فـإذا أصبـح الحـال مقاماً رقىٰ صاحب الأحوال إلىٰ صاحب مقامات ، والمقامات كثيرة .

المقام كصاحب البيت الذي يضع أساسات حديد وإسمنت في الأرض راسـخة لا تزيلـها الريـاح ، أمـا الحـال فكالورقـة في هـواء عـاصف فإنـها لا تسـتقر بـدون تثبيـت . فـإذا جـاء الحـال وتغلـب عليـه صاحبـه انتقـل إلىٰ مقام ، وإذا بقي حالاً لا يستقر ولا ينتفـع صاحبـه كصـاحب المقـام ، وقد يذهب العمر بكامله في حال .

صاحب المقام تـزول الجبـال ولا يـزول مـا في ذهنـه وقلبـه ، فـإذا وصـل إلىٰ مقام معين حافظ عليه ، ثم أصبـح ذا حـال في أمـور أخـرىٰ ذهابـاً وإيابـاً حتىٰ يصل إلىٰ المقام الثاني فيستقر فيه ، ثم يرتفـع إلىٰ حـال ثـالث يـأخذ بـه ويتردد به حسب باعه وذراعـه ، يـأتي ويذهـب حتـىٰ يسـتقر في مقـام ثـالث ، ثم يقوم في حال رابع يذهب ويأتي حتىٰ يستقر في مقام رابـع ، ثـم . . . حتـىٰ يصل إلىٰ المقام العاشر ، وهكذا حتىٰ يصل إلىٰ درجة الفناء ثم البقاء .

أما صاحب الحال فهو غـير مسـتقر ، اليـوم محـب وغـداً لا يكـون محباً ، اليوم مشتاق وغداً غير مشتاق ، اليوم مع تفاعل كامل وغداً غير ذلك ، فهذا متعب . إنما المقام يبقىٰ معك ، حتىٰ لو بقيـت في مقـامك الأول فإنه يريح .

صاحب الحال مَثَله كمَثَل الطيور المهاجرة تذهب من بلد لآخر ، فإذا استقرت الطيور في بلد كانت مقيمة في ذلك البلد ، وهكذا صاحب الحال .

❁ وقال قدس سره :

"المراد بالذكر طرد الغفلة عن القلب ، فإذا لم تكن غافلاً فأنت في ذكر وإن سكت" .

فالمراد أن تكون مع الله وأنت ساكت ، أن تراه بسمعك وببصرك وبكل شيء بمخيلتك ، فتكون في حضور مستمر ، وهذا هو المراد بالذكر الخفي .

❁ وقال قدس سره :

"لو خرج قلب العارف إلىٰ الظاهر لأخفىٰ نور الشمس بنوره" .

نعم ، لو أظهر الله للدنيا نور قلوب العارفين لغابت شمس الدنيا ؛ لأنه إذا ظهرت شموس الآخرة غابت شمس الدنيا ، فنور قلوب العارفين أقوىٰ إنارة من نور القمرين .

فكن مع العارف واستغل وجوده قبل فوات الأوان ، قبل أن يأتي يوم لا ترىٰ فيه عارفاً فتقول : ليتني وليت الواحد منا استغل ساعته تلك مع العارف .

❁ وقال قدس سره :

"الذكر يكفر الذنوب ، ويحرق الطعام ، ويخفف البدن" .

فلو كانت عليك قناطير الذنوب لأذهبها الله ببركة الذكر .

ولفظة يحرق الطعام هي بلغة طبية ؛ لأن الذكر يتفاعل بالجسم ، فبه تتفاعل الروح والجسم كله . وهذا التفاعل يستغرق الطاقة ، فإذا

احترق الطعام شعر الإنسان بنشاط في جسمه ، فالذي يحمل مائة كجم ثم يأخذ هـذا الـوزن ويلقيـه علـىٰ الأرض ، فإنـه يشـعـر بخفـة ونشـاط في جسـمه . وهكـذا الذاكـر تذهـب ذنوبـه والطعـام يحـترق ، فيشـعـر بالنشاط الروحي والجسمي .

وإنـي أعـرف أناسـاً يستطيعون أن يعيشـوا بـدون طعـام فـترات ، ولكنـهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدون ذكر حيث قلوبهم تموت بذلك ، وإذا ماتت قلوبهم شعروا بآلام لا يستطيع المرء أن يصفها ، وكأنما انحطوا مـن أعلـىٰ آفـاق السـماء إلىٰ الأرض . بدون طعام فقد روّضوا أنفسهم علىٰ ذلك ، أما بـدون ذكـر فيصيبـهم شبه جنون ؛ لأن الذكر طعامهم ونورهـم وهـو الشاحن لهم ، ومن ذاق عرف .

وأضيف هنا :

الذكر يقرب من الله علام الغيوب ، ويطرد ويغيظ الشيطان ، ويقربـك من الذاكرين ، وينير الوجه والبدن .

الذكر نتيجة العلم ، وهو ثمرة الشجرة التي تجدها في صحيفتك يوم القيامة .

۞ وقال الشيخ أبو الخير قدس سره :

"إن الأمـة محفوظـة مـن عدوهـا الكـافر طالما فيـها مـن يـأمر بـالمعروف وينهىٰ عن المنكر" .

وأقول : وما وصلت الأمة إلىٰ ما وصلت إليه من الانحلال والانحطـاط والتدهور واللامبالاة إلا بإماتة هذه الروح في قلوب الناس المؤمنين .

۞ وقال قدس سره :

"مَن لا ينفعك حاله لا ينفعك قاله" .

۞ وقال :

"أحب أن يتعاطىٰ المريد أسباب الرزق وإن كان غير محتاج" .

❁ وقال :

"إذا وقع تاج من السماء فإنه لا يقع إلا على رأس رجل لا يرىٰ نفسه أهلاً له" .

أي يقول : طالب الولاية لا يولى .

❁ وقال :

"لو أدرك العقل جميع أفعال الله تعالىٰ لكان نقصاً في الألوهية" .

❁ وقال قدس سره لمريد سأله عن حاله بأنه لا يشعر بلذة أذكاره وإن كانت كثيرة :

"إن عيون الفناء تمنع لذة الذكر" .

ولفظة اللذة أقول : تجعله فوق اللذة .

فيقول الشيخ : لذة اللذة تغيب الإنسان عن اللذة ، والذي وصل إلى الفناء أصبح في مرتبة لا يشعر باللذة ، فالفاني لا يشعر بشيء حتى يعود إلى البقاء أو يصل إلى البقاء ، فإنه يتلذذ بذلك ثم يعود إلى الابتداء ، ويذكر بقلبه وجسمه وكله ، فيذوق طعم ولذة الذكر .

ولو سأل هذا السؤال رجل غافل لأقول : إن المعاصي تمنع وتحجب عنه لذة الذكر ؛ لأن المعاصي ضباب ، والضباب يحول دون الوصول إلى القلب .

وفاته :

مرض الشيخ قدس سره قبل موته بأيام ، وكان أيام مرضه يكثر من ذكر الله تعالىٰ لا يفتر لسانه أبداً ، وكما نعتقد جوارحه كانت ذاكرة أيضاً . فإذا دخل المرء عليه لا يستطيع أن يكلمه بأي حديث لأنه مشغول بذكر الله ، وكأنه يعرف أنه مسافر ومغادر الدنيا .

وكان قدس سره يطلب من إخوانه وقت النزاع الأخير ملازمة السنة ، والابتعاد عن البدع المنكرة ، ويحثهم دائماً على ذلك .

وقد لبى نداء ربه تبارك وتعالى في داره الكائنة في حي العُقيبة تحت المئذنة ليلة السبت السابع عشرة من رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، الموافق الرابع من آذار لسنة إحدى وستين وتسعمائة وألف من الميلاد .

فأغمض عينيه وهو مشتاق للقاء ربه ، وقد حفته الملائكة بأجنحتها ، ورقت بروحه للملأ الأعلى قرير العين مرضياً عنه بعد أن أدى ما عليه من واجبات ، قدس الله سره العزيز .

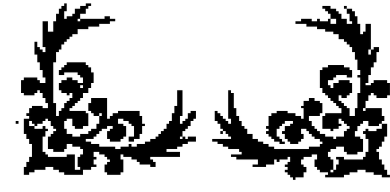
وهكذا شيوخ السلسلة هم عبيد الله ، إنما هم في القلب بمكانتهم إلى سيدي رسول الله ﷺ . عرفوا أنفسهم فعرفوا ربهم تبارك وتعالى ، ووصلوا إلى قمة الكمال البشري . وكانوا لا يقصدون في جميع أعمالهم إلا الله لا رياء ولا سمعة ، إنما أعمالهم كلها لله وهم لله ، فما حصل لهم من الخير وما أُجري على أيديهم هو من الله تبارك وتعالى ، لا يجدون لأنفسهم حظاً أو ارتفاعاً في ذلك .

وهكذا نستفيد ونتعلم من تراجمهم ، من مناقبهم ، من أقوالهم وأفعالهم . فنحن بحاجة لهم حال حياتهم وبعد موتهم ، إذا ماتت أجسادهم فقلوبهم حية ، وأرواحهم معنا نستفيد منها .

وفي الحقيقة إن سيرة هؤلاء الرجال طويلة كطول جهادهم ، إنما قصدت أن أضع لمسات على هامش سيرهم لنكون معهم ؛ وليعرف المريد بأنه مرتبط مع شيوخ كرام في الشريعة والحقيقة ، ومن لم تكفه الإشارة فإنه لا تنفعه العبارة .

فهنيئاً لمن كان موصولاً ، وسألنا الله لمن كان مبتوراً أن يصله به .

نسأل الله تعالىٰ أن يكرمنا وإخواننا وأحبابنا ببركة مشايخنا وساداتنا بالإيمان الكامل والعناية التامة ، وأن يجعلنا ممن إذا قرأ تراجمهم تأثر واتصف بهم ؛ ليكون معهم ومنهم إن شاء الله تعالىٰ .



الفصل الثاني

أصول
وآداب وقواعد
الطريقة النقشبندية العلية

في نهاية سردنا لتراجم رجال السلسلة النقشبندية ، أحببت أن أضع لك أخي القارئ خطوطاً عريضة :

كيف يبدأ المريد ؟ وما يُطلب منه في البداية ؟ وكيف يبايع ؟ وكيف ينتقل من مقام إلىٰ مقام ؟

الخطرة السماوية

إن أول ما يتنبه إليه العبد لطلب الحق ﷻ وسلوك طريقه خطرةٌ سماوية من الله تبارك وتعالىٰ ، وتوفيق إلهي خاص .

وتسمىٰ هذه الحالة عند القوم [**تجلياً إرادياً**] ، بمعنىٰ أن الحق تبارك وتعالىٰ يتجلىٰ علىٰ العبد بصفة الإرادة .

ولا يشترط في هذه الخطرة أو الجذبة الغيبوبة ، إنما هي صحو بعد غفلة .

وتلك نعمة عظيمة يجب علىٰ صاحبها أن يقوم بحقها ، وأن يجتهد في حفظها حيث هي سريعة الزوال . وإن طريقة حفظها أن يقوم العبد بتسليم نفسه إلىٰ عارف بالله تعالىٰ مجرب ، كامل مكمل ، عالم بالشريعة والحقيقة ، فإن لم يفعل فقد ضيّعها .

وغالباً فإن الذي تأتيه الخطرة السماوية أو العناية الربانية حالاً يُدَلُّ علىٰ العارف بالله تعالىٰ ، حيث يقوم بتربيته التربية التي يحبها الله ورسوله . وهذا ما حكمت به المشاهدة ، وشهدت به التجارب من زمان السلف الصالح إلىٰ زماننا هذا قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل .

وإن أول ما يفعله العارف بالله تعالىٰ لصاحب الخطرة أنْ يُحَمِّله سلاح الشريعة ليدافع عن نفسه ، وليدافع عن الجوهر المكنون .

وإن معرفة هذا الكامل المكمل الواصل لا تكون هكذا عفوياً ، فأنت إذا أردت أن تشتري شيئاً من حطام الدنيا سواء كان ملبوساً أو مأكولاً تبحث عنه في ثلاثين دكاناً لتشتريه ، فما بالك الآن وأنت تريد أن تختار من يدلك علىٰ الله تعالىٰ ؟ تريد أن تختار الموجه المربي والأبَ الذي سوف تضع كل أمورك بين يديه ، تضع ماضيك وحاضرك ومستقبلك ؟ فلا بد من السؤال والبحث الجاد لتجد العارف الكامل .

ومعرفته تكون بالاستدلال بظاهر حاله مِنَ استقامةٍ في الشريعة ، واتباعٍ للسنة النبوية الشريفة ، وتَمكنٍ من طريق السادة الصوفية . حيث الشيخ الكامل هو الذي تحقق بالعبودية ، ومَن ظهرت فيه الحرية بعد أن تحقق بالعبودية تمت له الخلافة ، فهو المربي الكامل الذي إذا رؤي ذُكر الله تبارك وتعالىٰ ، حيث نور قلبه مشرق علىٰ وجهه .

فإذا التقىٰ بالشيخ العارف تمسك به ، وخاف عليه أكثر مما يخاف علىٰ نفسه ؛ لأنه يَعتبرُ نفسه في بحر عميق وهو لا يحسن السباحة ، والعارف هو الغواص الذي يحمله علىٰ كتفيه في هذا البحر الخضم ، فإذا أصيب الغواص بعطب مات هو لأنه سيغرق .

فلهذا عليه بالتسليم التام الصحيح قولاً وفعلاً لينال الخيرات ، ولا بُدَّ له من أن يسلم له مقاليد أموره ، وأن يبايعه علىٰ أن يكون مريداً صادقاً عنده في الظاهر والباطن . في الظاهر يمتثل أمره ، وفي الباطن لا يعترض عليه بقليل أو كثير ، ولو رأىٰ عيباً قال : هذا العيب مني .

ولا ترىٰ العيب إلا فيك معتقداً ... عيباً بدا بيِّناً لكنه استترا

ولا بد للمريد أن يلتزم صحبة الشيخ دائماً برعاية الآداب الظاهرية والباطنية التي ستأتي معنا إن شاء الله تعالىٰ ، معتقداً أنه هو الباب الذي يدخل منه علىٰ عالَمِ الحقيقةِ ، كما يعتقد أن غيره من الأبواب سُدَّ دونه .

وإن عالَم الحقيقة عالَم مستقل بعيد عن هذا العالم المليء بالأقذار ، والهموم والغموم ، والأوهام . عالَمُ الحقيقة هو عالم النظافة ، عالَم الطهر ، عالَم النقاء . وهذا العالَم لن تستطيع أن تصل إليه وحدك بل لا بد لك من دليل ، والدليلُ هو الشيخ وهو البابُ ، ويجب أن يبقىٰ مفتوحاً لتنطلق في طريق الحقيقة الطويل ، فمتىٰ التزمتَ مع الشيخ عليك أن تلتزم معه حتىٰ الموت .



آداب المريد مع شيخه

إن آداب المريد التي يجب أن يتصف بها مع شيخه كثيرة ، نذكر منها ما يلي :

١- أن يحترم شيخه ويتواضع له ، ويلتزم معه الوقار والتأدب والتعظيم وإن كان أصغر منه سناً .

٢- أن يعتقد بكمال أهلية شيخه ، وأنه راجح على أقرانه من أبناء زمانه ، فلا يكون التسليم وأخذ العلم والمعرفة إلا من شيخه ، أو مَن أذن له الأخذ منه .

٣- أن لا يشبع من طول صحبته ، بل أن يشعر بعكس ذلك .

٤- أن ينقاد له تماماً في الظاهر والباطن ، وأن يشاوره في جميع الأمور الدنيوية الصغيرة والكبيرة والأخروية ، وذلك لصالحه .

٥- أن يجلس بين يديه جلسة المتعلم لا المعلم بقمة الأدب كما علّمنا سيدنا جبريل عندما جلس أمام النبي ﷺ .

٦- أن لا يشير بيده ، وأن لا يغمز بعينه أحداً بحضرته ، ولا ينظر للساعة ، ولا يعبث بالخاتم أو بشيء ؛ لأن ذلك يعني تضجره من الشيخ ، وقد يكون ذلك طرداً له .

٧- أن يتحرىٰ رضا الشيخ وإن خالف رضا نفسه ، فأوامرُ الشيخِ هي الجميلة ، وهي التي تُطبق ، وهو مُسَلِّمٌ تسليماً كاملاً دون تفكير .

٨- أن لا يدخل علىٰ الشيخ بغير إذن منه ، فإذا أراد الدخول قرع الباب ، فإن أذن دخل .

٩- أن لا يفشي له سراً إلا إن طلب منه ذلك ، فيحافظ على أسرار الشيخ كحفاظه على روحه ، وشعارُهُ : [قلوب الأحرار قبور الأسرار] .

١٠- أن لا يذكر أحداً من أقران الشيخ في حضرته إن وُجد ، وأن لا يقول : قال فلان خلاف قوله .

١١- أن يَرُدَّ غِيبة الشيخ إن سمعها وقدر على ردها بقوة اليد ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع قام وغادر المجلس وقال : (اللهم هذا منكر لا أرضى به) ، فإن لم يستطع القيام فلينكر بقلبه .

١٢- إذا قَرُبَ المريدُ من حلقة الشيخ سلّم وخصّ الشيخ بذلك ، وأن يسلم عليه إذا انصرف .

١٣- أن لا يتخطى رقاب الناس بل يجلس حيث انتهى به المجلس في أي مكان راضياً ولو عند النعال ، إلا إن أشار إليه الشيخ أو أذن له بالتقدم .

١٤- أن لا يرفع صوته بحضرة الشيخ إلا بقدر الحاجة .

١٥- أن لا يلتفت بحضرته يميناً وشمالاً بلا حاجة ، بل يتوجه إلى الشيخ بكله ويصغي إليه .

١٦- أن لا يشاور أحداً بحضرة الشيخ بل يلازم الصمت ، حيث الصمت أساس الطريق عندنا وأصله .

١٧- إذا أراد الاجتماع بالشيخ وجاء إليه ولم يجده انتظره إن علم رضاه ، أما إن علم كراهيته لذلك مشى ورجع .

١٨- وإذا وَجَد الشيخ مشتغلاً بأمر أو مغلقاً بابه ، عليه أن ينتظره بدون ملل ، وأن يعتقد أن انتظاره عبادة لينال الثواب والمرتبة الرفيعة ، حيث الذي ينتظر الشيخ بملل فكأنه لم ينتظر ولم يأخذ أجراً .

١٩- أن يقوم للشيخ إذا جاء ، وكذلك لمن فضّله الشيخ لعلم أو صلاح أو سن أو ولاية .

٢٠- إذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار وبكىٰ ، ولزم بابه وأظهر أنه المذنب ، وأن العتاب عليه حتىٰ يرضىٰ . وهذه الحالة أنفع للمريد ديناً ودنيا ، وأبقىٰ لقلب شيخه عليه .

وهنا قال أهل الحقيقة : (من لم يصبر علىٰ ذل التعلم بقي عمره في عماية الجهالة ، ومن صبر عليه آل أمره إلىٰ عز الدنيا والآخرة) .

وقال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : (ذللت طالباً فعززت مطلوباً)(١) .

٢١- أن لا يرىٰ لنفسه حالاً ولا مقاماً بحضرة الشيخ وإن وصل إلىٰ مستويات رفيعة .

٢٢- أن لا يعترض علىٰ الشيخ في باطنه سواء في الحضر أو في السفر .

فعلىٰ المريد أن يوطن نفسه لقبول كل شيء من الشيخ ؛ لأن الذي يعرفه الشيخ لا يعرفه المريد ، فيكون بين يديه كالميت بين يدي المغسل .

٢٣- أن يكون مراده عين مراد الشيخ .

قال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به »(٢) . وكذلك الطالب لا يكون طالباً حتىٰ يكون هواه تبعاً لما أمره

---

(١) قال النجم : هذا لفظ مشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الدينوري بلفظ : [ذللت طالباً للعلم فعززت مطلوباً] .

(٢) هو حديث حسن صحيح خرّجه الحسن بن سفيان والحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، ورواه ابن عساكر وقال : هو حديث غريب ، وقال النسائي : ضعيف ، وقال ابن حجر : رجاله ثقات .

شيخه به ، حيث الوارث مسلكه مسلك النبي ﷺ .

٢٤- أن يكون جميع ما يأخذه من الشيخ كأنه يأخذه من النبي ﷺ ؛ لأنه تحقق بكمال المتابعة له ﷺ قولاً وفعلاً ، فإذا خالفه المريد في شيء في الظاهر أو الباطن فكأنه خالف النبي ﷺ .

٢٥- إن أشكل عليه شيء من أحوال الشيخ في الظاهر ، فعليه أن يذكر قصة سيدنا موسىٰ مع الخضر . وإن عجز عن التأويل فعليه أن يرجع إلى التسليم ، فإن الأمر دائر بين أن يَنسب النقصَ للشيخ أو لنفسه ، فنسبُهُ لنفسه أَوْلىٰ .

وفي هذا المقام كذلك يحاول المريد أن يتذكر كيف وزع النبي ﷺ الأموالَ يوم حنين علىٰ قريش دون الأنصار .

ولا يفوتني في هذا المجال إلا أن أقول :

إن كنتَ تقصد أن تحظىٰ بصحبته ... فاسلك علىٰ سنن طابت مساعيه
أَخْلِصْ ودادك صدقاً في محبته ... والزم ثرىٰ بابه واعكف بناديه
واستغرق العمر في آداب صحبته ... وحَصِّل الدر والياقوت مِن فيه
وابذل قواك وبادر في أوامره ... إلىٰ الوفاق وبالغ في مراضيه
وكن محب محبيه وناصره ... والزم عداوة مَن أضحىٰ يعاديه
وأَنْزِلِ الشيخ في أعلىٰ منازله ... واجعله قبلة تعظيم وتنزيه
ولست تفعل هذا إن ظننتَ به ... نقصاً ولا خللاً فيما يعانيه
أَعْدِمْ وجودك لا تشهد له أثراً ... ودعه يهدمه طوراً ويبنيه
ولا ترىٰ أبداً عنه غنىً فمتىٰ ... رأيت عنه غنىً تخشىٰ تناسيه
إنَّ اعتقادك إنْ لم تأت غايتَه ... فيه فيوشك أن تخفىٰ مباديه

وغاية الأمر فيه أن تراه على ... نهج الكمال وأن الله هاديه
ومن أمارة هذا أن تُؤَوِّل ما ... أشكل عليك إظهاراً لخافيه
والمرء إن يعتقد شيئاً وليس كما ... يظنه لم يخب فالله يعطيه
وليس ينفَعُ قطبُ الوقت ذا خلل ... في الاعتقاد ولا مَن لا يواليه
إلا إذا سبقت للعبد سابقة ... يعود مِن بعد هذا مِن مواليه
ونظرةٌ منه إن صحّت إليه ... سبيل ود بإذن الله تغنيه
والناس عبدان مجذوبٌ وسالكُ ما ... دُعِيَ إليه بتعليم وتنبيه

وقال الغوث أبو مدين رحمه الله :

ما لَذّة العيش إلا صحبة الفقرا ... هم السلاطين والسادات والأُمَرا
فاصحبهم وتأدب في مجالسهم ... وخَلِّ حظك مهما قدّموك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائماً معهم ... واعلم بأن الرضا يخصّ مَن حضرا
ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل ... لا علم عندي وكن بالجهل مستترا
ولا ترىٰ العيب إلا فيك معتقداً ... عيباً بدا بَيِّناً لكنه استترا
وحُطَّ رأسك واستغفر بلا سبب ... وقم على قدم الإنصاف معتذرا
وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم ... وجه اعتذارك عما فيك منك جرىٰ
وقل عبيدكمُ أَوْلىٰ بصفحكمُ ... فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا
هم بالتفضل أَوْلىٰ وهو شيمتهم ... فلا تخف دَرَكاً منهم ولا ضررا
وبالتَّفَتِّي على الإخوان جُدْ أبداً ... حساً ومعنىٰ وغُضَّ الطرف إن عثرا
وراقب الشيخ في أحواله فعسىٰ ... يُرىٰ عليك مِن استحسانه أثرا
وقَدِّمِ الجِدَّ وانهض عند خدمته ... عساه يرضىٰ وحاذر أن تكن ضجرا

ففي رضاه رضا الباري وطاعته ... يرضى عليك وكن من تركها حذرا
واعلم بأن طريق القوم دارسة ... وحال مَن يدّعيها اليوم كيف ترى
مَن لي وأنّى لمثلي أن يزاحمهم ... على موارد لم ألقَ بها كَدَرا
أحبهم وأداريهم وأوثرهم ... بمهجتي وخصوصاً منهمُ نفرا
قوم كرام السجايا حيثما نزلوا ... يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طُرُفاً ... حُسن التألف منهم راقني نظرا
هم أهل ودي وأحبابي الذين همُ ... ممن يجر ذيول العز مفتخرا
لا زال شملي بهم في الله مجتمعاً ... وذنبنا فيه مغفوراً ومغتفرا
ثم الصلاة على المختار سيدنا ... محمد خير من أوفى ومن نذرا



أول مقامات السلوك التوبة

إن أول ما يلقن الشيخُ الكامل المريدَ بعد أن يسلم نفسه تماماً التوبة ، فإنها أول المقامات وأساس السلوك . فلا بد للإنسان عند دخوله إلىٰ الحضرة الإلهية من استعداد روحه لتقبل الأنوار ، ولا تَتَقَبَّل الروحُ الأنوارَ إلا إذا كانت نظيفة مغسولة .

وكيفيةُ تلقينِ التوبة كما يلي :

١- أن يُظهر الندم والخلوص علىٰ ما فرط منه فيما سبق ، وأن يندم كثيراً علىٰ الوقت الذي مضىٰ في معصية الله تعالىٰ ندماً يتأثر به ، فيتصور جميع ذنوبه التي عرفها والتي لا يعرفها أمامه .

٢- أن يرد المظالم إلىٰ أهلها وذلك بقدر الإمكان ، وأن يدعو لصاحب الحق بالخير إن لم يمكن غير ذلك ، وأن ينوي أن يرد هذه الحقوق عند الاستطاعة .

والمظالم كثيرة ، وكيفيةُ ردها تختلف باختلافها :

❁ فإن كانت المظالم حسية ردها .

❁ وإن كان ظلم إنساناً ولا يعرفه دعا له بالخير .

❁ وإن كانت المظلمة غيبة أو نميمة أو زوراً ، إن استطاع أن يستسمحه فعل ، وإن لم يستطع كأن كان مسافراً أو غائباً دعا له بالخير .

٣- أن يقوم بقضاء حقوق الله تعالىٰ إن كان عليه شيء منها : كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، . . . وغير ذلك من أمور الدين . هذا مع الندم والاستغفار علىٰ ما لا يمكن قضاؤه : كشرب الخمر والزنا .

٤- أن يعزم بقلبه علىٰ أن لا يعود إلىٰ الذنوب أبداً .

وإن من أهم التوبة تصحيح النية فهي الأساس ، وبها يحصل تصحيح البداية ، وبتصحيح البداية يحصل تصحيح النهاية . حيث إن العامة من علماء هذه الطريقة قد اتفقوا علىٰ أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات ، كما أن الأبنية لا تقوم إلا علىٰ الأساس القوي .

قال تعالىٰ في محكم كتابه العزيز : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] ، والمقصود هنا بالإخلاص النية .

وقال النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ »[١] .

وإن تصحيح البدايات يعني إقامةَ الأمر علىٰ مشاهدة الإخلاص ، ومتابعة السنة المطهرة ، وتعظيم النهي علىٰ مشاهدة الخوف ، ورعاية الحرمة والشفقة علىٰ المسلمين ببذل النصيحة وكف الأذىٰ ، ومجانبة كل صاحبٍ يُفسدُ الوقت ، وكلِ سببٍ يُفرق القلب .

وبتعبير آخر تصحيح النية يكون بأن تجعل همك مصروفاً بأكمله للآخرة دون التفات ، وأن لا تتوانىٰ ولا تتساهل مع نفسك ، وأن تنفذ أوامر الشيخ بدون تفكير .

وعليك أن تركز ذهنك في مشاهدة الإخلاص ، وإياك أن يغريك إبليس ، وأن تقصد بصلاتك وبذكرك الناس ، بل اقصد رب الناس ، وهنا

---

(١) حديث متفق علىٰ صحته رواه الشيخان البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ، وكذا غيرهما من أصحاب الكتب المعتمدة كأبي داود وابن ماجة . كما روي الحديث عن نحو سبعة عشر صحابياً لكنه لم يصح إلا من طريق عمر ، وقد تفرد بروايته يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب .

يجب أن تكون قاسياً مع نفسك .

في البداية حيث تأتيك خطرات كثيرة وبوادر تدعوك لأن تكون ظاهراً ليراك الناس ، فحاول أن يكون عملك خفياً عن الناس ، وإياك مِن الشرك الأصغر ، فهو أدق من دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء ، وقل دائماً : (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم وأنت علام الغيوب) . أما الكامل فإنه لا يبالي ؛ لأنه قوي وواصل فلا يلتفت إلى الغير .

وقال بعض العارفين : "أول مقامات التوبة الانتباه ، والثاني هجران رفقاء السوء . فإنهم يمنعون عن التوبة والاستقامةِ عليها ، ويوقعون التائب في المعاصي قولاً وفعلاً وحالاً ، ويضيعون بضاعة انتباهه لكونها ضعيفة في أول أمره" .

فعلى المبتدي أن يبتعد عن رفقاء السوء ؛ لأنهم قطاع طرق يقطعون عليه طريق الآخرة ، حيث هم سهم إبليس يضيعون الوقت ، والوقتُ عندنا محترم جداً . فعليك أن تبدلهم برفقاء صلحاء ، يدلك على الله حالهم ، ويذكرك في الله مقالهم .

وقال سيدنا الغوث أبو مدين المغربي قدس سره : "من علامات صدق المريد فراره من الخلق" .

علماً أن هذه الصفة كانت حالة الرسول ﷺ ، وإن خروجه إلى غار حراء وانقطاعه عن الناس لأعظم دليل على ذلك .

وإن من صحة التوبة كذلك أن يقاطع المريد الذين لا يعتقدون في مشايخ الطريقة ، خصوصاً الذين يتكلمون في شيخه ، أو الذين

لا يُحِبُّهُ الشيخ أن يجالسهم حيث مجالستهم سم قاتل .

ونعلم من ذلك أن من خالف ذلك لم يدخل في الطريقة عملياً وإن وصل في الظاهر إلى آخر المقامات ، وحفظ أسماءها دون أن يضع قدمه فيها .



سلوك طريق الحق سبحانه تعالى

إن طرق السلوك ثلاثة :

١- طريق الصحبة .

٢- طريق الذكر .

٣- طريق المراقبة .

وكل ذلك موصل بنفسه برعاية شروطه من غير توقف أحدها على الآخر .

ولا يخفى على العارف أن المراقبة أسهل وأشد إيصالاً إلى المقصود والمطلوب من طريق الصحبة وطريق الذكر .

١- طريق الصحبة

إن الصحبة على نوعين : صحبةٌ بحسب الظاهر ، وصحبةٌ بحسب الباطن .

ولا بد من دوام هذه الصحبة بنوعيها ، وإن دوامها بحسب الظاهر متعسر ، وأما بحسب الباطن فلا تنقطع أصلاً لمن راعاها .

١- صحبةٌ بحسب الظاهر :

وهي أن يلتزم المريد صحبة شيخه الذي أخذ عنه الطريقة دائماً برعاية الآداب الظاهرية والباطنية التي مرت معنا ، وأن ينفي وجوده بأنه لا شيء محض ، وليس عنده شيء من الكمالات ، ومن غير التفات

إلىٰ غيره من المشايخ ، معتقداً أنه الباب الذي يدخل منه إلىٰ عـالم الحقيقـة ، وأن غيره من الأبواب قد سُدَّ دونه . عندَ ذلك ينعكسُ مـا في قلـب شـيخه إلىٰ قلبه بمجاذبة المحبة ، وتأخذُ أنوار المشاهدة الإلهية في اللمعان في قلبه .

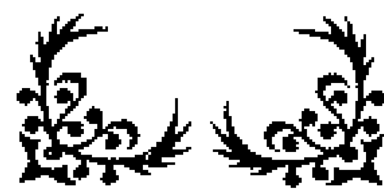
٢- صحبةٌ بحسب الباطن :

وهذه هي الرابطة التي هي ارتباط المريـد بالشـيخ بحسـب المحبـة ، ويكون الحب بكثرة التسليم من الجوارح الظاهرة ، بل مـن دقـائق جسـمه الباطنية . وبحسب العلاقة المعنوية الروحانية ، فيستحضر المريـد صـورة شيخه في خياله ، ويلاحظ معيته المعنويـة الروحانيـة في جميـع حالاتـه ، وذلك برعاية حالة الأدب وغاية التعظيم .

وهنا يتألف قلب المريـد بقلـب شـيخه حيـث هـو النعمـة العظمـىٰ ، ويكون قد ربط قلبه بواحد ممن رُبط بالحضرة الإلهية . وبحسـب اسـتعداد المريد تتعمق هذه الرابطة .

والدليل عليها قوله تعالىٰ : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف : ١٤] . أي قويناهـا بالصبر علـىٰ هجـران الأوطـان وهجـران الذيـن يخـالفون سـبيل الآخـرة ، وبالفرار بالدين إلىٰ بعض الغـيران ، وجسـرناهم علـىٰ القيـام بكلمـة الحـق . وكل من صبر علىٰ شيء وأمْر فقد ربط نفسه عليه .

وَتُفسرُ الرابطةُ كذلك أنـها عبـارة عـن توسـل المريـد بشـيخه إلىٰ الله تبارك وتعـالىٰ ، والله هـو القـائل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة : ٣٥] . والوسيلة تعم كل ما يَصْلُح ليُتشفع به من طاعـة ، أو عبد صالح من أولياء الله تعالىٰ .



٢- طريق الذكر

لا بد لطالب الآخرة بعد هذه الأمور السابقة من الوقوف أمام حقيقة ألا وهي الذكر ، فهو من أعظم أركان الطريق عندنا وأهمها ، حيثُ المقصودُ مِن الطريق تخليصُ القلبِ من التعلق بما سوىٰ الله تبارك وتعالىٰ . وهو أعظمها في ذلك لأن كثرته توجب استيلاء محبة المذكور ﷻ علىٰ القلب بحيث لا يبقىٰ معها محبةُ السوىٰ ، وجميعُ الأخلاقِ الفاضلة والصفات الحميدة تنشأ عنها .

وإن الذي دخل عالم الذكر يكون قد دخل الطريق العملي للوصول إلىٰ الله تعالىٰ .

ولقد ورد الحث علىٰ الذكر في القرآن الكريم ؛ والسنة المطهرة ، وكلام الأئمة ، وأقوال السلف والخلف .

فأما ما ورد في القرآن فهو أكثر من أن يذكر ، من ذلك :

قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، فإذا أردتَ أن يكون اسمك في الملأ الأعلىٰ فاذكر الله تعالىٰ .

وقوله سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وقوله جل من قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٤١] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

وأما الأحاديث الواردة في هذا المجال فكثيرة ، منها :

ما روي أن الله تبارك وتعالىٰ يقولُ : « أيما عبدٍ اطلعتُ علىٰ قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري ، توليت سياسته وكنت جليسه

ومحادثه وأنيسه في كل أموره»[1] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل يوم القيامة : ليعلم أهلُ الجمع مَن أهلُ الكرمِ . فقيل : ومَن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر»[2] .

وقال ﷺ : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، و خير لكم من إنفاق الذهب والورِق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى ، قال : ذكر الله تعالى»[3] .

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تبارك وتعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفوراً لكم ، قد بُدِّلَتْ سيئاتكم حسنات»[4] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، وجبن عن العدو أن يجاهده ، فليكثر ذكر الله»[5] .

وعن أم أنس أنها قالت : يا رسول الله أوصني ، فقال : «اهجري

---

(١) ذكر هذا الحديث صاحب المواهب السرمدية .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والبيهقي وغيرهم .

(٣) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن والترمذي والحاكم وابن ماجة والبيهقي عن أبي الدرداء ، ورواه أحمد أيضاً من حديث معاذ بإسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً .

(٤) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني .

(٥) رواه البزار والطبراني والبيهقي .

المعاصي فإنها أفضل الهجرة ، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد ، وأكثري من ذكر الله ، فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره»[1] .

وأما كلمات الأكابر في هذا المجال فكثيرة جداً ، منها :

* يقول الحسن البصري :

"الذكرُ ذكران : ذكر القلب وهو ذكر الله عزّ وجلّ بين نفسك وبين الله ، وذكر الروح" .

* وقال الفضيل رحمه الله تعالى :

"بلغنا أن الله تبارك وتعالى قال : عبدي ، اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما[2]" .

ومن المعلوم أن من نطق باسم شيء ، أو أخطره في قلبه واستحضره في سره ، يقال : إنه ذكره . إلا أن إطلاق الذكر على حضور الشيء في النفس وخطوره بالقلب إطلاق حقيقي ، وأما على النطق بالاسم لساناً فبطريق المجاز المشهور .

ويدلك على أن الخطور يسمى ذكراً ، قوله ﷺ : «مَن نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها»[3] . والظاهر أنه ليس معنى الحديث فليصلها إذا نطق لسانه باسمها ، بل معناه أنه يجب عليه قضاؤها متى تذكّرها قلبه .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسناد جيد .

(٢) غريب من حديث الحسن عن أبي هريرة ، رواه أبو نعيم في الحلية .

(٣) حديث متفق عليه أخرجه مسلم عن أنس بن مالك وعن أبي هريرة أيضاً ، ورواه البخاري والنسائي وابن ماجة وأبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح ، ولفظ أبي داود : [فليصلها حين يذكرها] ، وزاد في الصحيحين : [لا كفارة لها إلا ذلك] .

فلما عَبَّر عليه الصلاة والسلام عن هذا المعنى بقوله : (ذكرها) ، دل على أن خطور الشيء بالبال يكون ذكراً له قطعاً .

قال ربنا تعالى : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .





أقسام الذكر

إذا علمتَ ما سبق بيانه وفضلُه ، وَصَلْتَ إلىٰ أن ذكر الله تبارك وتعالىٰ ليس قاصراً علىٰ ذكر اللسان فقط ، بل الذكر عندنا له أقسام ، وفي كلِ قسم فضله ، إلا أن بعضها أفضلُ وأرقىٰ من البعض الآخر .

* القسم الأول :

[هو الذكر باللسان والقلبُ لاهٍ مع تصحيح اللفظ الذي يذكر به علىٰ قانون الشرع] .

وهذا أدنىٰ أنواع الذكر ، وهو قليل الجدوىٰ .

* القسم الثاني :

[هو ذكر باللسان مع حضور القلب وعدمِ غفلته وقت الذكر] .

وهو أعلىٰ بمراحل من القسم الأول ، وإنْ ثابر عليه المريد بإذن من الشيخ العارف وتوجيهٍ منه وَصَلَ بفضل الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ القسم الرابع من أقسام الذكر الذي سنذكره ، وهو أعلىٰ الأنواع .

وقد ورد في فضل هذا القسم بخصوصه شواهد من الكتاب والسنة ، ووصل به إلىٰ الله تعالىٰ كثير من الصوفية ، وعوّلوا عليه في توصيل المريدين .

* القسم الثالث :

[هو الذكر بالقلب فقط ، بمعنىٰ ملاحظة اسمه تعالىٰ من غير تحريك اللسان ولا اشتغال القلب بالمعنىٰ] .

وهذا القسم لم يأمر به أحد من السادة الصوفية ولا من مشايخنا ، حتىٰ الفقهاء أهل الظاهر فإنهم اختلفوا في حصول الثواب عليه .

* **القسم الرابع :**

[هو الذكر بالقلب ، لكن لا بمعنىٰ إحضار الاسم الشريف فقط كما سبق في الذي قبله ، بل بمعنىٰ إحضار الاسم الشريف مع امتلاء القلب بمعناه ، بحيث يكون القلب ممتلئاً بالهيبة الإلهية من الذكر ، مستغرقاً في جلاله ، ملاحظاً أنه تعالىٰ مطلع عليه وقريب منه علىٰ وجه لا يَبقىٰ معه لحضور الغير مدخل . هذا إن كان الاشتغال باسم الذات ، فإن كان الاشتغال بالنفي والإثبات لاحظ لفظها علىٰ الكيفية الآتية ، مع كمال الاستغراق في المعنىٰ أيضاً] .

ولا بد في هذا القسم سواء كان باسم الذات أو النفي والإثبات من أن يكون القلب علىٰ كمال الانكسار لله تعالىٰ وكمال الشعور بالمذكور ، بحيث يكون إحضار صيغة الذكر تابعاً لتذكر المعنىٰ لا متبوعاً .

وهذا القسم هو أعلىٰ أقسام الذكر ، بل أفضل جميع العبادات القلبية كما دلت عليه السنة ، وأقوالُ السادة الصوفية ، وأجمعَ عليه فقهاء وأرباب المذاهب الأربعة ، وهو الذي اختاره سادتنا النقشبندية .

وأودُ أن أذكر أدلة من السنة والمذاهب ، وما قاله الأئمة في هذا المجال ؛ ليقمع المريدُ إبليسَ وأعوانه .

* قال ﷺ في تتمة الحديث : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . . . . . ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم والترمذي وأحمد والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري .

وقد عُلِمَ بالتجربة المفيدة أن الذكر الذي يستعقبه البكاء وفيضان الدمع من العين إنما هو هذا النوع من الذكر ، فدل على أنه المراد .

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال النبي ﷺ : سبق المُفَرِّدون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : المستهترون في ذكر الله ، يضعُ الذكرُ عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً »[1] .

وليُعلم أن الاستهتار بالشيء هو الولوع والشغف به حتى لا يكاد يفارق ذكره . والمستهترون هنا في هذا الحديث هم المولعون بذكر الله ، والمستغرقون فيه كمال الاستغراق . ولا يحصل هذا على الوجه الأتم إلا إذا كان الذكر قلبياً صِرفاً وحضوراً بحتاً ، فإنَّ تَلَفُّظَ اللسانِ وحده يَنْقُصُ منه حضورُ القلب على قدره .

وإن الفائزين بهذا النوع من الذكر هم الفائزون عند الله تبارك وتعالى بأعلى درجات السبقِ ، وذلك بشهادة الحديث الشريف السابق .

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله يقول : يا ابن آدم ، إنك إذا ذكرتني شكرتني ، وإذا نسيتني كفرتني »[2] .

فالملاحظ هنا أنه قابل الذكر بالنسيان ؛ ليدل على أن المراد بهذا الذكر التذكر القلبي لحضرة المذكور .

* وعن أبي ذر مرفوعاً : « ما مِن يوم وليلة إلا ولله تعالى فيه صدقة يمُنُّ بها على مَن يشاء مِن عباده ، وما مَنَّ الله على عبد بأفضل

---

(١) خرّجه الترمذي واللفظ له وقال : هذا حديث حسن غريب ، وخرّجه الإمام أحمد والحاكم في المستدرك بلفظ: [الذين يهترون في ذكر الله] ، ورواه مسلم ولفظه : [الذاكرون الله كثيراً والذاكرات] .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط .

من أن يلهمه ذكره»[1] .

ووجهُ الاستدلال هنا أن الإلهام عبارة عن قذف المعنىٰ في القلب ، ولا معنىٰ لإلهام الذكر إلا أن يوفق الله عزَّ وجلَّ قلب عبده ليذكره . وقد جعله النبي ﷺ أفضل الصدقات ، فدل علىٰ أن التذكر أفضل العبادات .

❁ وقال سيدنا علي كرم الله وجهه لابنه الحسن : «أوصيك بتقوىٰ الله تعالىٰ ، وعمارةِ قلبك بذكره» .

❁ وقال الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية : «مِن الأعمال ما لا يطلع عليه الحفظة ، وهو ذكر الله تعالىٰ بالقلب ، وما طويت عليه الضمائر من هيبته وتعظيمه» .

❁ وقال كذلك رحمه الله تعالىٰ : «إن التصوف جامع لعشر خصال ، وعدّها إلىٰ أن قال : ودوام ذكر الله بالقلب الذي هو ملك الأعضاء» .

❁ وقال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي قدس سره : «حضورُ القلب مع الله تعالىٰ علىٰ الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم علىٰ العبادات» .

وأقولُ : بل به تَشرفُ سائرُ العبادات من غير ما افترض الله تبارك وتعالىٰ .

ولا بد لنا من أن نعرف جيداً أن الذكر القلبي عند النقشبندية هو الخضوع مع الحضور ، مع النطق بلسان القلب باسم الذات أو النفي والإثبات ، كما رأينا الأستاذ قد حكم بأنه مقدم علىٰ سائر العبادات .

❁ وقال كذلك : «ولا تظن أن هذه الطاقة القلبية تنفتح بالنوم أو الموت

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا .

فقط ، بـل تنفتـح باليقظـة لمـن أخلـص الزهـادة والرياضـة ، وتَخلَّصَ مِن يد الشهوة ، والغضب ، والأخلاقِ القبيحة ، والأعمال الرديئة . فـإذا جلـس في مكـان خـال وعطـل طريـق الحـواس ، وفتـح عـين البـاطن وَسَمْعَهُ ، وجعل عين القلب في مناسبة عـالم الملكـوت ، وقـال دائمـاً : (الله) ، وكررهـا بقلبـه دون لسـانه إلىٰ أن يصـير لا خـبر لـه مـن نفسـه ولا مِن العـالم ، ويبقىٰ لا يرىٰ شـيئاً إلا الله ﷻ ، انفتحـتْ تلـكَ الطاقـةُ وأبصرَ في اليقظـة الـذي يبصـره في النـوم ، فتظـهر لـه أرواح الملائكـة والأنبياء . . . إلىٰ آخر ما قال » .

وإن كلام الإمام الغزالي هذا حجـة قاطعـة عنـد أهـل الإنصـاف فيمـا اختاره مشايخنا قُدِّسَتْ أسرارهم من الذكر .

كما لم يُغفل فقهاء المذهب هذه الناحية أبداً ، بل تعرضوا لها بـأكثر من موضع .

* قال الإمام الجمل في حاشية شرح المنهاج في كتـاب الصـلاة مـن الفقـه الشافعي ما نصه : « والصلاة أفضل عبادات البدن بعد الإسلام ، وخرج بعبادات البدن عبـادات القلـب فإنـها أفضـل مـن الصـلاة : كالإيمـان ، والمعرفةِ ، والتفكر ، والتوكل ، والصبر ، والشكر ، والرضا ، والحلـم ، والمحبـة لله تعـالىٰ ولرسـوله ﷺ . وأفضلُـها الإيمـان ويكـون واجبـاً ، وقـد يكـون تطوعـاً كمـا في التجديـد . والذكـر القلـبي الـذي اختـاره المشايخ هو من قبيل الإيمان بالله وصفاته علىٰ طريق التجديد » .

* وقال ابن حجـر الهيتمـي رحمـه الله تعـالىٰ وهـو مـن متـأخري الفقـهاء الشافعية عندما سـئل عـن الملائكـة : هـل خُلقـوا دفعـة أو تـارات ؟ :

« إن جماعة من أئمتنا وغيرهم يقولون : لا ثواب في ذكر القلب وحده ، ولا مع اللسان حيث لم يُسمع نفسه . ثم قال : وينبغي حمله على أنه لا ثواب عليه من حيث الذكر المخصوص ، أما اشتغال القلب بذلك وتأمل معانيه واستغراقه في شهودها ، فلا شك أنه بمقتضى الأدلة يثاب عليه من هذه الحيثية سبعين ضعفاً » .

* وقال القاضي عياض سيد فقهاء المالكية صاحب الشفاء : « ذِكْرُ الله ضربان : ذكر بالقلب وذكر باللسان . وذكرُ القلبِ نوعان ، أحدهما وهو أرفعُ الأذكار وأجلُّها التفكرُ في عظمة الله ﷻ وجلاله » .

* وقال العلامة الدرديري وهو من كبار علماء المالكية : « النوع الثاني الذكر بالقلب ، وهو شأن أرباب النهايات » .

* وعقّبَ عليه الإمام الصاوي قائلاً : « وهو أفضل الأذكار » .

* وقال الإمام السيد مرتضى مِن كبار علماء الأحناف في شرح الإحياء : « وقال الأكثرون منهم بأفضلية ذكر القلب وحده » .

* وفي كتاب بغية أولي النهى شرح غاية المنتهى من فقه الحنابلة عند قول المتن : (صلاةُ التطوع أفضلُ مِن تطوع بدن لا قلب) إشارة إلى أن عمل القلب أفضل .

وبما تقرر من أدلةٍ قاطعة وبراهين ساطعة نعلمُ يقيناً أن أفضل أنواع الذكر ، بل أفضل العبادات على الإطلاق التي يَتقربُ به المتقربون إلى الله تبارك وتعالى ، وأكثرها ثواباً بعد الفرائض وما طُلب من المسلم أن يفعله بالتعيين ، هو الذكر القلبي الذي اختاره مشايخنا رضي الله تعالى عنهم وقدس أسرارهم .

وبه نعلم كذلك أن الذكر القلبي الـذي نفـىٰ عنـه بعـضُ العلمـاء الثـوابَ ليس هو النوع الذي اختاره مشايخنا منه ، كما مر معنا في عَدِّ أقسام الذكر .

ولقد ظهر لك أن من طعن بطريق هؤلاء الأكابر إمـا معـاندٌ مكـابر ، فلا يصـح الاشـتغال فيـه ، ولا الالتفـات إليـه ، ولا الوقـوف عنـد قولـه ، بـل سُقوطُهُ مـن نظـر الله تبـارك وتعـالىٰ لمعاداتـه أوليـاء الله يكفيـه . وإما جاهلٌ بما في السنة وما عليه علماء الأمة ، فهذا إنْ أعطانا أُذُنَهُ وجـب علينا تعليمه وإيقاظه ليكون علىٰ بينة ونور .

وينبغـي للمريـد الصـادق أن لا يـهمل في تكـرار الذكـر القلـبي ، وأن لا يسـتبطئ حصـول المراقبـة فـهو يريـد الله تعـالىٰ لا الأنـوار ، وأن لا يتكدرَ خاطرُهُ بعدم الوصول إلىٰ هذه الأنوار ، وأن لا يستدلَ علـىٰ عدم قبول ذكـره ، بـل يرضـىٰ بمـا اختـاره لـه الحـق مـن البقـاء علـىٰ دوام الذكر ؛ لأن الله تعالىٰ عادل وحكيم ، ويعطيه علىٰ حسب استحقاقه .



٢- **الذكر بالنفي والإثبات** ، أي بالكلمة الطيبة (لا إله إلا الله) . بحيث ننفي العبودية عن غير الله ، ونثبتها لحضرة جلال وعظمة الله تعالىٰ .

وهذا الذكر بقسميه يُلَقَّنُ للمريد بعد اللطائف ، فإذا فزتَ بالتلقين من الشيخ العارف بشرطه ، فكن حريصاً علىٰ ما ينبغي من الآداب عند كلٍّ من الذِّكْرَين .

وقبل أن نشرع في هذه الآداب نذكر اللطائف السبعة .

اللطائف السبعة :

هناك لطائفُ سبعةٌ تعرض للذاكر في طريقه ولا بد له من أن يراقبها ، وكلما تعمق بها أكثر كلما رأىٰ النور والصلة أكثر . وهذه اللطائف هي :

١- لطيفة القلب :

وهي لطيفة ربانية مودعة في الجانب الأيسر من القلب مائلةٌ إلىٰ تحت الثدي والجنب بفاصلةِ إصبعين ، ولها نور خاص وهو الأصفر .

ونسبتها إلىٰ القلب الجسماني الصنوبري الشكل الموجود في جميع الحيوانات(١) نسبة الصبي إلىٰ المهد .

وتلك اللطيفةُ هي حقيقة الإنسان ، وتسمىٰ عند السادة الصوفية : [حقيقة جامعة] ، وعند العلماء والحكماء : [النفس الناطقة] ، كما يسميها بعضهم : [لطيفة إنسانية] .

---

(١) هو المضغة في الجانب الأيسر تحت أصغر عظم من عظام الصدر .

وإن مبدأ الذكر بها ومنها ، ومع دوام الذكر تنطلق بعد ذلك إلىٰ اللطيفة الثانية .

٢- لطيفة الروح :

وهي لطيفة مودعة في الجانب الأيمن مائلة إلىٰ تحت الثدي والجنب بفاصلة إصبعين ، وهي في مقابلة لطيفة القلب ، ولون نورها أحمر .

٣- لطيفة السر :

وهي لطيفة مودعة في جنب الثدي الأيسر مائلة منه إلىٰ وسط الصدر بفاصلة إصبعين ، فتكون فوق القلب ، ولونُ نورها أبيض .

٤- لطيفة الخفي :

وهي لطيفة مودعة في جنب الثدي الأيمن مائلة منه إلىٰ وسط الصدر كذلك بفاصلة إصبعينِ ، وهي مقابِلةٌ للطيفةِ السرِّ وفوق الروح تماماً ، ولون نورها أسود .

٥- لطيفة الأخفى :

وهي لطيفة مودعة في وسط الصدر تماماً ، ولون نورها أخضر .

٦- لطيفة النفس :

وهي لطيفة مودعة بقدرة الله تعالىٰ في وسط الجبهة تماماً ، ولها نور خاص .

٧- لطيفة القالب :

هي أرقىٰ اللطائف وأعلاها ، محلها تمام البدن بحيث تعمُّ جسمك

كله ، فيقول الذاكرُ : (الله) ، وكلُّ شعرة فيه تذكر .

ولاحظ أن لكل لطيفة نوراً خاصاً ربما يظهر أثناء السلوك ، وربما يأخذ فترة زمنية ، وذلك لمن له كشف . وإن أنوار هذه الألوان تندمج معاً ، فإذا اندمجت أعطت نوراً ثان وهو نور النفس بعد التزكية والتطهير ، ويظهرُ بلا كيف ولا لون .

وأنت أيها الذاكر متى حفظتَ هذه ، وأغمضت عينيك وراقبت نفسك ، وسِرْتَ بالآداب التي سنذكرها إن شاء الله تعالى ، وذكرت بإذنٍ من الشيخ ، ووصلت إلى هذا المستوى ، تشعرُ بذلك كله وتراه واضحاً أمامك كما ترى بعينك المجردة الأشياء التي أمامك .

ومن قائل يقول : متى أَصِلُ ؟ فأجيب : لا تسألن ، بل سِرْ ولا تلتفت . فالذكر كالهواء للإنسان ، وهذه اللطائف لا تعيش بدون ذكر وبدون اتصال بالشيخ ، لذلك يعمل الشيخ جاهداً لغسل قلب المريد من الأدران ؛ لأنه يحبه ويريد تغسيله حسياً ومعنوياً .

تنبيه :

إن خمسة من هذه اللطائف السبعة عند هذه الطائفة من عالم الأمر ، ونعني بذلك (لطيفة القلب ، والروح ، والسر ، والخفي ، والأخفى) . والباقية من عالم الخلق حيث هو مشتمل على لطائف العناصر الأربعة ، وهي (لطيفة النفس ، والقالب) .

وأحب أن أبين لك أنَّ أَصْلَ كل لطيفة من لطائف عالم الخلق أَصْلُ كلٍّ لطيفة من لطائف عالم الأمر :

فأصل النفس : أصل القلب .

وأصل الهواء : أصل الروح .

وأصل الماء : أصل السر .

وأصل النار : أصل الخفي .

وأصل التراب : أصل الأخفىٰ .

ونعني بعالم الأمر أي الذي خلقه الله تعالىٰ بأمر كن فيكون من غير مادة . وقد ركبهاﷻ مع لطائف عالم الخلق الذي خلقه الله تعالىٰ من مادةٍ وهي النفس الناطقة ، ثم إلىٰ هذه النفس التي نعتبر مكانها الدماغ مع العناصر الأربعة تندرج فيها كلٌّ من هذه المحال في الذكر .

آداب الذكر :

١- أن يكون الذاكر متوضئاً وعلىٰ طهارة تامة .

٢- أن يكون مستقبل القبلة .

٣- أن يقع الذكر بعد صلاة فرضاً كانت أو نفلاً .

٤- أن يجلس الذاكر علىٰ ركبتيه متوركاً بعكس تورك التشهد في الصلاة ، فيُخرج قدمه اليمنىٰ من تحت ساق رجله اليسرىٰ ، ويجلس علىٰ وركه الأيمن ليكون القلب مرتفعاً .

٥- أن يغمض عينيه متصوراً أن الشيخ يجلس أمامه ، وأن حبلاً من النور يصل قلبه بقلب الشيخ .

٦- أن يكون ذهنه خالياً من كل أمور الدنيا ، قاطعاً جميع حواسه عن الغير ، فيجلس في مكان بعيد عن الغوغاء ، وأن يوجهها جميعها

إلىٰ ملك أعضاء ألا وهو القلب لتنتظر الأوامر ، مدققاً النظـر الخيـاليَ بالنفوذ إلىٰ القلـب ، جـاعلاً نفسـه علـىٰ حالـه ، ملاحظـاً أن الله تبـارك وتعالىٰ ناظر إليه يسمعه ويراه ، ليحقق الحديث الشـريف : «أن تعبـد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) .

٧- أن يُلصق الأسنان بالأسنان ، ويطبق الشـفة علـىٰ الأخـرىٰ ، وأن يضـع اللسان علىٰ لهاته بسقف الحلق .

٨- ثم أن يخطر بقلبه أنه مذنب مقصر غـير قـابل لشـيء مـع تقصيره ، خـال من الأعمال الصالحة والعلوم النافعـة ، بحيـث ييـأس مـن أعمالـه . وبـهذا الوقت بالذات أن يكون اتكاله علىٰ الله تبـارك وتعـالىٰ أكـثر مـن أي وقـت مضىٰ ، وأن يُعَوِّلَ علىٰ فضل مولاه .

٩- ثم أن يلاحظ الموت وأحواله ، والقبر وأهواله ، وكأن الموت قـد دخـل به الآن ، وأن هذه آخر أنفاسـه مـن الدنيـا . فـإذا وصـل إلىٰ هـذا الحـد انقطع تماماً عن أمور الدنيا ، فلا يفكر في مال ولا ولد ولا زوجة . . .

١٠- ثم يباشـر ذكـره فيقـول بلسـانه : (أسـتغفر الله) خمسـاً وعشـرين مـرة ، مع ملاحظة معنىٰ الاستغفار وهو طلب المغفرة منه تعالىٰ مع كل مـرة ، ويتذكر أنه يغسل قلبه من الذنوب والآثام ، ولسانُ حالِهِ يقولُ : أنا العبـد المنكسر العاجز الضعيف الفقير إليك يا الله .

١١- ثم بعدها يكون التوجه التام ، فيقرأ فاتحة الكتاب مرة واحدة بلسانه .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وتفرد به مسلم عن البخاري بإخراجه . كما خرجه أحمـد في مسـنده ، ورواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم .

١٢- ثم يقرأ سورة ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ مرة واحدة بلسانه .

١٣- ثم يقرأ الإخلاص ثلاث مرات بلسانه .

١٤- ثم يهب مثل ثواب ذلك إلىٰ حضـرة النـبيﷺ ، ثـم إلىٰ جميـع أرواح مشايخ الطرق وعلىٰ الأخص النقشـبندية إلىٰ شـيخه المباشـر ، فـهي سلسلة مستمرة .

١٥- ثم يلاحظ أنه في آخر أنفاسه وكأن روحه نُزعت من بدنـه وخرجـت ، وكأنه غُسِّلَ وكُفِّنَ وصُلِّيَ عليه ، وحُمل علىٰ النعش إلىٰ القبر ودُفـن . وهكذا يتجدد له اليقين أنه لا ينفعه إلا صالح العمل .

١٦- ثم يفتح عينيه ليزول عنه هذا الخيال .

١٧- ثم يغمـض عينيـه ويبـدأ هنـا بالمراقبـة ، فيسـتحضر صـورة مرشـده وشيخه في خياله وكأنه جالس بـين يديـه ، وكـأن قلبـه مقـابل لقلبـه ، مسـتمداً مـن روحانيتـه البركـة ، ويستمرُ علىٰ هـذه الحالـة فـترة . وإن اسـتطاع أن يتصـور جميـع المشـايخ يسـتمدون مـن النـبيﷺ ، وأن النبيﷺ يستمد من الله تعالىٰ .

وهذه تسـمىٰ عندنـا معشـر النقشـبندية **(بالرابطـة الشـريفة)** ، وهـي الأساس في رقي قلب المريد وروحه ، حيث لا بد منها لبدء الذكر .

وقد يراها في البداية صعبة ، لكنها هينة جداً لمن يباشر بـها . وكلمـا ازدادتِ المدةُ فيها زاد النور وكان أنفـعَ لهـذا المريـد ، حيـث بـها تحصـل فائدة الجمعية علىٰ الحق تعـالىٰ كمـا تحصـل الفـائدة مـن الذكـر ، حيـث المرشـد بمقتضـىٰ ذكـره هـو مـن جلسـاء اللهﷻ ، والمتذكـر لـه بقلبـه هو جليسه .

فإن روح المجالسة هي عبارة عن ارتباطِ قلب الجليس بالآخر ، وارتسامِ صورته في نفسه . فإذا حصلت ولو في الغيبة ترتبتْ عليها الثمرات الموعودُ بها من قبل الحق تبارك وتعالىٰ .

وإلىٰ ذلك أشار الحديث الصحيح : « هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم »[1] .

ولهذا قيل :

جليسك يُشفىٰ ويُشفىٰ به ... وعنه يزول الشقا بل به

فكن يا أُخَيَّ له ذاكراً ... وإلا فجالس أُولي ذكره

مع العلم أن المريد بحفاظه علىٰ هذه الرابطة وإكثاره منها تسري إليه أوصاف الشيخ وأحواله تدريجياً ، وينعكسُ عليه ما في روحه من الكمال .

كذلك شيخك مربوط بمشايخه بحبل من نور إلىٰ قلب النبي ﷺ ، فأنت عند ذلك تشعرُ أنك مربوط بقلبه ﷺ عن طريق الأقنية النورانية . وهذه الأقنية لا يقطعها هواء ، ولا سيفٌ ، ولا رصاص . إنما يقطعها الغفلةُ عن الله تعالىٰ ، هواك وشهوتك ، إعراضك عن الشيخ وإدبارك الروحي . أما إذا كنت بإقبال مستمر فأنتَ مع مَوردٍ نوراني ، ومع حبل متصل بالنبي ﷺ .

١٨- فإذا قضىٰ المريد حظه من هذه الرابطة فتح عينيه ، ثم أغمضهما متوجهاً بكله إلىٰ الله تعالىٰ ، قائلاً بلسانه وقلبه جميعاً : (إلهي أنت مقصودي

---

(١) رواه البخاري ومسلم والطبراني في الصغير عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث طويل في التماس الملائكة أهل الذكر وقولهم لله ﷻ : فلان خطاء مر فجلس معهم ، فقال ﷻ : هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم وذكره . كما رواه البيهقي في شعبه عن أبي هريرة ، والطبراني عن ابن عباس ، والبزار عن أنس ، كلهم بلفظ : [هم الجلساء] .

ورضاك مطلوبي) ثلاث مرات .

١٩- ثم يطبقُ فمه ويطرح الصورة بالخيال في وسط قلبه ، وبهذه الأثناء يجمعُ جميع حواسه ويركزها على القلب تماماً ، ويستحضرُ اسم الجلالةِ بعد فراغ البال مرسوماً على قلبه ، ويجعله مملوءً بذكر المعنى المدلول وهو ذاتٌ بلا مثل ، وهذا الذي يُفهم من الاسم الأقدس .

وهذا الجعلُ يُسمى (وقوفاً قلبياً) . ويجب أن تعرف أنه كثير الفائدة وهو مطلوب ، ولا بد من وجوده في جميع أوقات الذكر وفي خارجها ما أمكن ، وبما تيسر له من ذلك الذكر الذي ذكرناه . فهو الركن الأتم للذكر ، والمحطة لفائدة الذكر .

٢٠- ثم يشرع في الاشتغال بالذكر على الطريقة المعروفة عند السادة النقشبندية ولكن مع الوقوف القلبي المذكور ، فيقول بلسان الخيال مِن محل لطيفة القلب : (الله - الله - الله) ، ويحرك بالنَّفَس قلبَه بلفظ الجلالة مع تحريك سبابةِ اليمنى بالمسبحة مع قلبه باسم : (الله) . وحالاً يلاحظ الذاكر مفهومه بأنه ذاتٌ موصوفة بجميع صفات الكمال ، ومنزهة عن سمة النقصان .

ويثابر المريد على هذه الحالة قدرَ استطاعته مِن غير عدد ، ولو بدأ ببطء فإنما تزداد ، حتى تَجري لطيفةُ قلبه بالذكر ويكون حاضراً بالله تعالى ، ولو تَكَلَّفَ إحضارَ الغيرِ لم يستطع ، ولو أراد أن يُدخل غير الله على قلبه لما دخل ، وهذا ما يسمى **(بارتساخ الذكر)** .

وبعد أن يرتسخ الذكر بهذا القلب الصنوبري ، ويثبت اسمُ الله في قلب المريد ، ينتقل إلى اللطيفة الثانية وهي لطيفة الروح على

هذا المنوال ، وبأمر الشيخ حيث هو أعلم بحاله .

ثم بعد أن تشتغل وتتعمق لطيفة الروح ويجري الذكر فيها ، ينتقل إلىٰ اللطيفة الثالثة وهي لطيفة السر علىٰ ما مر بأمر الشيخ . ثم ينتقل إلىٰ لطيفة الخفي ، ثم إلىٰ لطيفة الأخفىٰ ، ثم إلىٰ لطيفة النفس ، ثم إلىٰ لطيفة القالب ، إلىٰ أن يشعر أن اللطائف كلها قد اشتغلت ، وأن الذكر يجري من كل منبت شعره ، وجميع جسم الذاكر يقولُ : (الله) ، وهنا يكون قد وصل إلىٰ ما يسمىٰ (**بسلطان الذكر**) .

وأن يقول علىٰ رأس كل مائة مرة من ذلك : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) .

٢١- هذا إن كان مأموراً بذكر اسم الذات ، وأما إن كان مأموراً بذكر الكلمة الطيبة ، فعليه أن يَحبس نَفَسَه تحت السرة ، وأن يمده بكلمة (لا) إلىٰ منتهىٰ الدماغ ، وأن يَنزل بكلمةِ (إله) إلىٰ الكتف الأيمن ، وبكلمة (إلا الله) إلىٰ القلب الصنوبري ، ضارباً عليه منفذاً إلىٰ قعره بقوةٍ ليتأثر بحرارته جميعُ البدن ، حيثُ جميعُ الجسدِ وجميعُ الأعضاء والجوارح تشارك بهذه اللفظة ، ويكون مفعولها مختلفاً عمن يقولها بلسانه فقط . وعندما يقول : (إلا الله) ناظراً إليه بنظر البقاء ، فيحيط هنا علىٰ محل اللطائف ، ويلاحظ الخط الفاصل من هذه الانتقالات ومعناها .

ثم يكرر ذلك مع حبس النَّفَس وإطلاقه عند وتر ، وعند إطلاق كلِّ نَفَس وإذا غلبته الأنوار يقول بلسانه أو قلبه : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) ، مع قول (محمد رسول الله) بقلبه في آخر كل نَفَس .

فإذا استراح يشرع في نَفَس آخر ، لكن يراعي عدم الغفلة ما بين النَّفَسَين ، بل يبقىٰ التخيل علىٰ حاله .

فإذا انتهىٰ العددُ إلىٰ أحد عشر ، ويمكن أن يسير به إلىٰ إحدىٰ وعشرين لتظهر النتيجة ، وهي النسبة المعهودةُ مِن الذهول والاستهلاك التام ، وإن لم تظهر في وقتها فَسَيَجِدُها بعد ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

هذه هي الكلمة الطيبة التي وصفها الله تعالىٰ في القرآن الكريم ، بحيث يتصورُ عند تلفظها بأنه يذوب ذوباناً كاملاً بالحضرة الإلهية ، وهو ما يسمىٰ عندنا بدرجة الفناء . فإذا عاش معها كانت ألذ حلاوة عنده ، وسمىٰ إلىٰ مرتبة عالية مع الأنوار والتجليات السماوية .

٢٢- ولا بد للمريد بعد كل فترة وفترة من الذكر أن يُفَرِّغَ قلبه من كل الخطرات مهما أمكن .

وأود هنا أن أوضح لك بتعبير روحي أن هذه الوساوس التي تُلقىٰ علىٰ القلب مِن قبل إبليس والدنيا والنفس تزعج وتقلق ، وهي خطيرة جداً ، وكثيرٌ مِن المريدين شَكَوا إليَّ هذا الأمر . قد يُخيَّل لك أمور كثيرة منها الحرام ، ومنها التي تشككك بالله ، وبالنبي ، وبالشيخ ، وبنفسك . هذه الخطرات تمر أثناء الذكر وغيره علىٰ القلب وبإلحاح ، فأنت لا تملكها ، وأقول لك :

اعْتَبِرْ هذه الخواطر كِلاباً نباحة كالكلاب الحسية التي تنبح في الطريق ، هذه الكلاب إن اشتغلتَ بها ازدادت المعركة بينك وبينها وأضعت وقتك .

وأصورُها كذلك بالضجةِ التي في الشارع ، فإذا أردتَ أن تتخلص

من ذلك أغلقتَ النافذة ، واعتبرتَ ذلك كأن لم يكن .

ولا طريقة لمحاربتها إلا بهذا ، وذلك عن تجربة .

٢٣- وهنا قد تحصل للذاكر في البداية غيبة وذهول عن الدنيا ، وتتعطل حواسه ولو مع بقاءٍ قليلٍ وشعورٍ بنفسِه ، فيغيبُ عن الوجود في الذكر ، عن الكل ، عن سوىٰ الله تعالىٰ . فعليه أن يترك الذكر ويبقىٰ تابعاً لتلك الكيفية ، مستغرقاً بالوقوف القلبي ، منتظراً الوارد الذي يأتي لقلبه ، ومستحضراً قلبه لنزول الفيوضات الربانية بهذه الساعة ، إذ قد تفيض عليه في هذه المدة اليسيرة أمورٌ غزيرةٌ ومدد لا حدَّ له ، وإن لم يُدرك ذلك حسياً .

٢٤- ثم بعد هذه الغيبة يفتح عينيه وقتاً ليستعيد نشاطه ، ثم إن شاء تمّم الذكر بعد ذلك .

٢٥- لا بد للمريد من المثابرة علىٰ ذلك في كل يوم ، وأن يستمر علىٰ هذا الحال لعشرين دقيقة علىٰ الأقل . وأُحبُّ أن تكون هذه الجلسة صباحاً وبعد العصر ، في بداية النهار وفي آخره . وإن استطاع أن يكون في مراقبة تامة ، وهذه تحتاج إلىٰ مرتبة عالية رفيعة .

٢٦- ولو أن الذاكر مَسَّ شيئاً مِن الطيب قبل البدء بالذكر كان أفضل .

وينبغي للمريد أن يكثر من ذكر الله تعالىٰ علىٰ تلك الكيفية مَجِدّاً حتىٰ يتحقق بنتيجة الذكر المعهودة عند السادة ، وهي الذهول عن غير الحق سبحانه ، والاستهلاكُ في جلال الله ﷻ .

فإذا غلبَ علىٰ المريد ذلك صَحَّتْ له المراقبةُ التي هي تَذَكُّرُ حضورِ الحق معه ، واستدامة ذلك مع كمال التعظيم لهذا الاسم الشريف والانكسار لحضرته عز وجل .

فهذا الطريق لا ينفع معه إلا نفسٌ ذليلة منكسرة ذائبة في حضرة المولىٰ ؛ لحصول الأنوار والفيوضات . وهذا الطريقُ لا ينفع معه إلا نفسٌ لا ترىٰ لها وجوداً ولا فضلاً علىٰ أحد ، لكن الفضل لله تعالىٰ عليه حيث قَبِلَه أن يجلس مراقباً له . ومن هنا تتفجر في قلبه ينابيع الحكمة والمعرفة والأنوار ، ويصبح في ذهول . حيث المداومُ علىٰ ذلك مع المجاهدة التامة يكون دائماً في التقرب وأبداً في التحبب إلىٰ أن تنتهي مراقبته إلىٰ أحوال سنية بَيْنَهُ وبينَ ربه ، لا تسعها العبادات ولا تبلغها الإشارات ، فإن استطعت أيها المريدُ فكن في ذكر دائم .

صفة المبايعة عند السادة النقشبندية :

ليُعلم أن كيفية الذكر التي مرت معنا هي باب الحقيقة وأصلُ الطريقة ، وهي الورد الدائم الذي علىٰ كل مريد بايع الشيخ علىٰ الطريقة العلية أن يداوم عليه ، وكلما ثبتَ عليه المريد أكثر كلما قرب من الحضرة الإلهية أكثر .

وتكون صفة المبايعة علىٰ هذا الذكر كما يلي :

١- أن يجلس المريد أمام الشيخ علىٰ طهارة تامة .

٢- أن يضع يده في يد الشيخ بحضور تام .

٣- أن يتصور أنه أمام وارث النبي ﷺ .

٤- أن يقول للشيخ : إني أبايعك علىٰ أن أكون ملتزماً بالطريقة النقشبندية العلية ، متأدباً بآدابها ، متخلقاً بأخلاقها ، محافظاً علىٰ أورادها التي أتلقنها منك ، لا أتهاون بها حضراً ، وأن أبذل جهدي

علىٰ تلاوتها في السفر ، والله علىٰ ما أقول شهيد .

٥- وبعد ذلك يجيبه الشيخ قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، اللهم صل علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ١٠] .

ثم يقول الشيخ : قبلتُ بيعتك ، والله علىٰ ما نقول شهيد .

وأُنوهُ هنا أنه لا يجوز للمريد أن يخالف شيخه في طريقتنا مقدار أنملة ، فإنه يتقيد بالذكر الذي يأخذه من الشيخ ، مقتنعاً ظاهراً وباطناً بما يأخذه .

كما أحب أن أقول للآخرين الذين يريدون الطريقة :

أُحِبُّ مِن أبنائي دائماً أن يعيشوا مع الشريعة ؛ لأنها الطريق إلىٰ الحقيقة ، وهي سيف الحقيقة . وقد تعودنا قبل أن نعطي الطريقة لأحدٍ أن نقويه بأمور الشريعة من فقه ، وحديث ، وقرآن ، وأحكام ، وتجويد ، وتوحيد . . . ؛ لأنها سلاح بيد المريد وإلا استطاع إبليس أن يدخل عليه . وإبليس ما ملَّ مِن إغواء الناس ، بل هو ثابت علىٰ قسمه الذي أقسمه أمام رب العزة .

لهذا نحب دائماً أن نُسلح أبناءنا ، وبعد أن يحملوا السلاح ويتمكنوا من استعماله جيداً ، عند ذلك ننظرُ لهم هل هم أهلٌ لكي ينالوا شرف الطريقة والحقيقة ؟ فإن كانوا وأتت الإشارةُ مِن الله أعطيناهم ذلك .

فَأعِدَّ نفسك لذلك ، أعِدَّ نفسك لِترقَىٰ إلىٰ مستوىٰ الملائكة ، إلىٰ عالم السمو والروح . فإن لم تكن كذلك فتصور نفسك بأنك تجالس مَن هم في هذا المقام ، وإن الإصرار علىٰ المسير هو الذي يُمكنك من الوصول ولو سرتَ سير نملة .



آداب أهل الطريق خارج الذكر

لا بد للمريد الصادق من ملاحظة ومراعاة آداب أهل الطريق خارج الذكر ، وهي :

١- دوام كسب قلب الشيخ بجميع الأمور الحسية والمعنوية ، بمعنى أن يذوب بكله ، وأن لا يملك نفساً ولا مالاً ولا ولداً أمامه .

وهذا الكسب يأتي عن طريقتين :

طريقة الظاهر : وهي أن يتمثل له بكله وبتواضعه ، وأن يكون عند أعتابه ، فمهما انبسط له الشيخ وابتسم فهو ينزل إلى مستواه . وأن يكون عنده بقمة الأدب ، فمتى أعرض عن الشيخ بظاهره يكون قد أعرض عن حضرة الله سبحانه .

طريقة الباطن : وهي أن يكون بجميع جوارحه وسره مستسلماً مُسَلِّماً للشيخ بدون أي استفسار ، يَغضبُ لغضبه ويرضى لرضاه ، يُحب أحبابه ويعادي أعداءه .

٢- دوام ملازمة الوضوء إن استطاع ، حيث هو جليس الله تعالى ، وجليسُ الله يحتاج إلى طهارة دائمة .

٣- ملازمةُ الجماعة التي تؤمن بنفس إيمانه ، وتعتقد بعقيدته .

٤- أداءُ الرواتب السنن التابعة للفرائض .

٥- إيثارُ كثرة الذكر على النفل المطلق .

٦- إحياءُ ما بين العشاءين بالذكر ، أو بحضور مع جماعة مثله يذكرهم ويذكرونه بسيرة السلف دون التعرض للمعكرات ؛ لإبقاء بحره هادئاً .

٧- إحياء آخر النهار كذلك بالذكر . هذا الصاحب الحرفة ، أما المتفرغ فأدبه أن يستغرق جميع وقته في الذكر الذي تلقنه من شيخه ، علماً أن أوقات الدرس والمواعظ التي يتلقاها ويتعلمها من شيخه تعتبر من أفضل الذكر .

٨- اعتزال غير المعتقدين للطريقة ما استطاع ، إذ مخالطة المنكرين على أهل الطريق تورث قسوة القلب على قدرها ، وتهدم للمريد ما بناه .

٩- تحري الحلال في أموره كلها ، حيث متعاطي الحرام لن يصل إلى الحق تبارك وتعالى أبداً .

١٠- كمال الانكسار لله تعالى ، بحيث يرى نفسه أقل المخلوقات ، ولا يرى لها فضلاً على أحد أبداً ، فيتواضع لإخوانه في جميع أوقاته .

١١- أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا انتهت عنه فأنت عظيم

١٢- كمال محبته لشيخه مع توقيره له ظاهراً وباطناً ، ورعايةُ الأدب معه ، وبذلك تكون سرعة الوصولِ إلى الكمال .

١٣- عدم مصاحبة الأغيار الذين لا يعتقدون في مشايخ الطريقة ، خصوصاً مع من يتكلم في شيخه أو لا يحبه ، أو أن يكون الشيخ معرضاً عنه . فإن المجالسة معهم والسماعَ لهم سم قاتل ، فليجتنب المريد ذلك أشد الاجتناب .

ويُعلم من ذلك أنه من خالف هذه الآداب فإنه لم يدخل في الطريقة بعدُ وإن رقى في الظاهر إلى آخر المقامات ، وحفظ أساميها وعرف معانيها وأسرارها .



قواعد الطريقة النقشبندية العلية

إن الطريقة النقشبندية مبنية علىٰ إحدىٰ عشرة قاعدة ، منها ثمان وضعها الشيخ عبدالخالق الغجدواني ، فله الفضل في وضع مبانيها وأسس الذكر فيها .

وهذه القواعد هي :

القاعدة الأولىٰ :

[حفظ النَّفَس عن الغفلة عند دخوله (الشهيق) وعند خروجه (الزفير) وما بينهما ؛ ليكون القلب حاضراً مع الله في جميع الأنفاس] .

هنا اعتبر شيخنا أن كل نَفَس يدخل ويخرج بالحضور فهو حي موصولٌ بذات الله ، وكلُّ نَفَس يدخل ويخرج بغفلة فهو ميت . والنَّفَسُ الميت حكمه كحكم الميت ، والنَّفَسُ الحي حكمه كحكم الحي .

فعلىٰ المريد أن يكون دائماً حاضراً مع الله تعالىٰ في جميع وقته ، بحيث يَدخل نَفَسُهُ علىٰ حضورٍ ويخرج كذلك ، والحضور يكون هنا بكله ، وعندها يشعرُ بأن قلبه امتلأ بالنور .

القاعدة الثانية :

[إن السالك في بداية أمره يجب عليه أن لا ينظر في حال مشيته إلا إلىٰ قدميه ، ولا في حال جلوسه إلا بين يديه] .

وذلك ليحفظ نظره عن السوىٰ ، وعن المعصية ، وعن أي شيء يُشغله عن الله ، فيبقىٰ نظيف القلب ، نظيف الساحة .

القاعدة الثالثة :

[يجب على السالك أن يتفحص في نفسه هل في قلبه بقية حب الدنيا ، فإذا عرف شيئاً من ذلك اجتهد في زواله] .

ويعني الشيخ هنا أن ينتقل المريد من الصفة البشرية إلى الصفة الملائكية الفاضلة التامة . فعليه بالتفحص المستمر ، فإن رأى أيَّ ميولٍ إلى الدنيا فهو مريض ولا بد له من المعالجة .

القاعدة الرابعة :

[الخلوة في الجلوة] .

والمرادُ أن يكون قلب السالك حاضراً مع الحق في الأحوال كلها ، غائباً عن الخلق مع كونه بين الناس ، يأكل معهم ويجالسهم لكن يكون في الحقيقة تماماً مع الله . وهذه مرتبة رفيعة يَصِلُ إليها المريد بعد المجاهدة المستمرة .

والخلوة نوعان :

١- خلوةٌ من حيث الظاهر : وهي اختلاء السالك في مكان بعيد عن الناس ، في مكان لا تشويش فيه . وكلما كان المكان هادئاً أكثر كان أقرب للحضور .

٢- خلوةٌ من حيث الباطن : وهي كون الباطن في مشاهدة أسرار الحق ، وإن كان في ظاهره مع الخلق .

وهذه حالة دقيقة ورفيعة قد لا يتصورها المريد في البداية لكن تكون طَبيعيةً في النهاية ، وهي أعلى وتحصل عند متابعة الأولى على حسب

قواعد الطريقة النقشبندية العلية

إن الطريقة النقشبندية مبنية علىٰ إحدىٰ عشرة قاعدة ، منها ثمان وضعها الشيخ عبدالخالق الغجدواني ، فله الفضل في وضع مبانيها وأسس الذكر فيها .

وهذه القواعد هي :

القاعدة الأولىٰ :

[حفظ النَّفَس عن الغفلة عند دخوله (الشهيق) وعند خروجه (الزفير) وما بينهما ؛ ليكون القلب حاضراً مع الله في جميع الأنفاس] .

هنا اعتبر شيخنا أن كل نَفَس يدخل ويخرج بالحضور فهو حي موصولٌ بذات الله ، وكلُّ نَفَس يدخل ويخرج بغفلة فهو ميت . والنَّفَسُ الميت حكمه كحكم الميت ، والنَّفَسُ الحي حكمه كحكم الحي .

فعلىٰ المريد أن يكون دائماً حاضراً مع الله تعالىٰ في جميع وقته ، بحيث يَدخل نَفَسُهُ علىٰ حضورٍ ويخرج كذلك ، والحضور يكون هنا بكله ، وعندها يشعرُ بأن قلبه امتلأ بالنور .

القاعدة الثانية :

[إن السالك في بداية أمره يجب عليه أن لا ينظر في حال مشيته إلا إلىٰ قدميه ، ولا في حال جلوسه إلا بين يديه] .

وذلك ليحفظ نظره عن السوىٰ ، وعن المعصية ، وعن أي شيء يُشغله عن الله ، فيبقىٰ نظيف القلب ، نظيف الساحة .

القاعدة الثالثة :

[يجب على السالك أن يتفحص في نفسه هل في قلبه بقية حب الدنيا ، فإذا عرف شيئاً من ذلك اجتهد في زواله] .

ويعني الشيخ هنا أن ينتقل المريد من الصفة البشرية إلى الصفة الملائكية الفاضلة التامة . فعليه بالتفحص المستمر ، فإن رأى أيَّ ميولٍ إلى الدنيا فهو مريض ولا بد له من المعالجة .

القاعدة الرابعة :

[الخلوة في الجلوة] .

والمرادُ أن يكون قلب السالك حاضراً مع الحق في الأحوال كلها ، غائباً عن الخلق مع كونه بين الناس ، يأكل معهم ويجالسهم لكن يكون في الحقيقة تماماً مع الله . وهذه مرتبة رفيعة يَصِلُ إليها المريد بعد المجاهدة المستمرة .

والخلوة نوعان :

١- خلوةٌ من حيث الظاهر : وهي اختلاء السالك في مكان بعيد عن الناس ، في مكان لا تشويش فيه . وكلما كان المكان هادئاً أكثر كان أقرب للحضور .

٢- خلوةٌ من حيث الباطن : وهي كون الباطن في مشاهدة أسرار الحق ، وإن كان في ظاهره مع الخلق .

وهذه حالة دقيقة ورفيعة قد لا يتصورها المريد في البداية لكن تكون طَبيعيةً في النهاية ، وهي أعلى وتحصل عند متابعة الأولى على حسب

سلوك المريد . فالمريدُ في البداية لا يستطيع أن يكون مع الخلق والخالق ، إنما مع التمرين والمثابرة ، والترويض والسلوك ، ومراقبةِ الشيخ ، وعرض الأمور بين يديه ، وقبولِ النصائح يكون ذلك ، بل يصبح عنده كشرب الماء البارد .

وكما قيل :

ولقد جعلتكَ في الفؤاد مؤانسي   وأبحتُ جسمي مَنْ أراد جلوسي
فالجسمُ مني للجليس مجالس   وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

القاعدة الخامسة :

[تكرارُ الذكر على الدوام سواء باسم الذات أو النفي والإثبات إلىٰ أن يحصل الحضور بالمذكور] .

وأن يكون بهذه الحالة مع اسم الذات أو النفي والإثبات بحضور تام سواء في البيت ، أو في المكتب ، أو في الشارع ، حتىٰ تأتي عليه فترة كله يقول : (الله) ، وكلُّ شعرةٍ في جسمه يسمعها تذكر الله ، ويكون مع اسم الذات حين دخول النَّفَسِ وعند خروجه .

وهنا يرجعُ الذاكر في النفي والإثبات بعد إطلاق نَفَسِه للمناجاة بهذه الكلمة الشريفة : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) مع ملاحظتها ، وتَأَكُّدِ نفي السوىٰ ، وإثباتِ اسمِ الله . وهذه تُورثُ في قلب الذاكر سر التوحيد الحقيقي حتىٰ يَفنىٰ عن نظره وجودُ جَميعِ الخلق بل يكون مع الخالق ، ومن ذاق عرف .

القاعدة السادسة :

[أن يحفظ المريد قلبه من دخول الخواطر ولو لحظة] .

وإنه أمرٌ عظيم عند السادة النقشبندية ، فالمريد إذا وصل إلىٰ ما سمعنا وأصبح مع الخالق ، لا بد له أن يُبْعِد قلبه عن كل خاطر دنيوي ، بحيث يكون دائماً مع الملكوت بعيداً عن الخواطر الدَّنِيَّة . لذا لا بد له مما يسميه السادة النقشبندية من الحراسة علىٰ باب القلب ، ولهذا قال أبو بكر الكتاني قدس سره : (وقفت حارساً علىٰ قلبي أربعين عاماً لا أُدخل عليه غير الله) .

ولا بد للمريد من الفناء قبل كل شيء ، فيفنىٰ عن الكل ، ويُحْجَبُ عن السوىٰ . وفي هذه الفترة يميل للخلوة والبعد عن الناس ، ثم بعدها يبقىٰ بالله تعالىٰ . فمقام الفناء رفيع ، والذي أرفع منه مقام البقاء .

القاعدة السابعة :

[التوجه الصرف المجرد عن الألفاظ إلىٰ مشاهدة أنوار الذات الأحدية] .

وهذا لا يستقيم إلا بعد الفناء التام والبقاء السابغ .

القاعدة الثامنة :

[الوقوف الزماني] .

وهو آخر أساس وضعه الشيخ الغجدواني .

وهنا ينبغي للسالك بعد مضي كل ساعتين أو ثلاث بالذكر أن يلتفت إلىٰ حال نفسه ، كيف كان في هاتين الساعتين أو الثلاث ؟ فإنْ كان حاله الحضورَ مع الله تعالىٰ حمد الله وشكره علىٰ هذا التوفيق ، وعَدَّ نفسه مع ذلك مقصراً في ذلك الحضور الماضي واستأنف حضوراً أتم ، وإلا تدارك نفسه قبل فوات الأوان .

القاعدة التاسعة :

[الوقوف العددي] .

وهو المحافظة على عدد الوتر في النفي والإثبات ثلاثاً أو خمساً . . . وهكذا إلى إحدى وعشرين ، حيث فائدتها المعنوية كثيرة مع الأوتار .

القاعدة العاشرة :

[الوقوف القلبي] .

وهو عبارة عن حضور مع الحق سبحانه على وجه لا يبقى للقلب مقصود غير الحق سبحانه وتعالى ، ولا ذهول عن معنى الذكر .

وهذا من شروط الذكر التي لا بد منها .

القاعدة الحادية عشرة :

[وهي رجوع الذاكر في النفي والإثبات بعد إطلاق نَفَسه للمناجاة بهذه الكلمة الشريفة : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي)] .

حيث ملاحظتها تؤكد النفي والإثبات ، وتورث في قلب الذاكر سر التوحيد الحقيقي ، حتى يفنى عن نظره وجود جميع الخلق .

وقد مر معنا ما يقاربها وهي القاعدة الخامسة .

وهذه النقاط لا بد لنا أن نكررها دائماً لتدخل إلى قلوبنا ، ولو استجمعناها أمامنا كاملة لذقنا حلاوتها ، وكلما تَعَمَّقَتْ في أذهاننا أكثر ازدادت حلاوتها .



الختم الشريف

اعلم أن للختم الشريف في الطريقة فوائدَ كثيرةً جداً ، وهو مجربٌ لحصول المقاصد ، ودفع البليات ، وقبول الدعاء ، فهو المخصوص بالطريقة النقشبندية بعدَ اسمِ الذات أو النفي والإثبات كما يلقنك الشيخ . حيث جميع أرواح المشايخ من سيدنا محمد ﷺ وإلىٰ شيخك ببركة هذا الختم يكونون وسيلة لك علىٰ هذا الأمر ، فأنت تسأل الله تعالىٰ وبنفس الوقت كل شيخ من مشايخ الطريقة يسألها لك من الله ﷻ ، وعلىٰ قمتهم سيدنا محمد ﷺ ، وسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

والختم ختمان:

١- الختم الصغير أو الموجز .

٢- الختم الكبير .

وهناك ختم آخر عند السادة النقشبندية هو ختم الإمام الرباني أحمد الفاروقي ويسمىٰ الختم الفاروقي ، وهو مُجرب في أوقات الكروب لذهابها ، ولتيسير الأمور ، وشفاء المرضىٰ ، والتوسعة في الرزق .

آداب الختم الشريف :

إنَّ آداب الختم الشريف كثيرةٌ ، وأَخَصُّها ثمانية :

١- أن يكون المريد علىٰ طهارة كاملة ، وأن يكون المكان كذلك طاهراً .

٢- المكان الخالي من الضوضاء وما يُعكرُ أو يشوشُ .

٣- الخشوع والحضور .

٤- كون الحاضرين مأذونين من هذه الطريقة .

٥- تغميض العينين إلى آخر الختم .

٦- عدم وجود أمرد في المكان .

٧- غلق الباب .

٨- الجلوس متوركاً .

١ - الختم الصغير (الموجز)

وأركانه كما يلي :

١- قراءة الدعاء بعد بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو : (اللهم يا مفتح الأبواب ، ويا مسبب الأسباب ، ويا مقلب القلوب والأبصار ، ويا دليل المتحيرين ، ويا غياث المستغيثين أغثنا ، توكلنا عليك يا رب العالمين ، ونفوض أمورنا إلى الله ، إن الله بصير بالعباد بألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

٢- الاستغفار خمساً وعشرين مرة .

٣- رابطة شريفة ، فيتصور كلُّ واحدٍ شيخه أمامه ، وأن النور يخرج من قلب الشيخ إلى قلبه .

٤- فاتحة شريفة .

٥- صلوات شريفة .

٦- ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ ﴾ شريف .

٧- إخلاص شريف (تسع مرات) .

٨- يا باقي أنت الباقي (أربع مرات) .

٩- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (ثلاث مرات) .

١٠- يا خفي الألطاف أدركنا بلطفك الخفي (خمس مرات) .

١١- فاتحة شريفة .

١٢- صلوات شريفة .

١٣- الدعاء وهو كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث إلى كافة الثقلين .

يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم بلغ وأوصل ثواب هذا الختم الشريف هدية منا زيادة في شرف شمس النبيين ، وقمر المرسلين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، وأفضل المخلوقات ، وخلاصة الموجودات : سيدنا محمد النبي الأمي الهاشمي المكي المدني الأبطحي الزمزمي التهامي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وإلى أرواح أهل بيته وأزواجه وأتباعه والمسلمين إلى يوم الدين .

وإلى جميع أرواح إخوانه الأنبياء والمرسلين ، وآل كلٍّ وصحب كلٍّ أجمعين .

ثم إلى روح الشفيق الرفيق ، أفضل الأئمة على التحقيق ، خليفة رسول الله ﷺ ، وصاحبه في الغار ، حضرة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وعنا بجاهه آمين .

ثم إلى روح المعروف من آل بيت النبي سيدنا سلمان الفارسي المكرم المقبول رضي الله تعالى عنه وعنا بجاهه آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا أبي يزيد البسطامي قدس سره ، وأفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى جميع باقي السلسلة النقشبندية الشريفة إلى سيدنا محمد الباقي قدست أسرارهم ، وأفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنوارهم وبرهم آمين .

ثم إلى روح الإمام الرباني والمجدد للألف الثاني سيدنا ومولانا الشيخ أحمد الفاروقي السهرندي قدس سره ، وأفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى جميع باقي أرواح السلسلة النقشبندية العلية إلى سيدنا الشيخ عبدالله الدهلوي قدست أسرارهم ، وأفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنوارهم وبرهم آمين .

ثم إلى روح رحلة الأبدال والأوتاد ، قطب دائرة الإرشاد ، حاج الحرمين الشريفين : أبي البهاء ضياء الدين مولانا الشيخ خالد ذي الجناحين قدس سره العزيز ، وأفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى جميع باقي السلسلة النقشبندية العلية إلى سيدنا الشيخ عيسى أبي شمس الدين قدس الله تعالى أسرارهم العزيزة ، وأفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنوارهم وبرهم آمين .

ثم إلى روح الفرد الصمداني والغوث الرباني سيدنا ومولانا الشيخ إبراهيم الغلاييني قدس سره ، وأفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ أبي الخير الميداني قدس سره ، وأفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

وإلىٰ جميع أرواح المشايخ ولمن أجازنا ، ولسائر الطرق وعلىٰ الخصوص : القادرية ، والسهروردية ، والكبروية ، والجستية . قدس الله أسرار أهاليها الكرام .

اللهم اجعلها مكتوبة في صحيفة كلٍّ ، وأَعْلِ بها عندك في أعلىٰ عليين منزلة كلٍّ ، ولا تحرمنا من بركات كلٍّ ، وأمدنا بإمدادات كلٍّ ، واكتبنا عندك من المقربين يا أرحم الراحمين .

والحمد لله رب العالمين .

٢ - الختم الكبير

يكون جماعياً مع جماعة مأذون لهم من الشيخ وإلا فلا فائدة ، وتستطيع أن تقرأه وحدك بإذن من الشيخ . فإذا قُرئ لقضاء الحاجات وحصول المقاصد ، فإن الله تعالىٰ بفضله يقضيها ، وهو مجرب لذلك .

والأَوْلىٰ أن يُقرأ في أشرف الأوقات كيوم الجمعة ، وليلة الجمعة ، ويوم الخميس ، وليلة الخميس ، صباحاً أو بعد العصر من هذه الأوقات . وإذا لم يُستطع في هذه الأوقات فليُقرأ يوم الإثنين .

ويجب أن لا يحصل كلام في أثناء الذكر حتىٰ الانتهاء من جميع الأذكار والدعاء .

وأركانه كما يلي :

١- قراءة الدعاء بعد بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو : (اللهم يا مفتح الأبواب ، ويا مسبب الأسباب ، ويا مقلب القلوب والأبصار ، ويا دليل المتحيرين ، ويا غياث المستغيثين أغثني ، توكلت عليك يا رب ، وفوضت أمري إليك ، يا فتاح ، ويا وهاب ، يا باسط ، وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلم) .

٢- أن يربط قلبه بقلب الشيخ بالكيفية التي مرت معنا .

٣- الاستغفار خمس عشرة مرة .

٤- قراءة الفاتحة سبع مرات .

٥- الصلاة على النبي ﷺ مائة مرة .

٦- قراءة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ تسعاً وسبعين مرة .

٧- قراءة سورة الإخلاص ألف مرة وواحدة .

٨- قراءة الفاتحة سبع مرات .

٩- الصلاة على النبي ﷺ مائة مرة .

١٠- قراءة ما تيسر من القرآن الكريم .

١١- الدعاء ، وهو كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم تفضل بقبول ما تلوناه ، واجعله هدية منا إلى روح الأرواح وقرة الأعين سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ .

ثم إلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنوارهم وبرهم آمين .

ثم إلى روح الشفيق الرفيق ، صاحب النبي بالغار ، سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه عنا آمين .

ثم إلى روح المعدود من آل بيت النبي سيدنا سلمان الفارسي ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح المعدود من الفقهاء السبعة سيدنا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح من هو بالحق ناطق سيدنا ومولانا جعفر الصادق قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ أبي يزيد البسطامي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ أبي الحسن الخرقاني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ أبي علي الفارمدي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ يوسف الهمداني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ

عبدالخالق الغجدواني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ عارف الريوكري قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمود الإنجيري قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ علي الرامتني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمد بابا السماسي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ الأمير كلال قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمد الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ علاء الدين العطار قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ يعقوب الشرفي الحصاري قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ ناصر الدين عبيدالله الأحرار السمرقندي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمد الزاهد قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ الدرويش محمد قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمد الأمكنكي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا إناء المحبة الساقي الشيخ محمد الباقي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني مجدد الألف الثاني سيدنا ومولانا الشيخ أحمد الفاروقي العمري قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمد المعصوم قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمد سيف الدين الفاروقي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ محمد البدواني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين حبيب الله جان جانان المظهر قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ عبد الله الدهلوي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني المجدد الثاني سيدنا ومولانا الشيخ خالد البغدادي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلىٰ روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ إبراهيم النوراني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض علىٰ العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ خالد الجزري قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ صالح السبكي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ حسن النوراني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ قاسم الهادي قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ عيسى أبي شمس الدين قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ إبراهيم الغلاييني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى روح القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا ومولانا الشيخ أبي الخير الميداني قدس سره ، أفاض الله علينا كما أفاض على العالمين أنواره وبره آمين .

ثم إلى جميع أرواح خلفائهم ، وإلى جميع أرواح مَن أجازنا وأجاز مشايخنا ، وإلى أرواح المحبين .

ثم إلىٰ جميع مشايخ الطرق ، ونخص منهم مشايخ طرق القادرية ، والجستية ، والكبروية ، والسهروردية ، قدس الله أسرار أهاليها العلية أجمعين .

ثم إلىٰ جميع الأولياء والصالحين .

اللهم اجعل ثواب ذلك في صحيفة أعمال كلٍّ ، وارفع بها في أعلىٰ عليين منزلة كلٍّ ، وأفض علينا من بركات كلٍّ ، ولا تحرمنا من بركات كلٍّ ، وأتمم لنا سلوك الطريقة والشريعة ، ووفقنا لمرضاة شيخنا وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وارزقنا البقاء بك بعد الفناء فيك علىٰ قدم ساداتنا السالكين فيها ، ويَسِّرْ لنا طريق العلم والعمل ، وافتح لنا أبواب فضلك ، وانشر علينا خزائن علمك برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم اجذبنا إلىٰ محبتك بمحبة أوليائك ، وارزقنا التوفيق والاستقامة علىٰ طاعتك وعلىٰ هذه الطريقة العلية النقشبندية ، واجْزِ عنا جميعَ مشايخنا خير الجزاء ، وزِدْ في إحسانهم وإكرامهم وعلو درجاتهم يا أرحم الراحمين .

ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار .

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد النبي الأمي وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام علىٰ المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

١٢- وبعد الانتهاء من قراءة الختم يُستحسن تلاوة شيء من القرآن بحضور وخشوع ، أو بعض المدائح .

تنبيه :

هذا الختم مرويٌّ عن الشيخ عبدالخالق الغجدواني ، وعن الشيخ بهاء الحق والدين محمد شاه نقشبند قدس الله سرهما .



رسالة في معنى الرابطة الشريفة

إن أعوان إبليس تعوّدوا أن يصطادوا بالماء العكر ، وأن يوسعوا الأمور التي تُبْعِدُ الإنسان عن الله تعالىٰ . حاولوا أن يُدخلوا علىٰ الإسلام ما ليس منه ، وأن ينتزعوا منه ما هو قوامه وصلبه ، حسب أساليبهم الإبليسية التي تؤثر في الجهلاء وَمَنْ هُم قليلوا العلمِ في الشريعة والحقيقةِ . والمريدُ الصادق بحاجة ماسةٍ إلىٰ الصفاء ، وجمعِ القلب علىٰ المذكور . فأقل تشويش عليه يُذهب صفاءه ، ولا تحصلُ بالتالي النتيجة المرجوةُ مِن الذكر لديه .

ولقد ورد إلىٰ سمعي هذه الكلمات من المعادين الذين يقولون : تريدونها مجوسية ويقولون أشياء كثيرة ، كنتُ أسمع ذلك وكأني أطعن في قلبي بخنجر . كما سمعتُ كذلك من بعض إخواننا المبايعين الجدد أنه عندما تحصل الرابطة معه يقول له إبليس : أنتَ تعبدُ شيخك ، ولقد رددت عليه بالرد المناسب .

وفي الحقيقة أقلقني هذا الموضوع كثيراً ، وكان لا بد لي من التصدي لمثل هذا الخطر الفادح علىٰ الاعتقاد ، والرد علىٰ هؤلاء المغرضين قاطعي الطريق ؛ لأن قاطع الطريق الحسي يؤثر علىٰ مالك وهذا بسيط ، أما هؤلاء فإنهم يؤثرون علىٰ عقيدتك وعلىٰ روحك ، فأَمْرُهُم أعظمُ من ذلك . وإذا كان قاطع الطريق الحسي يُصلب وتُقطع يديه وما إلىٰ ذلك ، فهذا ماذا يُعمل به ؟ فإنا نكله إلىٰ الله تعالىٰ ، فهو خير حكم بيننا وبينه .

فصبرتُ حتىٰ أكرمني الله ﷻ بتوفيقه ، ورأيت الوقت المناسب لأرد

على هؤلاء بالعلم والمعرفة ، ببراهين الشريعة والأدلة العلمية من عمدة علماء الشريعة والحقيقة في المذاهب الأربعة ؛ وذلك لأكشف اللثام عن الحقيقة ، ولأزيل عن أبناء الطريقة ما يشوش أو يعكر صفوهم في هذا المجال .

وأحببت كذلك أن تكون كلمتي هذه عن الرابطة صلباً لرسالتي في السلسلة النقشبندية التي أنهيت بفضل الله تعالى وعونه ، فأقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام التامان على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وبعد ،

لقد قرع سمعَ هذا المسكين أن بعض الغافلين عن أسرار حق اليقين يعدون الرابطة عند السادة النقشبندية بدعةً ، ويزعمون أنها شيء ليس له أصل ولا حقيقة ، بل وصلوا إلى ما هو أكبر من ذلك واعتقدوا بأن الذاكر يعبدُ شيخه .

كلا ، إنها أصلٌ عظيم من أصول طريقتنا العلية النقشبندية ، بل هي من أعظم أسباب الوصول بعد التمسك التام بالكتاب العزيز والسنة المطهرة . لهذا كان بعضُ سادتنا في الطريق يقتصر عليها في السلوك والتسليك على أنها أقرب الطرق إلى الفناء في الشيخ ، الذي هو مقدمة الفناء في الله تعالى .

لهذا رأينا بعض مشايخنا أثبتها بنص قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] .

ولو أردتُ أن آتي بكل ما قيل لاحتجت لتأليف مجلد ، لكن سأذكرُ ما يكفي إن شاء الله تعالىٰ ، فقد قال بها مِن كلِّ مذهب مِن المذاهب الأربعة أئمةٌ تَصريحاً وتلويحاً .

* وهنا قال سيدي عبيد الله الأحرار قدس سره :

إن الكينونة مع الصادقين المأمور بها في كلام رب العالمين هي الكون معهم صورةً ومعنىً .

ثم فسّر الكينونة المعنوية بالرابطة الشريفة .

* وفي كتاب [الرشحات] يقول صاحبه معبراً عن المعترضين :

وكأنهم لم يتصوروا معنىٰ الرابطة اصطلاحاً وإلا لَما وسعهم إنكارها ، إذ هي في الطريقة عبارةٌ عن استمداد المريد مِن روحانية شيخه الكامل الفاني في الله تعالىٰ ، وكثرةِ رعايةِ صورته ليتأدب وليستفيض منه في الغيبة كالحضور ، وليتمَّ له باستحضارها الحضورُ التامُّ والنورُ الكامل ، وينزجرَ بسببها عن سفاسف الأمور . وهو أمرٌ لا يُتَصَوَّرُ جحوده إلا ممن كتبَ الله تعالىٰ في جبهته الخسران ، واتسم والعياذ بالله بالمقت والحرمان ؛ لأنه إن كان ممن يعتقد بالأولياء فقد صرحوا بحسنها وعِظَمِ نفعها ، بل اتفقوا عليها كما لا يخفىٰ علىٰ مَن تتبع كلماتهم القدسية ، واستنشق نفحاتهم الأنسية ، وإلا فلا بد أن يعتقد بكلام أئمة الشرع .

❁ وقال جماهير من المفسرين في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف : ٢٤] ، ومنهم صاحب [الكشاف] مع انحرافه عن الاعتدال واتصافه بالإنكار والاعتزال :

إن يوسف عليه السلام سمع صوتاً : (إياك وإياها) فلم يكترث له ، فسمعه ثانية فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً : (أعرض) فلم ينجع فيه ، حتىٰ مُثِّلَ له يعقوب عليه السلام عاضاً علىٰ أنملته ، وقيل : ضرب بيده علىٰ صدره . . . . إلىٰ آخر ما قال .

وبعض المفسرين يقولون : رأىٰ جبريل ، وكلها تُثْبِتُ معنىٰ الرابطة .

❁ وأما مِن أئمتنا في مذهبنا الشافعي ما قاله الإمام الغزالي في كتابه [الإحياء] في باب تفضيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن من الصلاة ما نصه :

وأَحْضِرْ في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم ، وقل : السلام عليك أيها النبي ، وليصدق أملك في أنه يبلغه ، ويرد عليك بما هو أوفىٰ منه .

وعبارته هذه هي الرابطة في الصلاة .

❁ وقال الشيخ ابن حجر الهيتمي في كتابه [شرح العباب] في بيان شرح معاني كلمات التشهد ما نصه :

وخوطب ﷺ ، كأنه إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ يكشف له عن المصلين من أمته حتىٰ يكون كحاضر معهم ؛ ليشهد لهم بأفضل أعمالهم ، وليكون تَذَكُّرُ حضورِهِ سَبَباً لمزيد الخشوع والحضور .

❁ وقال الإمام الشافعي الفاضل العارف المربي الشيخ السهروردي في كتاب [عوارف المعارف] في باب صلاة أهل القرب مثل عبارة ابن حجر تماماً ، ومن جملة عبارته :

ويسلم على النبي ﷺ ويمثله بين عيني قلبه .

وهي أحكَامٌ تُدَرَّسُ في المذاهب الشرعية ، ويقرؤها أهل الشريعة أجمع .

❁ وحكى الإمام الشهاب ابن حجر في أواخر [شرح الشمائل] وفاقاً للحافظ الجلال السيوطي في كتابه [تنوير الحالك في رؤية النبي والمَلَك] ما نصه :

أنه حُكي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه رأى النبي ﷺ في النوم ، فدخل على بعض أمهات المؤمنين وقص عليها رؤيته ، فقامت وأخرجت له مرآة النبي ﷺ ، فنظر فيها فرأى صورة النبي ولم ير صورة نفسه[1] .

هذا هو الفناء في الرابطة في اصطلاح القوم ، حيث ليس الكلام في صورة النبي ﷺ ؛ لأنا نقول : إن هذا ليس من خصائص الأنبياء ، وكل ما هو كذلك فهو مشترك بين الأنبياء وبين الأولياء ، ولا شك في هذا عند أهل العلم .

وأنت تعرف أيها المريد أن مخاطبة غيره في الصلاة مبطلة لها ، وهي من خصوصياته ﷺ . وإن إحضار الصورة فيها والتسليم على

---

(١) ذكره ابن حجر في كتابه فتح الباري .

صاحبها كذلك هي من خصائص حضرة روح الوجود وصاحب المقام المحمود صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين ، و هذا غير مراد فيما نحن فيه .

* وذكر الإمام جلال الدين السيوطي في رسالة له اسمها [المنجلي في تطور الولي] ناقلاً كلامه عن الإمام السبكي في [طبقاته الكبرىٰ] ما نصه :

الكرامات أنواع . . . وتكلم كثيراً إلىٰ أن قال : التطور بأطوار مختلفة وهو الذي تسميه الصوفية بعالم المثال ، وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة في عالم المثال ، واستأنسوا له بقوله تعالىٰ : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم : ١٧] .

وهل هذا إلا الرابطة عند السادة النقشبندية ؟ فجبريل تمثل لها والسيدة مريم ليست بنبية ، والتمثل هذا هو الإحضار عند السادة النقشبندية .

* وقال الإمام الشعراني قدس الله سره في كتاب [النفحات القدسية] عند عد آداب الذكر ما نصه بعد أن تكلم كثيراً :

السابع : أن يُخَيِّلَ شخص شيخه بين عينيه ، وهذا عندهم آكد الآداب .

* وقال تاج الدين الحنفي النقشبندي قدس سره في رسالته [التاجية] :

الطريقة الثالثة : الرابطة بالشيخ الذي وصل إلىٰ مقام المشاهدة وتحقق بالصفات الذاتية ، فإن رؤيتَه بمقتضىٰ (هم الذين إذا رُؤوا ذُكر الله) تفيد فائدة الذكر ، وصحبتَه بموجب (هم جلساء الله تعالىٰ) تنتج صحبة المذكور . . . إلىٰ أن قال : فينبغي أن تحفظ صورته في الخيال ، وتتوجه إلىٰ القلب الصنوبري حتىٰ تحصل الغيبة والفناء عن النفس .

فهنا اعتبر الرابطة مع الشيخ ذكراً .

❁ كما علق الشيخ عبدالغني النابلسي الحنفي على [التاجية] وأقر صاحبها على ذلك ، أي أيّد الرابطة عند السادة النقشبندية .

❁ ومن علماء الحنابلة قال العلامة الولي الكامل سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره :

إن للفقير - أي السالك طريق القوم - رابطة قلبية مع الأولياء ، ويستفيد منهم بسبب تلك الرابطة .

❁ وقال تلميذ ابن تيمية العالم الحنبلي ابن القيم الجوزي في كتاب [الروح] ما نصه :

للروح شأن آخر غير شأن البدن فتكون في الرفيق الأعلى ، وهي متصلة ببدن الميت بحيث إذا سُلِّمَ على صاحبها ترد السلام وهي في مكانها هناك .

وهذه هي الرابطة .

❁ ومن العلماء المالكية قال الإمام الجليل الشيخ خليل الذي يفتى بقوله في المذهب ما نصه :

الولي إذا تحقق في ولايته تمكن من التصور في روحانيته ، ويعطى من القدرة التصور في صور عديدة ، وليس ذلك بمحال لأن التعدد هو الصورة الروحانية ، وقد اشتهر ذلك عند العارفين بالله تعالى .

❁ ولقد نُقل مثلُ هذا الكلام عن الإمامين الجليلين المالكيين أبي العباس المرسي ، وتلميذه الشيخ ابن عطاء الله السكندري .

وأقول : إن المذيع في التلفاز يُرىٰ بملايين الأجهزة في العالم وهو واحد وبنفس الوقت ، وهذا في مجال العلم الظاهري ، أليس الله تعالىٰ بقادر أن يكرم أحبابه مِن أن يظهروا بآلاف الصور الكثيرة ؟

فكيف إذاً يَسوغ للعوام أو المعاندين إنكار مثل هذه بعد تصريح الأولياء الكرام والعلماء الأجلاء الذين هم أهل الحل والربط ، ومنهم مَن يتلقىٰ العلوم اللدنية بلا واسطة من الحي الذي لا ينام ؟

نحن نعبد الله تعالىٰ وحده ، ومشايخنا هم الدالون لنا علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ الحضرة الإلهية ، وما هم سوىٰ عبيد كانوا خادمين للمسلمين جزاهم الله عنا وعن الأمة الإسلامية خير ما جزىٰ شيخاً عن مريديه .

لقد أحببت أن أضع بين أيديكم هذه النقاط ليكون المريد بعيداً عن التعكير وعن الذبذبات الإبليسية ، علماً أني اقتصرت علىٰ هذا القدر من الكلام خوفاً من الإملال ، وإلا لأوجدت مجلداً حافلاً بعون الله تبارك وتعالىٰ .

وإن الذي حملني علىٰ هذه النبذ في مجال الرابطة الشريفة عند السادة النقشبندية غيرتي علىٰ الطريقة العلية ، ولأرُدَ علىٰ المعاندين ، ثم رعاية الشفقة علىٰ الأخوة المريدين ومَن يسهل وقوعهم لجهلهم ، أو لقلةِ علمهم في إنكار طور الأولياء الكاملين ، وإلا لَما أقدمتُ علىٰ إظهار بعض هذه الأسرار .

وكنت منذ عشرين عاماً أحب أن أخاطب أبنائي بمثل هذه العبارات ، غير أني لم أجد الوقت المناسب لذلك . ولقد انتظرت

كثيراً حتىٰ وجدتــه لأذب عــن الطريقــة الــتي هــي عــروة الوصــول ، وسُلَّمُ رضوان الله تعالىٰ واتباع الرسـول ﷺ . الـتي أصولهـا التمســك بعقائد أهل السنة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية ، وترك التقاط الرخص ، والأخذ بالعزائم ، ودوام المراقبة ، والإقبال علىٰ المولىٰ تعالىٰ في جميع الحالات ، والإعراض عن زخارف الدنيا بـل وعـن كل ما سوىٰ الله تعالىٰ المُعَبَّر عنه بالإحسان في الحديث الشـريف : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

هذا وإن خادم هذه الطريقة يوصي بجميع مـا تقـدم مـن الآداب معنا في سرد سادتنا رجال الطريقة النقشبندية ، وأعتبر ذلـك آداباً علىٰ المريد الصادق أن يتمسك بها .

كما وإني أبرأ إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ مِن كل مَن يخالف الكتاب والسنة ، ولم يتبع هدي النبي ﷺ وهدي الأصحاب الكرام .

كما أطلب من الإخوان دوام الدعاء لبقاء هذه الجماعة المتواضعـة التي بها يرفـع الله تعـالىٰ الكثير مـن البلاء ومكـر الأعـداء ، والدعـاءَ لخادمها بحسن الختام والوفاة علىٰ الإيمان والإسلام .

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد النبي الأمي وعلىٰ آله وصحبـه ومن تبعهم إلىٰ يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين .



---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وتفرد به مسلم عن البخاري بإخراجه . كما خرجه أحمد في مسنده ، ورواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم .

عقيدتي ووصيتي

لَمَّا أكرمنا الله ﷻ بسرد السلسلة النقشبندية العلية ، وبترجمة ما تيسر لنا من رجالها الأفاضل قدس الله أسرارهم ، وبعد ذكر ما تيسر من الأذكار المطلوبة عند السادة النقشبندية ، والأوراد اللازمة من الختم ، وأوراد المريد ، رأيتُ أن أذكر في نهايتها عقيدتي وشيئاً من وصيتي .

فيقول العبد الفقير إلىٰ ربه الغني :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد المرسلِ رحمة للعالمين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،

هذه وصية العبد الفقير إلىٰ ربه تبارك وتعالىٰ : محمد عيد يعقوب الحسيني .

أَشهد أني علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة شريعةً وحقيقةً ، وأني أَشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأني آمنتُ بالله تبارك وتعالىٰ ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ ، وأن الموت حق ، وسؤال القبر حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله تبارك وتعالىٰ يبعث مَن في القبور ، وأن الحشر حق للروح والجسد معاً ، وأن شفاعة

سيدنا محمد ﷺ حق . وأن الحساب ، والميزان ، والحوض ، والصراط ، والجنة ، والنار حق . وأني رضيتُ بالله تعالىٰ رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن إماماً وحَكَماً ، وبالكعبة قبلة ، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً وإماماً ونذيراً وبشيراً ، وبالمؤمنين إخواناً . علىٰ ذلك أحيىٰ وأموت وأُبعث إن شاء الله تبارك تعالىٰ .

وإني أضرع إلىٰ المولىٰ تعالىٰ أن يحشرني مع أوليائه وأصفيائه تحت لواء سيدي وحبيبي وجدي وقرة عيني محمد ﷺ في دار النعيم المقيم .

وإني أُشهد الله تعالىٰ ، وأُشهد ملائكته وأنبياءه وأولياءه ، وجميع مَن حضر أو غاب روحانياً وجسمياً مِن الإنس والجن والمَلَك ، مع سائر ما خلق الله تعالىٰ مما هو معلوم لدينا ، ومما لا يعلمه غيره تبارك وتعالىٰ ، علىٰ أني أَشهد شهادة لازمة متواطئاً فيها القلب واللسان بأن الله الذي خلق العالم بعد ما لم يكن إلهٌ واحد ، واجب الوجود لذاته ، متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ، متفرد باستحقاق العبودية علىٰ العالمين ، إذ هو مالكهم حقيقة لأنه الذي أوجدهم مِن العدم ، وهو منفرد بالألوهية والقِدم والبقاء والخَلْق والقدرة .

وأنه سبحانه وتعالىٰ ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض ، وكذلك صفاته . لا يقوم به سبحانه وتعالىٰ حادث ، ولا يحل في شيء ، ولا يتحد بغيره ، مقدسٌ عن التجسيم وتوابعه ، وعن الجهات والأقطار ، مرئي في الدارين بالقلوب ، وفي الآخرة بالأبصار .

كان ولم يكن معه شيء ، لا بداية لوجوده ﷻ ، ثم أحدث العالم باختياره ، ولم يحصل له بسببه كمال ، ولم يتجدّد له تبارك وتعالىٰ بإيجاده اسم ولا صفة ، بل لم يزل بأسمائه وصفات ذاته لا شبيه له في الذات والصفة والفعل .

حيٌّ ، قيومٌ ، خالقُ كل شيء علواً وسفلاً ، براً وبحراً ، جسماً وجوهراً وعَرَضاً ، حتىٰ أفعال العباد الاختيارية .

عليمٌ بكل شيء من الموجودات والمعدومات ، ومن الكليات والجزئيات ، عالم الغيب والشهادة ، بل لا غيب في حضرته ﷻ فالكل شهادة عنده ، يعلم خائنة الأعين وهواجس الضمير ، كيف لا وهو خالقها ؟ قال تعالىٰ : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

لم تتعلق قدرته ﷻ بشيء حتىٰ أراده ، كما لم يُرِدْه حتىٰ عَلِمَه ، فما في الوجود شيء إلا وهو مراد ومقدر له تبارك وتعالىٰ .

مريدٌ لكل شيء ، كذلك قادرٌ علىٰ كل شيء ، سميعٌ بكل شيء ، بصيرٌ بكل شيء .

لا يخرج عن علمه تبارك وتعالىٰ مثقال ذرة من المعلومات ، ولا يخرج عن سمعه ذرة من المسموعات . يسمع كلام النفس في النفس ، وصوت المماسَّة الخفية عند اللمس .

لا يَطَّلِعُ علىٰ إبصاره شيء من المبصِرات ، يرىٰ ﷻ دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء علىٰ المَسْح الأسود ، ويبصر أصغر الأشياء في سواد الدأداء خلف بليون حجاب ، سواء لديه الأقرب والأبعد .

يتكلم لا عن صوت مقدم ، أو سكوت متوهم ، بكلام أزلي مقدس كسائر صفاته ﷻ ، كَلَّم به موسىٰ ، وأنزله علىٰ الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وسماه قرآناً وزبوراً وإنجيلاً وتوراة وصحفاً .

حياته ﷻ ليست بالروح والجسد والأركان .

وعلمه ﷻ منزه عن التفكر ، وسبق الجهل ، وطرق النسيان .

وإرادته ﷻ مقدسة عن الاضطراب ، وعن القلب والجَنان .

وقدرته ﷻ مبرأة عن توسط الآلات ، وتأييد الأعوان .

وسمعه ﷻ منزه عن توهم الأصمخة والآذان .

وبصره ﷻ لا يُتخيل له الحدقة والأجفان .

وكلامه ﷻ ليس من فم ولهاة ولسان .

فسبحانه تبارك وتعالىٰ مِن رب كريم ، عظيم السلطان ، عميم الإحسان ، جسيم الامتنان . كم له عليَّ مِن مِنَّة وفضل ؟ سبحانه سبحانه سبحانه .

وكلٌ من صفاته ﷻ لا تكثر فيه ، وكثرة التعليقات لا توجد فيها كثرة .

لا يقع شيء من غير إرادته ، ولا يكون في ملكه إلا ما شاء من خير وشر ، والمعصية والكفر بإرادته دون أمره ورضاه ومحبته .

وإنه تبارك وتعالىٰ عَلِمَ في الأزل جميع الوقائع الآتية من أفعال العباد وغيرها وما يجازون عليه ، وكتبها ﷻ بأشخاصها وأحصاها ، فلا يجري شيء إلا علىٰ طبق ما سبق في علمه ، سبحانه سبحانه سبحانه .

وإني أُوصي أهلي من بعدي ، وأولادي وبناتي وأرحامي ،

وتلاميذي ومريديّ ، ومَن ينتسب إليّ ، وجميع إخواني المسلمين بتقوىٰ الله ﷻ في السر والعلن ، ومحبة رسوله ﷺ التي تتمثل بالقول والعمل بما جاء به ﷺ ، وبمحبة العلماء العاملين الذين تعتبر محبتهم بعد سيدي رسول الله ﷺ الكنز الوحيد في هذه الدنيا وفي الآخرة . وإني أُومن أن السعيد هو مَن وفقه الله تعالىٰ لمعرفة أحبابه وأوليائه مِن أهل زمانه ومَن سبقهم ، وأن الشقي المحروم مَن حُرم مِن بركة أهل زمانه مِن العلماء العاملين والأولياء الصالحين .

كما أُوصي إخواني من بعدي بدوام الاجتماع علىٰ مِثل ما كنا عليه .

كما أُوصي كل من قرأ عليّ كتاباً ، أو تعلم مني علماً أو مسألة أو خلقاً حسناً ، أن يعلمه من يريد اللهَ واليومَ الآخر ، كما كان عهدكم بي في أثناء حياتي ومقامي معكم .

كما أُوصي الجميع بنسائهم خيراً ، بل بالمرأة خيراً ، وبالصبر علىٰ ما يصدر منهن من تقصير وتفريط مع وعظهن وإرشادهن بالتي هي أحسن ، فخِياركم خِياركم لأهله ، وما أكْرَمَهُنَّ إلا كريم .

كما أُوصي إخواني المسلمين كافة بالتمسك بالمذاهب الأربعة (المالكي ، والحنفي ، والشافعي ، والحنبلي) ، فهي التي وصلت إلينا بالأسانيد الصحيحة الموثوقة ، وهي التي تمثل أهل السنة والجماعة في هذا العالم المليء بالمغالطات والأهواء . حيث وُجد الكثير من المذاهب التي تمثل السنة والجماعة في عهد التابعين وما بعدهم إلىٰ ما قبل القرن الرابع الهجري ، غير أنها انقرضت ولم تنقل إلينا بالأسانيد الصحيحة كالمذاهب الأربعة ، فعلىٰ المذاهب الأربعة اجتمعت كلمة المسلمين أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

أجل إنها عقيدتي ، وإنها جزء من وصيتي ، وآمـل أن تكـون في نهايـة رسالتي لتكون مُقَدِّمَة لي عند خالقي ورازقي ، علها تشـفـع لي مـن ذنوبـي وآثامي التي أسأل الله تعالى أن يغفرها وأن يسترها ، إنه سميع مجيب .



الخاتمة

رزقني الله وإياك يا مَن تريد الله حسن الخاتمة .

وبعد ،

فإن طريق القوم ليس بعيداً عن الشريعة إنما هو روحها والتطبيقُ الحقيقي لها .

وآمل أن تكون هذه الرسالة المتواضعة مُقَدِّمة لعالمنا المادي ، علّه يشعر ويذوق بأن الحياة الروحية هي الحياة الصحيحة والباقية ، وأما غيرها فهو شغل عما وُجد الإنسان من أجله على ظهر هذه البسيطة .

وكما تلاحظ أخي القارئ بأني كنت منذ بداية سردي للطريقة وحتى آخرها أركز تماماً بأن طريقتنا هذه قائمة على التمسك التام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومستنبطة منهما ومن إجماع الأمة وما عليه سلفنا ، بل هي خلاصة عبادة أصحاب رسول الله ﷺ .

وسنبقى دائماً مع سلسلتنا النقشبندية العلية نقرؤها ونمحص ما فيها من أسرار ، ونخوض بحارها ونُخرجُ ما هو ثمين منها ؛ لنطبق ذلك على أنفسنا ، لنعمل بهذه السيرة ، ولنتمم الطريق لنكون كما كان آباؤنا الأول ، لتكون الراية الإسلامية الصادقة التي رفعها رسول الله ﷺ بأمر خالق هذا الكون محفوظة بيد تقي إلى يد تقي ، حتى تسلم إلى المهدي إن شاء الله محفوظة مصونة مُفداةً بالأرواح والدماء والمهج ، ثم من بعد المهدي إلى سيدنا عيسى عليه السلام، حتى يستلمها الله تبارك وتعالى من عبده جبريل الأمين .

فحافظ أيها الأخ المسلم على هذه السيرة ، وعلى هذه السلسلة النقشبندية العالية . وإياك أن تغفل عنها ، وليكن عندك صوتي المجرد على الكاسيت لا مكتوباً فقط لتسمعه كلما احتجت لذلك ، فأنت في هذا البحر الخضم ستحتاج إلى سماعه ؛ لأنه كما أعتقد يؤثر في كيانك وروحك ، ولأنه ما خرج من اللسان فقط ، إنما خرج من القلب والكيان فسمعته أذناك ، وآمل أن يعيه قلبك ، وأن تطبقه بجوارحك ، لتكون من جملة هؤلاء الأبطال الرجال الباقين الفانين الصادقين ، الذين كانوا كالنور أضاءوا لأنفسهم ولمن فهم قولهم . فمن دنا منهم استنار بنورهم ، وأضاء الطريق الطويل الذي يوصله إلى حضرة الله ﷻ . وكلما ضاق صدرك وطغت عليك الدنيا بزخارفها فعُد إلى هذه السيرة الطاهرة، وكن محباً لها ومطبقاً لكل ما فيها من أخلاق حميدة ؛ لتكون حجة لك لا حجة عليك .

وهمسة أخيرة أضعها شعاراً لسالك هذا الطريق ، ألا وهي:

"دع الخلق للخالق ، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره" .

ورحم الله رجلاً رأى كلامنا هذا فوعاه ، وحاول أن يطبقه على نفسه ، وانتفع به ونفع غيره ، وإن وجد به خطأ أصلحه بالتي هي أحسن . فمن اطلع فيه على تحريف أو خطأ فليصلحه بالمعروف ، حيث المشغلات كثيرة ، والهمم ضعيفة أو عديمة ، والحول والقوة لله ، والعصمة والحفظ لرسول الله ﷺ ثم لأولياء الله .

والله أسأل أن يكون مفهوماً ومقبولاً .

وبهذا أُنهي رسالتي في صبيحة يوم الأحد الأول من ذي الحجة لعام ثلاثة وعشرين بعد الأربعمائة والألف من الهجرة ، الموافق الثاني من شهر فبراير (شباط) من السنة الميلادية الثالثة بعد الألفين .

وأشكر الله ﷻ على ما مَنّ وأكرم ، وأُصلي وأُسلم على سيدنا محمد المعلم المربي ، المرشد المقرب ، صاحب الكمالات البشرية والفيوضات الربانية ، الذي تأتي من بابه العطايا ، فالله المعطي وهو القاسم .

وعلى جميع أصحابه ، وأهل بيته ، وأنصاره ، وورائه إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين .

خادم السادة الفقراء

محمد عيد يعقوب الحسيني

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الفصل الأول: تراجم رجال الطريقة النقشبندية العلية

الفصل الثاني: أصول وآداب وقواعد الطريقة النقشبندية العلية

تم بحمد الله وتوفيقه